فلاديمير كوزيشكن

المخابرات السوفياتية من الداخل

الأسطورة والواقع

ترجمة ونشر
اورينتال هاوس

المخابرات السوفياتية من الداخل

(الاسطورة والواقع)

فلاديمير كوزيشكن

المخابرات السوفياتية من الداخل

(الأسطورة والواقع)

ترجمة ونشر

شركة اورينتال هاوس للخدمات الاعلامية

قبرص

الطبعة الأولى
١٩٩١ م

حقوق الترجمة والنشر والطبع محفوظة
لشركة اورينتال هاوس للخدمات الاعلامية
ليبرا تاور ـ ٢٣ شارع اولمبيو ـ ص ب ٦٣٤٩ ـ تلفون ٣٧١٧٧٠
فاكس ٣٦٧٤٨٣ ـ تلكس ٥٩٨٤ ـ ليماسول ـ قبرص

المحتويات

الجزء الثالث ـ الخميني قائدنا

الجزء الرابع ـ ماذا كان فعل الرفيق لينين؟

مقدمة

اثر محاولة الاغتيال التي تعرض لها البابا يوحنا بولس الثاني في العام ١٩٨٤ أرسلت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي البريطاني (غراهـام اتكنسـون) وهـو صحافي يعمل في «المورننغ ستـار» البريطـانيـة التـابعـة للحـزب الشيـوعي الى بلغاريا للمشاركة في تغطية المؤتمر الصحفي لـ (سيرجي انطونـوف) المتهم من قبل السلطات الايطالية بمحاولة الاغتيال تلك .

ولم يكد (اتكنسون) يصل الى العاصمة «صـوفيـا» حتى اتصل بـه (اينكـو ميتوف) وهو شيوعي بلغاري طالباً معرفة مكان (فلاديمير كوزيشكن) مؤكـداً ضرورة العثور عليه حياً أو ميتاً . وكوزيشكن هذا يعمل بـرتبـة مـايجور في الـ كي . جي . بي . وقد تمكن من التسلل فهرب من العاصمة الايرانيـة «طهـران» حيث اكتُشف بعدئذ أنه دبّر أمر لجوئه الى بريطانيا .

أما (اتكنسون) فقد وُعد بأن يُمنح مبلغ مائة ألف دولار إذا ما كُللت المهمة التي كُلف بها بالنجاح . ولإعطائه بعض المعلومات المساعدة في عملية البحث فقد زوّده (ميتوف) باسم (رادوسلاف تسانشيف) الذي سيكون قائد العمليـة ويشغل منصب السكرتير الأول في السفارة البلغاريـة في لنـدن ، ولكنـه نبّه الى ضرورة عـدم الاتصـال بـه مبـاشرة ، وإنما عليـه الاتصـال بـــ (لين دوســـون) الشخصية المرموقة والرفيعة المستوى في الحزب الشيوعي البريطاني ، إضافـة الى كونه عضواً بارزاً في نقابة العمال وكذلك في جمعية الصداقة الانجلوبلغـاريـة . أما في حال تعذر الاتصال بـ (دوسون) فعليه وضع تقـريـره في مظـروف مقفل يحمل اسم (تسانشيف) ليودعه في أحد مكاتب طيران البلقان في لندن .

عاد (اتكنسون) الى بريطانيا وقد خطط أن يبقى بعيداً عن لعب أي دور في المهمة التي طُلب منه القيـام بها ، ولكنـه لم يكن يعلم كيفيـة الإفـلات ولا مـا ينبغي عليه فعله . وكانت المعلومات قد تسربت الى مديري القنـاة الـرابعـة في التلفزيون البريطاني فـاقترحـوا عليـه الإدلاء بما لـديـه والكشف عن خلفيـات

القصة واللقاء الذي تم بينه وبين (ميتوف) في بلغاريا. وهكذا وضعت القصة في حلقات تلفزيونية تحت عنوان «العمل مع الرفاق» ضمن مسلسل (٢٠/٢٠)...

وبهذه الطريقة عرف الجميع بالمؤامرة.

★★★

لم تكن الأخبار عن ملاحقتي من قبل الـ كي. جي. بي. من الأمور غير المتوقعة أو المستغربة بالنسبة لي. إذ من المعروف أن لا نجاة لضابط من الـ كي. جي. بي. في حالة لجوئه الى الغرب، وهو حين يقدم على هذه المخاطرة فإنه يضع في اعتباره صدور الحكم عليه بالموت غيابياً. والـ كي. جي. بي. في تعقبها لمن تعتبرهم منشقين وهاربين تستعين بمصادر بحثها من العملاء واللاشرعيين الذي غالباً ما يكونون دون المستوى من حيث تأهيلهم، وعادة ما تزوِّد تلك المصادر بصورة للمنشق او الهارب عبر مقر الـ كي. جي. بي. المحلي الذي يقوم بإطلاع أولئك اللاشرعيين والعملاء على الصورة، وفي أغلب الأحيان تعمد الـ كي. جي. بي. الى تكليف عملاء خاصين من الفئات الموثوق بها.

أما قضيتي فقد وُسمت بخصوصية مميزة، فوصلت الى حد الاستعانة بأعضاء من الحزب الشيوعي البريطاني، ومعنى هذا أن الـ كي. جي. بي. لم يسند إليها الدور الأهم، بل إن الدور الرئيس في ادارة العملية كان من اهتمامات مجلس السوفيات الأعلى. هذا مع العلم أنه كان محظوراً على ضباط المخابرات في الـ كي. جي. بي. القيام باتصالات مع أعضاء الأحزاب الشيوعية المحلية في البلدان الأخرى، وبالنتيجة فقد بدا واضحاً أن سفر (اتكنسون) الى بلغاريا إنما تم بطلب من مجلس السوفيات الأعلى وقد لعب البلغاريون دورهم في العملية.

لقد كتب الكثير عن رجال الـ كي. جي. بي. في الغرب، ولكنه في معظمه كان من وضع مؤلفين جمح بهم الخيال بعيداً عن حقيقة الوضع، وبسبب ذلك بَدَوْا وكأنهم عمالقة ذوو ملامح غريبة يثير ذكرهم الرعب والرهبة بين الناس داخل وخارج الاتحاد السوفياتي بمن فيهم أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب. وقد سيطرت هذه الفكرة حتى على الناس في الغرب وداخَلَهم الوهم بأن الـ كي. جي. بي. موجودة في كل مكان ونفوذها متغلغل داخل

بلدانهم .

ولكن الى أي مدى كان خلق هذه الصورة حقيقياً . . وما هو مبلغ الدقة في كون الـ كي . جي . بي . تمتلك تلك القوة المزعومـة لها فسقط في رُوع الكثيرين أنها وراء كل ما يجري في الدولة السوفياتية وأن يدهـا في الخارج كما في الـداخل قادرة على أن تطال ما تطاله يد الخالق؟ ثم من هي الجهة المستفيـدة من جعل هذه الصـورة عن الــ كي . جي . بي . بهذا القـدر من الضخـامـة؟ ومـا هي الخلفيات التي تكمن وراء ذلك؟

إن الأجوبة الحقيقية على كل هذه التساؤلات إنما يـدركهـا أولئك الضبـاط الذين يديرون المخططات ولديهم أسرار العمليات داخل الــ كي . جي . بي . إذ من الصعب على الأفراد العـاديين من السـوفيـاتيين والغـربيين على السـواء التفريق بين ما هو حقيقي وما هو من إفرازات الخيال . . . وفي مطلق الأحوال يبقى للحقيقة طعم مختلف يقصر عن بلوغه الاختلاق . وللتأكد من معرفة مـا يجري في الواقع ينبغي التوغل في مجريـات مـا يحدث داخل الاتحاد السـوفيـاتي وتتبع المسلكيات في المؤسسات التي انتشرت في أروقتها وغرفها رائحة الفساد . وقد هيأت لي ظروف عملي وعلاقاتي الفـرصـة لـوصف الحقيقـة عن الــ كي . جي . بي . وعن جهاز الدولة الذي كان يوماً بعد يوم يتجه نحو الهاوية .

إن هذا الكتاب يتناول في قسمه الأكبر أحـداث وأنشطـة الــ كي . جي . بي . والتي كانت ساحتها (ايران) ، وذلك في الفترة الممتدة من عـام ١٩٧٧ الى عام ١٩٨٢م وأهمية هذا الكتاب تكمن في كونه وثيقـة صـادقـة يقـدمهـا من عايش الأحداث مراقباً لها ومشتركاً في كثير منها في آنٍ معـاً ، وبـالتـالي لتـزامن تلك الاحداث في ايران مع ما كان يجري داخل الاتحاد السوفياتي ، وفي الـوقت نفسه في افغانستان وفي الشرق الأوسط .

«سأورد بعض المعلومات والتفاصيل عن المحيط العائلي الـذي تـرعـرعت فيه . . . ولن أجرؤ على بيان أسماء الأقربـاء والأصـدقـاء . . . وسيكـون لي في ذلك عذر من يدرك حقيقة كونهم ما زالوا هنـاك تحت مجهـر مـراقبـة السلطـة السوفياتية» .

فلاديمير كوزيشكن

الجزء الاول

في التحضير

الفصل الاول

أيام الصبا في موسكو ـ مرحلة التجنيد

ولدت في موسكو عام ١٩٤٧ . ترعرعت ضمن عائلة كبيرة مكونة من أحد عشر عماً ، قتل اثنان منهم خلال الحرب العالمية الثانية . أعمامي كانوا يعملون في قطاعات مختلفة : فهم باحثون مساعدون ، رسميون يعملون في التجارة المحلية والعالمية ، إداريون ، جنود وأصحاب مصالح . كانوا في جملتهم يشكلون المستوى الاجتماعي السوفياتي : آراء ونظريات مختلفة . المحازبون الرسميون حازوا على احترام بسيط منا ، علماً بأن أكثرية أفراد عائلتنا كانت منتمية الى الحزب الشيوعي . التعليقات والنكات ضد النظام السوفياتي كانت كثيرة حتى أيام ستالين ، حيث قيل الكثير عن منظره وأسلوبه في الكلام . لاحقاً انتقلت عائلتي إلى منزل كبير خارج موسكو، لكن ما لبثنا أن بعناه وعدنا إلى محيط للينينغراد حيث ابتعنا غرفتين من ضمن شقة مكونة من ثلاث غرف . قد يبدو ذلك ضئيلاً نسبيا ، ولكن في ذلك الوقت كان الأمر مترفاً . رغم الوضع السكني الرديء الذي يصعب وصفه ، فهو في الحقيقة مماثل لمخيمات العمل مع فارق وحيد هو عدم وجود الحراس والإرغام على العمل .

سكان المبنى لم يكونوا مندمجين ، بعكسنا نحن الأولاد اذ كنا نلعب معاً . الساحات أمام المبنى كانت مطوقة بأسلاك شائكة لحمايتنا من العصابات ، وهذا الأمر زاد فينا الكراهية ، علماً بأن السكان المحليين لم يرق لهم وجودنا في تلك المنطقة ، وكانوا في أغلبيتهم من اليهود العاملين في الصناعات الخفيفة والتجارة .

خلال حكم خروتشوف بدأ مشروع بناء المساكن وظهرت البنايات المرتفعة من حولنا وراح المواطنون ينزحون الى أجزاء أخرى من المدينة . في ذلك الوقت نعلم بما فيه الكفاية عن عمليات «الاختفاء السرية» التي كانت تحدث من

وقت لآخر. الأب شبيلبرغ اختفى وكـذلك الأب سلسكي، أولادهما في حـزن والنساء غـارقـات في البكـاء. لقـد اختفى الاثنـان لمدة ثماني سنـوات بتهمـة «الاحتيال» الملفقة. أحد المواطنين انتحر شنقاً قبيل القبض عليـه مجنبـاً نفسـه المحاكمة وبالتالي حرمانه من ممتلكاته وجلب العار لعائلته. وهذه العمـة ليلي تركض محاولة إقناع الجيران لإخفاء الكريستال والأغراض الثمينة الأخـرى قبل أن يلقى القبض على زوجها. ولكن عندما عادت لاحقاً لاستعـادة الأغـراض أنكر الجيران علمهم بالموضوع. وبالطبع لم يكن بإمكانها رفع دعوى ضدهم. هذا هو قانون شريعة الغاب. أما «مارغوليس» أستاذ الرياضيات في جـامعـة موسكو فقد لوحق لقبضه رشاوى مقابل تأمين طلبات الإنتساب إلى الجامعة. ثم جاء دورنا، عندما قرع الجرس ودخل أشخاص ذوو وجوه عابسـة يحملـون أمراً من «المنظمة الاشتراكية لحماية الممتلكات». لقد شكا أحـدهم أن بحـوزة عمي بعض السبائك الـذهبيـة، ولكن بـالطبع لم يعثـر على شيء، وتبين لنـا بعدها أن الواشي كان أحد الجيران وهو من أصدقاء العائلة.

كان الحديث سائداً في الشوارع بين الأولاد عن مجمل الأوضاع، وكـان من الطبيعي أن يعيش بعض الأفـراد بهدوء وعلى الأخص المدعـومين بجماعـات داخل الآلة الحزبية. وقد انتشرت هذه الصداقات ذات طابع حمايـة المصـالح المشتركة في أوائل الستينيات وراجت على مستوى عالٍ خلال سنوات بريجينيف لتحمل تعريفاً جديداً هو: المافيا السوفياتية.

كل تلك الأمور كانت تجري أمام أعيننـا وبشكل علني. وعنـدمـا كـانت تجمعنا لقاءات برسميين حزبيين في منازل بعض الأصدقاء في المنطقة فإن محور الحديث حول مائدة العشاء هي تلك الأخبار التي تصور ما آلت إليه الحيـاة في المجتمع السوفياتي من فساد عبر نكاتٍ فاضحة وألفاظٍ بذيئـة يـرددهـا أولئك الرسميون ممن يعتبرون أنفسهم ذوي مناصب هامة وشأن بـارز. وأذكـر يـومـاً التقيت فيه بواحد منهم وكان وجهه وحه خنزير وفي حالة سكر شديد فسألت زميلاً لي: «من يكـون هـذا. . هل هـو قـريب؟» اجـابني: «لا، بل هـو من مجلس بلدية موسكو ويساعد والـدي في بعض الأعمال، وفي كل مـرة يأتي إلى هنا يغـرق في الشراب، ومـا ان يـرحل حتى تعلّق والـدتي: إن المكـان تلـوّث وبحاجة إلى تطهير».

فمنذ صغري تكونت لـديّ نظـرة اشمئـزاز تجاه هـؤلاء السكـارى أعضـاء

الحزب، وبمرور الوقت وبسبب احتكاكي بأعضاء الحزب اصبحت أكثر اقتناعاً بتلك النظرة. لقد كنت من المشككين بما كان يروجه الاعلام الموجه عبر وسائله المتعددة عن الايديولوجيات والمبادىء... ومنذ سنوات الدراسة تركزت في ذهني قناعة تامة بأنه لكي يصل المرء إلى مقام رفيع ورتبة عالية عليه أن يتعلم كيف يكون بوجهين. لذا لم أبالِ كثيراً بالمستقبل لتركي المدرسة، الأمر الذي حال بيني وبين الألتحاق بالجامعة، وكان أن انضممت الى صفوف الجيش كبديل عن الجامعة، وبعد ثلاث سنوات على انضمامي ألحقت بالخدمة العسكرية في المانيا.

كان مركز وحدتي غير بعيد عن منطقة «هجنو» التي تقع على الخط الغربي من المانيا، وقد عينت في «الغرفة السرية لحماية الصواريخ» والتي لم يكن يعلم بأمرها غير أفراد وحدتنا، وقد مُوِّه الأمر بحيث أُظهر للآخرين أننا من وحدة تدعى «مجموعة الأخلّاء». وكان ثمة ثلاث منصات للصواريخ النووية معدّة للإطلاق في حال اندلاع الحرب، أما دورنا فكان قصف مدينة هامبورغ بستة صواريخ، وكانت المسافة التي تفصل بيننا وبين المدينة زهاء ثلاثين كيلو متراً بقياس الخط الهوائي، ولقد قمنا بعدة مناورات وتدريبات في محيط المنطقة، وكان الدور الذي أسند الي هو القيام بعملية الاتصال بين موقع منصات الاطلاق ومركز القيادة.

إن ضرب هامبورغ بالصواريخ النووية وما ينتج عن ذلك من تدمير قد يصل الى حد الابادة لم يكن بالأمر المغري بالنسبة لنا، ذلك لأننا عرفنا هامبورغ عن طريق مشاهدة البث التلفزيوني الذي حرصنا على التقاطه من جانبنا رغم التعليمات والاوامر الصارمة بعدم الإقدام على هذا العمل، ولكن الاختصاصي في الغرفة بمساندة منا عمل دائماً على ضبط الجهاز لالتقاط البث. كما حظر علينا الخروج من المعسكر بحكم السرية المفروضة على الموضع، لذلك لم يتح لي طوال السنوات الثلاث التي قضيتها في المانيا الديموقراطية الخروج من الموقع سوى ثلاث أو أربع مرات، وقد حدث هذا بترتيب من القيادة وضمن مجموعة من رفاق الفرقة بغية زيارة المكتبة في نادي الضباط... ولذا وجدنا أنه لا مفر من ملء أوقات الفراغ في قراءة الكتب التي وضعتنا اضطراراً في مناخات ثقافية ومعرفية متعددة.

لقد كان الجنود في وحدتنا جميعهم من حاملي الشهادات المتوسطة، وذلك

بحكم طبيعة تكويننا العملي، اضافة الى كونهم أصلاً من سكان موسكو ولينينغراد، الأمر الذي ولّد مناخاً هادئاً عموماً يسوده الانسجام والتفاهم، وهو ما لم يتوفر في الوحدات الأخرى حيث كان الجنود القدامى يعاملون الجدد بفظاظة وباستعلاء يصل الى حد الاضطهاد. وهنا ينبغي الاشارة الى أن النظام العام في الاتحاد السوفياتي في نظرته الى الأفراد لم يفرق بين الحياة العسكرية والحياة المدنية، فالمبادىء المطبقة في كلا الجانبين هي بذات الجدية والصرامة.

وأذكر أنه خلال أحد الدروس السياسية المقررة تظاهرنا بعدم استيعابنا لشرح النظرية الماركسية ـ اللينينية الذي كان يقدمه ضابط برتبة نقيب. لقد اتفقنا على فعل ذلك بقصد إحراجه. فما كان من الضابط إلا أن خرج عن طوره وأخذ يدق الأرض بقدميه ويصرخ عالياً متلفظاً بكلمات نابية حتى تحول وجهه الى مساحة زرقاء، ولكن ذلك لم يمنعنا من المضي في التظاهر بعدم استيعابنا شرحه للنظرية.

وكدليل على مدى التسيّب في صياغة التقارير لجعل الأمور تبدو كما هو مقرر لها فقد درجت العادة على إجراء تحقيق دوري يقوم به مفتشون من قبل الادارة العسكرية يبين مدى الاستعداد واللياقة للوحدات القتالية، وذلك مرة كل ستة أشهر. غير أن هذه المسألة لم تكن تشغل بال الضباط المسؤولين في فرقتنا، وكانت بالنسبة إلينا من الأمور التي لا تدعو الى القلق، إذ كان ضباط الفرقة يحرصون على دعوة المفتشين لاحتساء الخمور ويتم خلال ذلك عرض الأوراق التي تتطلبها عملية التفتيش، ومن ثم تمهر الأوراق بتوقيعات رجال مخمورين يقرّون بحالة الاستعداد الممتازة للفرق وبسير الأمور في اتجاهها الصحيح.

الأعوام الثلاثة التي قضيتها هناك دفعتني الى التفكير في ما ينبغي عليَّ فعله في المستقبل، وذلك على ضوء استقرائي للواقع من حولي. لقد كان ما يجري داخل الجيش مثالاً صارخاً لفساد المجتمع السوفياتي. فالرجال الشرفاء والصادقون أولئك الذين يتمسكون بالمبادىء لم يكن لهم أمل في الحصول على الترقيات التي يستحقونها مهما كان بذلهم سخياً في المهمات الموكلة اليهم، وذلك بحكم رفضهم الانصياع مثل كثيرين للزحف حول أقدام الرؤساء او للتخلي عما يعتقدونه انتقاصا للكرامة. ولقد بدت الصورة في إطارها الفاسد أكثر إحباطاً يوماً بعد يوم، إذ كلما كان المرء أشد إيغالاً في الفساد وفي التخلي

عن أداء مسؤولياته كلما كـان حظـه أوفـر في تسلّم دور طليعي في المجتمع وفي أجهزة الدولة على وجه الخصوص.

لقد جابهت نفسي بالتساؤل عن الطريق الذي ينبغي علي سلوكه إزاء وضع بهذه الكيفية المتداعية. هل ثمة جدوى من رفضي التعامل مع معطيـات ذلك الـوضع، ومـا هـو الثمن الـذي بإمكـاني تحمل وطأتـه والـذي لا أشك أنـه سيعرضني لأشد وأسوأ معاناة، أم من الأفضل لي أن أتـرسم خطى من سبقني على الدرب لأضمن مصيري؟ وبعد تفكير عميق قررت سلوك الطريق الثانيـة مبرراً الأمر برفضي خيانة معتقدات النظـام السـوفيـاتي، على الأقل في الـوقت الحاضر بغية ضمان مستقبلي، متأسياً بقول الشاعر الروسي: «ستكون محظوظـاً اذا وجدت خصلة صوف جيدة على جسد خروف أجـرب». إستنـاداً الى هـذا القول تبين لي أنه للوصول إلى تحقيق ما أطمح إليه عليّ متابعة دراستي.

وكانت جامعة مـوسكـو للقـانـون المكـان الأمثل لي، وقـد تصـورت أنني بـاتبـاعي المواصفـات الشخصيـة التي أريـد فإن فـرص العمل وعلى الأخص السياسية منها ستكون أوفر.

وحدث أن تسلمت عن طريق الصدفة رسالة من صديقة قـديمـة دفعتني للتفكير في أن فترة خدمتي في الجندية فد شارفت على نهايتها، وبالتالي فتحت أمامي باب التفكير في المستقبل. ذكرتني باهتمامي السابق باللغات الأجنبيـة، وسألتني عن مدى اهتمامي بـالانتسـاب إلى معهـد بلـدان آسيـا وأفـريقيـا في موسكو، مذكّرة أن شروط الانضمام لجندي كان خدم سابقاً أمر سهل، علماً أن السلطات كانت قد منحت تسهيلات وأفضلية للأفراد المتحدرين من عائلات فلاحية ومزارعة باعتبارهم أكثر التزاماً بالناحية الايديـولـوجيـة وبحيث يمكن الـوثـوق بهم وبـالتـالي الاتكـال عليهم. وقـد استنتجت أن في نيّتهـا أيضـاً الالتحاق بالمعهد وأن لها اتصالات هناك.

كان المعهد الآسيوي ـ الافريقي مخصصاً للنخبـة، ويعتبر واحـداً من أرقى مؤسستين علميتين في موسكو. والآخر وهو معهد موسكو للعلاقات العـالميـة فمخصص اساساً لإعداد الأفراد في وزارة الخارجية. لقد كان جواز الالتحـاق بهذين المعهدين مرتبطاً بتوصيات خاصة من قبل مجلس الحزب في المقـاطعـة، وكان الحصول على إجازات وشهادات التخرج من إحدى المؤسستين يعني أمراً واحداً: الخط السريع في تركيبة المجتمع السـوفيـاتي والأمل بـالعمل في الخارج

مستقبلاً. وهذان الامران كانا حلم الغالبية العظمى.

وضعت فكرة الدخول الى جامعة موسكو للقانون جانباً وقررت دعم طريق صعودي عن طريق الانتساب الى الحزب الشيوعي، فتقدمت بطلب إلى نائب قائد الغرفة المسؤول عن الشؤون السياسية الذي كان التعامل معه جيداً، فاقترح علي تعبئة استمارة انتساب ووعد بتزويدي بتوصية.

وبما أنه كان من الضروري توفر توصيتين اثنتين، فقد كان علي الذهاب الى القائد الكولونيل بوليفياني شخصياً، وكان هذا الأخير على يقين من كرهي إياه، وقد عمل منذ التحاقي جندياً أن يدبر لي المكائد. وبالرغم من ذلك فقد تقدمت إليه طالباً توصيته ومعززاً طلبي بأن دافعي هو خدمة الحزب لا الحصول على مغنم شخصي، وقد بدا طرحي بتلك الصيغة مرعباً للقائد، فأخذ يحدق بي. كان رجلاً ذكياً، ففهم ما يجول في خاطري وأني وضعته في موقف حرج، ولم تكن لديه أسباب قانونية تجيز له الرفض، فسجلي العسكري كان نظيفاً لا غبار عليه، ولم تكن لديه حجّة علي سوى سلاطة لساني عليه ذات يوم بحضور رتل من الجنود. ولكن ذلك ليس مبرراً للرفض، ثم ماذا سيكون موقفه إذا ما رفعت شكوى إلى القيادة العليا؟ لقد جالت هذه الأمور في خاطر كل منا فيما يحدق واحدنا الى الآخر. أخيراً، ومع ابتسامة خفية وافق على تزويدي بالتوصية معترفاً ضمناً بأني ربحت الجولة.

لقد كان هدفي الأول الانتساب الى الحزب الشيوعي.. وبعد عودتي الى موسكو عند نهاية خدمتي العسكرية لم يصعب علي الانتساب الى المعهد الآسيوي ـ الافريقي إذ منحتني عضويتي في الحزب ثقة الأساتذة والإداريين.. ولم يعد ثمة حائل يمنعني من المضي في الصعود.

الفصل الثاني

تدريب الـ كي. جي. بي. ـ التحضير للدبلوم عملياً في ايران

في أواخر تشرين الثاني / نوفمبر كنت أتهيّأ للذهاب الى ايران من أجل أطروحة الدبلوم. وكان المعهد الآسيوي الافريقي يقع في شارع ماركس (الرقم ١٨) في بناية الجامعة القديمة مقابل مبنى الكرملين في ساحة مانزنايا التي تشكل جزءاً مهماً من مجمع الآثار وسط موسكو. المواضيع الرئيسية في المعهد كانت عن تاريخ ايران واللغة الفارسية إضافة الى تاريخ الاتحاد السوفياتي وتاريخ العالم والذي يشمل: مصر، اليونان، روما، العصور الوسطى، والتاريخ الحديث. أما تاريخ الشرق فأفردت له دراسة مستقلة. وكان المنهج المقرر دراسة اللغات والفلسفة الماركسية ـ اللينينية والاقتصاد السياسي، بحيث يتمكن الطالب من تعلم أكثر من لغة شرقية وقراءة المصادر الغربية، لذا كان عليه تعلم اللغات الغربية وذلك تبعاً للبلدان المطلوب تعلم لغاتها وهي في الغالب إما فرنسية أو انكليزية. وعلى أية حال فقد اخترت تعلم الانكليزية. ولكن لكي أصبح اختصاصياً في المنطقة عموماً كان المطلوب إضافة لغة أخرى غير الايرانية، فاتجهت الى تعلم العربية. أما مدة الدراسة فكانت بين خمس وست سنوات وهي تشمل تطبيقاً عملياً في الخارج. لقد استمتعت بالبرنامج التعليمي خلال تلك الفترة لكونه أفضل البرامج المقررة في المعهد وفي بلادنا بوجه عام.

وكان برنامج التعليم مغطياً معظم اللغات تقريباً، مثل: الصينية، واليابانية، والعربية، والهندية، إضافة الى لغات أخرى مثل: زولو، الهوسا. والسؤال الذي كان يتردد على أكثر من لسان: لماذا هذا الاسراف في الوقت والمال؟ وكان الجواب: ان المديرية العالمية للمجلس الأعلى للحزب الشيوعي تنظر الى المستقبل البعيد، ولذا فهي تعد الاختصاصيين. وقد وضحت الصورة ابتداء من منتصف السبعينيات فصاعداً حين أخذت الجماعات الموالية للنظام

الشيوعي في افريقيا ببناء ذاتها في كل من انغولا وموزامبيق وأثيوبيا . ولكن الهدف المثير للمديرية العامة كان وما زال: جمهورية جنوبي افريقيا . لماذا؟ في الحقيقة لم يكن هدف القادة السوفيات تتويج انتصارهم الاشتراكي في القارة الافريقية ورواج الدعوة للتحرر في جنوب افريقيا لمكافحة التمييز العنصري، ولا حتى بسبب الموقع الاستراتيجي، بل ان ذلك يعود لأسباب محض اقتصادية . فجنوبي افريقيا هو البلد الأكثر منافسة للاتحاد السوفياتي من حيث انتاج الذهب والبلاتنيوم والألماس، فاذا ما حدث تغيير للنظام هناك وجيء بحكومة موالية للسوفيات، أو إذا ما حدث انهيار اقتصادي، عندئذ تتاح للسوفيات فرصة السيطرة على الأسواق العالمية ويؤول اليهم احتكار تجارة الحديد والألماس، فيتحكمون بالأسعار ويتمكنون من فرض شروطهم على الغرب .

وفي الجامعات كان التدريب العسكري اجبارياً لجميع الطلاب . وكان الجدد منهم يخضعون للدروس العسكرية في المعهد العسكري الكائن في مبنى الجامعة القديم في شارع ماركس (الرقم ٢٠) وتستمر مدة دراستهم أربع سنوات يرقّى بعدها الناجحون الى رتبة ملازم في الاحتياط . كانت الطالبات في المعهد يتدربن على المهمات الخاصة مثل: الترجمة العسكرية والاعلام العسكري (خلال الحرب الاعلامية كان عملهن أن يقمن بالبث عبر الحدود وتوزيع البيانات وغير ذلك من الأعمال) . وبالنسبة للطلاب عموماً فقد كان لوزارة الدفاع الحق في أن تطلب الطالب للخدمة العسكرية لمدة سنة كضابط إن لم يكن قد خدم فعلاً قبل التحاقه بالجامعة . أما في حال رسوبه في الدروس العسكرية فكان يطرد من الجامعة ويحوّل الى عنصر عادي في الجيش . ولم يكن ثمة ما يمنع حدوث ذلك .

كذلك كان من الطبيعي ارسال تلامذة المعهد الى الخارج لمدة سنة من أجل تحضير الأطروحة لنيل الدبلوم . ولكن هذا المجال لم يكن متاحاً للجميع بالطبع . فقد كانت الشروط والمواصفات تقضي بتحقيق التفوق في الدراسة، الى جانب التمتع بالمقدرة السياسية والتوازن الخلقي . لقد كان النظام على هذا المستوى من الصرامة هو السائد في الجامعة .

أما في المعاهد الأخرى فقد دبت فوضى الحفلات واستشرت المخالفات وانتشر تعاطي المخدرات والسُّكْر إضافة الى تفشي العلاقات الجنسية

الجماعية، وقد ألقي القبض على العديد من الطلاب في حالات تلبّس. وكـان الوضع برمّته في هذه المعاهد على عكس ما كان عليه معهدنـا. ولقـد سـاعـد الواقع على ذلك إذ ان سبعين بالمئة من الطلاب في المعهد الآسيوي ـ الافـريقي كانوا في الأصل من مؤسسة الحزب الحاكم، وغالبيـة أهلهم يحتلـون منـاصب قياديـة في المجلس الأعلى للحـزب أو الـ كي. جي. بي أو وزارة الخارجيـة أو وزارة التجارة الخارجية أو وكالة تاس أو وكالة نوفستي للأخبار. أما الثـلاثـون بالمئة الآخرون فقد دخلـوا المعهـد لتفـوقهم دون وسـاطـة أو عـون من أحـد، ولإدراكهم أنها فرصتهم الوحيدة للصعـود الى أعلى، فـاختـاروا الطـريق الآمن والضامن للنجاح.

لقد كان لكل فرع في المعهد مسؤول مهمته الاشراف على عمل الطلاب، لم يكن دوره كبيراً إذ أن غالبية الطلاب كانوا يقضون أوقاتهم في الخارج ويقومـون بترتيب أوضاعهم بأنفسهم. المسؤول في فرعي أبلغني أنه اتخذ قراراً بارسـالي الى ايران. ولم يكن الأمر مفاجئاً لي، إذ كنت مؤهلاً سياسياً ومعَدّاً لهذه الغـايـة. فعلى مـدى ثـلاث سنـوات كنت الأول في فصل دراستي وبـالتـالي عضـواً في مكتب الحزب في المعهد إضافة الى كوني من موسكو وأسكن في منـزل لا في دار الجامعة. وهذا الوضع أبعدني عن مراقبة المجندين، فضلاً عن أنـه سـاعـدني كي أشق طريقي بنفسي في السنة الرابعة.

إثر نصيحة أحد الطلاب الذين نالوا خط السفر الى ايـران تقـدمت بطلب الالتحاق بمؤسسة «تينز بروم سبورت» وهي مؤسسة تجارية أجنبية تُعنى ببناء مصانع الحديد في البلدان المتطورة، وكانت مسجلـة لـدى مجلس العـلاقـات الاقتصادية الأجنبية ويعمل فيهـا آلاف الاختصـاصيين في طهـران. . كـانت المؤسسة تحتاج الى مترجمين، وأعطيت الأفضلية للطلاب لأنهم كانوا يـدفعـون لهم سبعين بالمئة من قيمة الـراتب المخصص للمترجم المؤهل. بهذه الطـريقـة كانوا يوفرون العملة الصعبة الزائدة، وبذلك كانت الفائدة مشتركة للطـرفين. من ناحيتي كان العمل براتب سبعين بالمئة أفضل من لا شيء في بلادي.

بصدور قرار ذهابي الى ايران حصلت على رسالة من مكتب رئيس المعهد الى الشركة «تينز بروم سبورت»، ومن هناك بدأت العجلـة بـالـدوران. كـان علي تعبئة استمارة والاجابة على أسئلة يتعين على كل مسافر الاجابة عليها، وبعدها يحصل على توصيات من معهد مجلس الحزب والجامعة ومن ثم تتم المقـابـلات

الشخصية. أما المرحلة الأخيرة فكانت مقابلة في مبنى المجلس الأعلى للحزب في ساحة ستارايا، والويل إن حدث تأخر عن الموعد. كان المبنى بحراسة أشخاص يرتدون ثياب الميليشيا. ولكن في الواقع لم يكونوا من رجال الميليشيا وانما هم ضباط من القيادة العليا التاسعة في الـ كي. جي. بي والتي كانت مهمتها حراسة القياديين.

فتحت الباب الرئيسي لأجد نفسي في ممر، بعدها فتحت الباب الآخر ودخلت الى صالة أغلقت بحاجز وقف قربه عريف كي. جي. بي فدقق في أوراقي وجواز سفري وأمرني بالانتظار. بعد قليل ناداني أحدهم وطلب مني مرافقته الى مصعد وأبلغني الى أي دور أصعد. كنت في حالة عصبية إذ أنها المرة الأولى التي ألتقي فيها بمسؤولين رسميين كبار. بعد خروجي من المصعد ظهر أمامي ممر طويل فرش بالسجاد، فيما غطيت الجدران بخشب السنديان مع إنارة خفيفة من السقف. وكان الصمت مخيماً تماماً والممر خالياً. طرقت الباب الذي أرشدت اليه وقد زادت عصبيتي.

لم تكن غرفة واسعة، فكان ثمة شباك واحد وطاولة مصنوعة من الخشب أمامها كرسي. على الحائط علقت صورة لبريجينيف وخارطة العالم. الرجل الذي يجلس خلف المكتب كان صغير الحجم، شعره أبيض، عادي المظهر، وذا وجه عدائي.

قلت له: «كيف الحال؟»، فأجاب بعبوس: «اجلس»، ثم أشار الى الكرسي دون أن يرد التحية، ثم حدّق بي وقال: «انت ذاهب الى ايران كمترجم» وهو يتابع بنظره الملف أمامه.

«أجل». . أجبته «أنا ذاهب من أجل التحضير لأطروحة الدبلوم». حدق بي بعينين واسعتين غاضبتين وقال: «انسَ ذلك. . أنت ذاهب للعمل هناك كممثل لدولتنا وأنتم المترجمون سبب كل متاعبنا ومشاكلنا في الخارج. ستندمجون مع الأجانب هناك دون رقيب، وبعدها تبدأ الفضائح، عليك الانتباه والتصرف جيداً، وستدرك أننا نعرف كل شيء».

لم يكن لدي شك في ذلك، فالكثير كان ينقصنا باستثناء المخبرين.

وبالرغم من ذلك كنت سعيداً بعد مغادرتي لمبنى المجلس الأعلى، لقد كان حقاً يوماً ساخناً وزاد من امتعاضي مقابلتي ممثل السلطة العليا، الأمر

الذي دفعني الى مواجهة واقع جديد.

لاحقاً، اتصل بي من مكتب العلاقات الاقتصادية الأجنبية مَن أبلغني قرار المجلس الأعلى بإرسالي الى مركزي في ايران، ورجّح أن يكون ذلك في بداية شهر كانون الأول / ديسمبر.

كدت أطير من الفرح ورحت أركض في المعهد مودعاً أصدقائي ومبدياً تعاطفي معهم إذ كانوا مقبلين على امتحانات الشتاء.

وفجأة أرسل من يطلبني الى مكتب المدير حيث أُعلمت أن ثمة شخصاً ما سيكلمني. ولم أعط أية تفاصيل أخرى. قلت: «ليس لدي وقت.. على أن أذهب لشراء بطاقة السفر والتهيؤ للرحيل». وكان الجواب: «لا يهم.. الأمر لن يستغرق طويلاً». فتوجهت الى مكتب المدير حيث تجمع عدد كبير من التلامذة خارجه، وعندما سألت عن السبب لم يكن أحد يدري شيئاً. وعندما ذكرتهم انني مستعجل أفسحوا لي الطريق دون اعتراض. في هذا الوقت فتح الباب وظهر أحد التلامذة وكانت عيناه في الأرض ووجهه محمراً، فسألته: «ماذا يجري هنا يا كوستيا؟». «سوف تعرف بنفسك» أجابني وركض مسرعاً نحو الدرج نزولاً.

عرفت لاحقاً أن الجواب لطلب كوستيا كان سلبياً.

عندما حان دوري دخلت الغرفة وكان هناك رجل صغير السن يناهز الثلاثين من العمر، ذو وجه مربع ويرتدي بذلة رمادية أنيقة، كانت ملامحه جدية انما ودودة. وبعد التحية دعاني للجلوس. قال: «أنا من المجلس الأعلى للأمن». وأبرز بطاقته الحمراء معرفاً عن نفسه، وتمكنت من معرفة اسمه: نيكولاي فاسيليفتش سكالين. «نعرف كل شيء عنك، وأنت تفي بطلبنا.. لذا نقترح عليك الانضمام الى المخابرات بعد الانتهاء من الجامعة. خذ عدة أيام وفكر بالأمر، وبعدها أبلغني بردك. هذا رقم هاتفي، وانبهك أن لا تخبر أحداً بالموضوع باستثناء أقرب الناس اليك الذين بامكانك إطلاعهم على الأمر، اننا ندرك تعجلك بالذهاب الى ايران.. ومع هذا نرجو أن تخصص ساعتين من وقتك لملء هذه الاستمارة والاجابة على الاسئلة التي تتضمنها. في حال قبولك بما نعرضه عليك».

ويجب أن أعترف أن حديث نيكولاي فاسيليفتش، أقنعني، إذ لم يكن ثمة

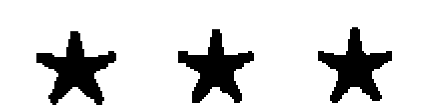
تهديد أو ضغط ، وكان عرضه للأمور عادياً ، وقد شعرت بارتياح لعرضه علي الالتحاق بالمخابرات . والواقع أن نظرة المجتمع السوفياتي للمخابرات مختلف عن نظرته للـ كي . جي . بي السيئة السمعة وذلك بسبب ارتكابها جرائم فظيعة بحق مجتمعنا ؛ فمن الارهاب الذي أعقب الثورة ، الى الرعب ما بين ١٩٣٧ ـ ١٩٤٩ ، الى التعذيب في سجن لوبيانكا حيث نكل بالآلاف من الناس . . كل هذا جعل صورة الـ كي . جي . بي قاتمة . وهي حتى اليوم مستمرة في تعقب المنشقين وممارسة سياسة القمع لمنع كافة أشكال التظاهر وحرية التعبير، إضافة الى مراقبتها الصارمة للمكالمات الهاتفية وتنفيذها الاغتيالات .

أما العمل في المخابرات فعُدّ شرفاً للوطن واعتبر الأفراد فيها من النخبة . فالكتب والسينما مجّدت أعمالهم وأظهرت أن شرف الانتساب الى هذا الجهاز ليس متاحاً لأي كان .

هذا ما اعتقده الناس كما اعتقدته بعد محادثتي مع ضابط الـ كي . جي . بي . وقررت قبول العرض . ملأت الاستمارة مجيباً على الأسئلة اللازمة ، واتصلت بنيكولاي فاسيليفتش ، ومن ثم التقيته في مركز كايدرس رقم ٢٢ التابع للـ كي . جي . بي حيث اقترح علي اجراء فحص طبي قبيل مغادرتي ، علماً بأنه لم يكن قد تبقى لي سوى يومين للرحيل الى ايران .

قبيل مغادرتي مكتبه قال لي : «في ايران ستكون على اتصال مباشر بالأجانب هناك بصفتك مترجماً ، وسيحاول رجال الـ كي . جي . بي الاتصال بك لتجنيدك . تعليماتنا هي عدم الانصياع لهم ورفض التعامل معهم دون أن تكشف لهم عن علاقتنا بك . لا نريد أن تشترك بأعمالهم القذرة ، فلو أرادت جماعتنا الاتصال بك فان كلمة السر هي : «تحية من نيكولاي فاسيبليفتش» .

لم تكن لدي أية معرفة عن هذه الجماعة في ايران ولا عن أعمالهم القذرة . ومهما يكن الأمر فقد ازددت قناعة أنني أعمل في منظمة جدية تهتم بأمر حمايتي .



وصلت مطار شيريمتيفو متأخراً، وكنت آخر شخص عَبَر بوابة الأمن العام، وقد سألني المفتش قائلاً: «ما هي كمية المواد الغذائية التي تنقلها؟»، أجبته مستغرباً: «أية مواد غذائية؟». فأشار لي بيده لأمرّ دون تفتيش. لقد استغرقت الرحلة مدة ثلاث ساعات ونصف الساعة، وكان وصولي طهران يوم ٦ كانون الأول / ديسمبر ١٩٧٣، وبدت المدينة ملونة وغارقة في الأضواء الساطعة.

وفي شهر تشرين الأول / أكتوبر من العام نفسه فرضت الدول العربية حظراً على بيع البترول الى الدول الغربية، ولم تؤيد ايران هذا الموقف وكانت البلد الوحيد في المنطقة الذي تابع بيع البترول، ولكن بأسعار مرتفعة، مما أدى الى ازدياد دخل الخزينة الايرانية الى ما يقارب الـ ٢٥ مليار دولار سنوياً والى لعب دور هام في السياسة العالمية، ومما أدى أيضاً الى تحول رؤوس الأموال الغربية الى هناك لاستثمارها اقتصادياً.

كانت الأضواء الساطعة دليلاً واضحاً على وفرة الطاقة في ايران، وكذلك رائحة البنزين المحترق وقد تكشفته لحظة خروجي من الطائرة. لم يكن هناك عجز في البترول ولا نقص في التلوّث، فالاربعة ملايين نسمة في طهران كانوا يملكون مليون سيارة تنفث أطناناً من سموم التلوث في الجو، إضافة الى القمامة المتجمعة فوق المدينة من جراء استعمال الفيول في التدفئة المنزلية. وبالرغم من ذلك لم يؤثر أي من هذه الأمور على ابتهاجي بالدخول الى هذه المدينة التي دأبت طيلة أربع سنوات أدرس تاريخها ولغتها.

بعد ختم جواز السفر من قبل ضابط الأمن اتجهت الى صالة الجمارك حيث كان في انتظاري مندوب من قبل مجلس العلاقات الاقتصادية. جمعت الحقائب وتوجهت مع مرافقي الى الحافلة مباشرة دون تفتيش. جرت الأمور بسرعة لم ألحظ أثناءها ما يجري، وانطلقت برفقة عدد من الاختصاصيين السوفيات الى المدينة.

أول ما لفت نظري كان التمثال الرمز لوجود ايران منذ ألفين وخمسمائة سنة وقد احتفل بنصبه عام ١٩١٧ وكان يسمى «الشاهياد» تخليداً لذكرى الشاه، وقد بناه التشيكيون.

كانت الروح القومية الايرانية في أوجها مدعمة بوجود امتد عبر قرون ابتداء من القرن الرابع قبل المسيح، وتمثلت في دولة واسعة بلغت حدودها مصر

والهند، وبالرغم من خضوعها للقبائل العربية الاسلامية التي فرضت عليها الديانة الاسلامية في بداية القرن السابع عشر فقد بقيت أجهزة الدولة وإداراتها في أيدي سكان البلاد الايرانيين، حيث أن العرب في ذلك الوقت كانوا في بداية مراحل التطور، وفي حين اقتصرت سيطرتهم على الحكم فانهم تأثروا بالثقافة الايرانية التي استهوتهم. وهذا ما حدث أيضاً في بداية القرن الثالث عشر حين اجتاحت قبائل التتار ايران. أما في القرن العشرين وفي أوج فترة الاستعمار فقد حافظت ايران على شخصيتها بالرغم من بقائها تحت سيطرة كل من روسيا وبريطانيا، وهذا ما دفع ستالين عام ١٩٤٧ الى الخروج من ايران مرغماً.

لقد أخطأ الكثيرون ممن اعتقدوا أن العرب والايرانيين من سلالة واحدة، فلغة ايران هي الفارسية التي تعتبر جزءاً من اللغات الهندو ـ أوروبية، أما العربية فهي من اللغات السامية. ولقد أعطى الايرانيون العالم شعراءً كباراً مثل: الفردوسي، والخيام، وكان من نتاج حضارتهم: علم: الفلسفة، والفلك، والرياضيات، الى جانب الشعر والأدب.

بوصولنا الى فندق نادري بعد منتصف الليل أخلدت للنوم، رغم أن حركة الحياة في المدينة ما زالت تعج بالنشاط، كما كان بعض المحلات بعمل، وكذلك المطاعم.

في الصباح الباكر كان علي التوجه الى مكتب العلاقات الاقتصادية لأقدم نفسي وأقبض مصاريف الرحلة. سألت خادم الفندق بالفارسية عن كيفية الوصول الى هناك، فابتسم وأجابني بلغة روسية لطيفة: «هل أنت سوفياتي؟». فبادرته: «لا، أنا ايراني أرمني، فأهلي مثل الكثيرين من الأرمن الذين هاجروا من روسيا، ولكن حفاظاً منا على تراثنا ولغتنا الروسية فاننا ندرّس اللغة الروسية لأولادنا في المدارس الأرمنية. اننا لا نريد فك ارتباطنا بالحضارة الروسية العظيمة. على أية حال هناك كثيرون من الروس الأصليين في طهران أو الروس البيض كما نسميهم».

لقد درست عن الروس البيض في التاريخ، كانوا من بقية «الجيش الأبيض» الذي سحق في الحرب الأهلية، وقد فرّوا الى ايران وعاش قسم منهم هناك، إنما لم يُذكر لنا شيء عن الأرمن الروس في الجامعة، ولكني عرفت فيما بعد من خلال التحدث مع أرمن أنه قبل الثورة كانت المقاطعات الايرانية الشمالية تحت السيطرة الروسية وكانت للجماعات الارمنية حرية التنقل من بلد

الى آخر، وقد فضل العديد من الأرمن ممن يحملون الجنسية الايرانية العيش والعمل في روسيا. فسكنوا في القوقاز وفي مقاطعة الفولغا الجنوبية. وفي سنة ١٩٣٠ وبعد إحصاء للسكان سمح ستالين بإعطاء تصاريح، وأصبح السكان الأجانب في روسيا شرعيين، وخيّروا بين الحصول على الجنسية الروسية أو مغادرة البلاد. هذا الواقع جعل الأرمن في وضع حرج، فالقبول بالجنسية الروسية يجعلهم خداماً للنظام، إضافة الى انه سيكون ذلك صعباً على العديد منهم الذين يشكلون الجيلين الثالث والرابع والذين عاشوافي روسيا ونشأوا هناك. وقد قبل ذلك قسم منهم وتردد القسم الآخر. حيال هذا الوضع أقرّ ستالين مجدداً ـ كما كان يفعل دائماً ـ قانوناً بإلقاء القبض على الرافضين وطردهم بالقوة متيحاً لهم فقط أخذ احتياجاتهم الخاصة دون سواها. فطُرد الأرمن واليهود الذي من أصل ايراني ونقلوا بالسفن الى ايران حيث انزلوا على شواطىء بندر بهلافي (وهو ما يعرف اليوم باسم بندر خميني) على بحر قزوين.

لقد عُرف الأرمن بأنهم شعب ذكي، وأدركوا بحدسهم ما سيكون عليه حالهم وهم يرون حياة الإذلال التي يعاني منها الشعب الروسي، فعضوا على جراحهم ولم يشعروا بالندم لقرارهم.

وصلت الى الارسالية السوفياتية حيث مكتب مجلس العلاقات الاقتصادية، وكان المبنى داخل سور من القرميد الأحمر يبعد عنه نظر العابرين. في الداخل ثمة حاجز حديدي للسيارات يُدار اوتوماتيكياً من قبل حارس في غرفة خاصة. والى الجانب الآخر حاجز للمشاة. ضغطت على الجرس، وبدا لي وجه الحارس في المرآة، وعندما فتح الباب وجدت نفسي قبالة شباك واسع بدأ من خلاله لتوجيه الأسئلة إليّ، ومن حسن الحظ صدف مرور أحد المترجمين الذين كنت قد التقيتهم الليلة السابقة، فعرّف عني ورافقني الى مكتب المدير الاداري، وهذا الأخير عندما علم اني عينت في منطقة «بافك» قال: «هذا المكان أفضل بكثير من طهران لتعلم اللغات ويعتبر منطقة هادئة».

أجبته: «وممّ تشكو طهران؟».

فرد قائلاً: «انها طبعاً العاصمة، وهي حافلة بالمحلات ودور السينما والمسارح وغيرها ولكن العمل هنا سيء للغاية نتيجة العمل المتواصل من مقابلات واجتماعات، إضافة الى ملاحقة الأمور من بدايتها الى ما بعد

تنفيذها، وهو ما يسبب ضغطاً باستمرار. أحياناً كثيرة أتشوق الى الأيام الماضية في الجامعة».

سألته: «ولكن لماذا لا يكلفونك بعمل في مجال الترجمة كالتفاوض مثلاً؟ إن لغتك الفارسية جيدة على ما أظن. أليس كذلك؟»

أجاب: «إن اللغة الانكليزية هي السائدة في جميع المفاوضات، وقد اتفق على ذلك عند توقيع المعاهدة الاقتصادية».

بعد ذلك توجهت الى مكتب نائب مدير القسم الاقتصادي. كان رجلاً في متوسط العمر، أسود الشعر، قوقازي المظهر، من أصل أرمني اسمه سارينغوليان. كان حديثه لطيفاً. سألني عن رحلتي والفندق والجامعة، وعن مدى معرفتي للانكليزية مضيفاً: «انهم بحاجة الى مترجم في الوقت الحالي، فإذا كنت كفؤاً سأبقى في طهران».

ولكني، أملاً في التخلص من هذا الحرج تظاهرت بعدم عرفتي للانكليزية، فتنهد متحسراً للمستوى الذي أصبحت عليه جامعة موسكو وقال: «علي التوجه الى (بانك) خلال اليومين المقبلين»، طالباً مني تحاشي المشاكل لكوني من الغرباء في ايران وبعيداً عن موطني.

بعدها، توجهت الى مكتب المحاسبة حيث حصلت على مصاريف رحلتي وقبضت بالعملة الايرانية (الريال) راتب شهر مقدماً. والريال هو الوحدة النقدية والتي تعرف غالباً هناك باسم «تومان»، لقد امسكت بيدي حوالى ألفي تومان، أي ما يعادل ثلاثمئة دولار، وهو مبلغ لم أحصل عليه من قبل.

كانت الخطوة التالية تقضي القيام بتسجيل اسمي (البديل) في مكتب الحزب وفي مكتب الاتحاد التجاري، وهنا لا بد من توضيح هذا الأمر، إذ ينبغي على كل مواطن سوفياتي إلغاء اسمه الأصلي في مكتب الحزب قبل مغادرته البلاد وتسليم بطاقته الى لجنة الحزب الشيوعي السوفياتي، فيعطى ايصالاً بالمقابل، ويتكرر ذلك في البلد الذي ينتقل اليه عن طريق الاتحاد التجاري هناك ويسمّى المجلس الأعلى. هذا الاجراء يعمل به بقصد التمويه لمنع الأطراف المعادية من اكتشاف الأسرار عن أنشطة الشيوعيين، فيبدو الأمر ظاهرياً أن ليس ثمة مكتب حزبي في السفارة وهذا يعني استنتاجاً خلو السفارة

من أي نشاط حزبي، وهو ما يُعَدّ تـدبيراً حصينـاً، ففي حـال الاستيـلاء على السفارة من قبل حكومة عدوة لن يكون هنـاك دليل على نشـاط حـزبي بل عما يقوم به الاتحاد التجاري من أنشطة.

بعد انتهائي من المعاملات الضرورية غادرت المركز المحاط بالأسوار لأتجول في العاصمة مستغلاً فرصة اليومين المتبقيين مخالفاً بـذلك التعليمات القـاضيـة بعدم التجول إلا ضمن مجموعات.

كانت المحلات منتشرة بوفرة في شارع نادري الذي يُعرض فيه مختلف أنواع الملابس والأحذية وأدوات الطهو الى جانب المعروضات الذهبيـة التي لكثرتها يصعب التصديق بأنها حقيقية، الأمر الذي يختلف عما هـو عليـه في روسيـا، حيث لا مجال هناك للتردد في شراء حاجة ما تراها معروضة، إذ ربما تعـود فـلا تجدها. لقد كانت الأسواق في طهران زاهرة بالبضـائع لـدرجـة يصعب معهـا اختيار ما تريده ولعلك تجد الأفضل في سوق أخرى.

دخلت أحد المحلات لشراء بذلة، وبعد إجراء أكثـر من محاولـة مقـايسـة لأكثر من نوع ضقت ذرعاً وعدت الى الفنـدق غـاضبـاً ألعن النظـامين معـاً: الرأسمالية والشيوعية وكارل ماركس ونظريته عن حرية التجارة.

كانت «بافك» منطقـة صغيرة تقع في القطـاع الجنـوبي الشرقي من السهل الايراني، فيها جـامع واحـد للصـلاة ويهتم سكـانها القـلائل بتربيـة الماشيـة والتجارة المحلية.

منذ أواخر القرن التاسع عشر حاولت ايران بناء مصنع لاستخراج المعـادن وصهرها، إذ أدرك الايرانيون أنه بدون الصناعات الثقيلة ستبقى ايران خاضعة لدول أخرى، لذا حاولوا جاهدين تغيير هذا الواقع، فـاستـورد «ميرزا تـاجي خان أمير كبر» وهو رئيس الوزراء في ذلك الوقت أول فرن لصهر المعادن، لكن محاولته باءت بالفشل لعدم توفر المواد الأولية. في العـام ١٩٣٠ جُمّدت محاولـة بناء المصنع بسبب الحرب العالمية الثانية، بعد ذلك اقترحت ايران على كل من أميركا والسويـد وفـرنسـا إكمال المشروع، غير أن هـذه الـدول رفضت الاقتراح بحجة عدم توفر مـادة الحديـد الخام بكميـات كـافيـة في ايـران، إذ يتـوجب استيرادها من الخارج، ممـا أحـرج مـوقف الايـرانيين وجعلهم يشعـرون بعـدم الاستقلالية الاقتصادية.

في مطلع الستينيات ظهر الاتحاد السوفياتي عل الساحة. وبعد مسح جيولوجي تبيّن للخبراء السوفيات أن مادة الحديد الخام في ايران وافرة وبكميات تكفي لإنشاء مصنع. ورغم تردد الايرانيين في ذلك الحين وتخوفهم من تأثيرات التيار السياسي السوفياتي فإن فكرة الاكتفاء الاقتصادي كانت هي الأقوى. فوقعت في العام ١٩٦٣ معاهدة تعاون اقتصادي بن الطرفين تمّ على أساسها بناء مصنع مشترك في أصفهان، واقتصر التعاون بين الدولتين على الجانب الاقتصادي فيما استمرت سياسة الشاه المعادية والمتطرفة ضد الشيوعية.

الدفع بالعملة الصعبة في مقابل المساعدة الاقتصادية كان العقبة التي واجهها الايرانيون؛ خزينة الدولة كانت منهارة بسبب تدني أسعار النفط عالمياً آنذاك. ولم يبقَ سوى مقايضة السجاد والفاكهة. ولكن الايرانيين عرضوا مقايضة الغاز الطبيعي في الجنوب والذي كان يحرق هدراً في ذلك الحين، كما عرضوا على السوفيات بناء مصنع لهذه الغاية، وهذا بدوره يعني بناء خط أنابيب للغاز. وافق السوفيات على العرض على أساس مد خط من الجنوب على طول الساحل الغربي الايراني الى داخل جمهورية أرمينيا السوفياتية. العديد من الخبراء الروس رأوا في الشاه الشريك غير الدائم، ورغبوا في مد الانابيب باتجاه الجنوب الغربي لبيع الغاز لتركيا، إذ انه في حال توقف الضخ يوماً ما ونتيجة لأي خلاف محتمل مع الايرانيين يتضرر الأتراك وليس الروس.

في البداية كان سير الأمور طبيعياً حتى مطلع السبعينيات عندما التقى الرئيس السوفياتي ن. ف. بودغورني بالشاه، إذ تقرر إلغاء مشروع مد أنابيب الغاز الى تركيا، وكان ذلك خطأً فادحاً. لقد ارتفعت أسعار البترول والغاز في العام ١٩٧٣ وبدأت أزمة الطاقة تتفاعل، فطالبت ايران برفع أسعار الغاز المصدر الى الاتحاد السوفياتي في مقابل إنشاء مصنع الحديد الذي تدنت تكاليفه بالقياس الى أسعار الغاز المرتفعة.

أخيراً سُوّي الوضع بين الدولتين، ايران رفعت أسعار الغاز بنسبة معقولة بحيث بقي أدنى من السعر العالمي فيما رفع الروس أسعار قطع الغيار في مصنع الحديد.

واستمر الوضع على هذه الحال حتى بداية الثورة الايرانية، وقد قررت السلطات الايرانية وبسبب توجهات الاعلام الغربي إعادة النظر في استراتيجيتها

الاقتصادية ، فعرضت على السوفيات السعر العالمي للغاز مهددة بوقف التصدير. السوفيات جابهوا الموقف بحزم وامتنعوا عن استيراد الغاز الطبيعي من ايران مبرهنين أنهم قادرون على تحمل الوضع .

في «بافك» كان يتم استخراج الحديد الخام ثم ينقل الى أصفهان لتصنيعه ، وقد عينت مترجماً لرئيس العمال المسؤول عن استخراج المواد الأولية حيث يعمل فريق مسح جيولوجي للتنقيب عن الماء . لقد عاش الخبراء السوفيات الى جانب المهندسين الايرانيين في موقع تم بناؤه خصيصاً في «أرياميز» على بعد كيلو مترين من «بافك» حيث درجة الحرارة في الصيف تصل الى خمسين والرطوبة الى صفر. أحيط موقع السكن بشريط حديدي وضع تحت حراسة دائمة لمنع السوفيات من الاتصال بالايرانيين وتذرعوا بأن الشريط وضع لمنع الجمال والقطط البرية من التسلل ، بينما كان في الواقع لإبقاء السوفيات تحت المراقبة .

وبوجه عام اعتبر السكن مريحاً ، وتحمل الايرانيون تغطية مجمل مصاريفه باستثناء المأكل والثياب ، أما الخبراء السوفيات فكان همهم توفير المال اللازم لشراء سيارة فولغا ، وكان هذا يقتضي العمل زهاء سنتين في الخارج لجمع ألف وخمسمئة روبل ثمناً للسيارة . وبعد ذلك فان بالامكان اعادة بيع السيارة في السوق السوداء بخمسين ألف روبل ، وبهذا المبلغ يمكن للفرد العادي في روسيا ضمان دخل لمعيشته طيلة العمر. كان السوفيات يحملون معهم من روسيا مختلف أنواع الأطعمة التي يحتاجونها ويشمل ذلك سمك التونا واللحوم المجففة والنقانق والدقيق ، وذلك توفيراً للنفقات التي سيدفعونها في ايران ، وقد وصل الأمر لدى البعض منهم الى درجة الجوع الحادّ والتخلي عن كثير من الأشياء التي تعتبر ضرورية ، إذ ذاك عرفت معنى سؤال رجل الأمن لي في المطار إذا كنت أحمل أية مواد غذائية معي .

وفي الواقع فإن هؤلاء الأفراد معذورون في تصرفهم ، واللوم إنما يقع على أولئك الذين يسرقونهم ولا يتركون لهم مجالاً للحياة الطبيعية داخل وطنهم .

لقد تملكتني الدهشة عندما علمت أن الايرانيين يدفعون للمهندس السوفياتي مبلغ خمسة آلاف دولار راتباً شهرياً ، ولكن ما يقبضه لم يكن يجاوز الثلاثمئة دولار، أما الأربعة آلاف والسبعمئة دولار فتستقر في جيوب السلطات السوفياتية .

أما ظروف عملي فقد كانت جيدة، وذلك لكون مديري رجلاً طيباً ذكيـاً ذا روح مرحة فارتبطنا معاً بعلاقة وطيدة. وقـد مهّد لي الطـريق وتفهم ظـروفي في انهاء الأطروحة التي كان عنوانها «تاريخ صناعة الحديـد في ايـران»، ولتحقيق غايتي هذه ساعدني للقيام بعدة زيارات عمل الى طهران.

في غضون عشرة أشهر جمعت المعلومـات الضروريـة لاعـداد الأطـروحـة، واقترح علي المدير فكرة تمديد فترة بقائي لسنة أخرى، ولكني اعتـذرت بحجـة العودة لاستئناف الدراسة في الجامعة، فيما كان الطلاب الآخـرون في معظمهم يمددون لفترة سنتين أو ثلاث سنوات بغاية توفير المال. ولكن المدير اقترح علي ارسال ملفي الى طهـران على أسـاس أن أنـاقش الأمـر هنـاك مع المسـؤولين. وبـوصـولي الى طهـران تـوقعت مقـابلـة الشخص الأرمني نـائب المستشـار الاقتصادي، لكني فوجئت برجل آخر مكانه، وكان في الخمسين من العمـر، قصير البنية، واسمه انتولي فاسيليفتش أيونين. وقد بـادرني قـائلاً: «تسلمت ملفك من الباقك بخصوص التمديد، ولكن الأوراق لا تحمل توقيعك. . لذا من الأفضل أن تهتم بالموضوع وإلا فلن نمدد فترة بقائك هنا».

أجبت: «لم أنس التـوقيع، ولكني بصراحـة لا أرغب في التمـديـد، فقـد جئت لمدة سنة وأريد العودة الى الجامعة».

نظر اليّ باستغراب وأردف: «في الواقع نحن بحاجـة الى مترجم في المنجم، وعليك تفهّم الأمر، سأرسل ملفك الى مـوسكـو ولا أريـد أن أسمع منك أي اعتراض».

قلت: «لك كل الحق في أن تفعل مـا يطيب لك، ولكني، من جهتـي، سأبلغ موسكو أنك ترغمني على ذلك».

قال غاضباً: «هل تظن أنك تخيفني أيها المبتدىء الصغير؟ سوف أدمرك».

«حسنا أيها الرفيق ايونين، سأعرف على الأقل من أين تأتيني المتاعب».

ثم غادرت الغـرفـة والـرفيق ايـونين يهم بقـول المزيـد. اتجهت مبـاشرة الى الفندق حيث أعددت رسالة لمدير المعهد شرحت لـه فيهـا مـا حـدث طـالبـاً مساعدته لاعادتي الى موسكو. وكان الأمر في غاية السهولة، إذ أن ضـابطـاً في الـ كي. جي. بي كان يعمل في المعهد كمساعد للمدير وكـان يعلم بنيـة الـ كي. جي. بي في تطويعي للعمل لهم، وقد نقل الخبر الى نيكولاي فاشيليفتش

الذي بدوره سيقوم بما يلزم. ومن حسن الطالع أن أحد التلامذة كـان متجهـاً الى موسكو في ذلك اليوم بالذات فسلمته الرسالة.

ثلاثة أيام قضيتها في طهـران متنقـلاً بين دور السينما والمكتبـات، في ذلك الحين كان كتاب ألكسندر سولزنيتسن يملأ الأرفف، ولكني لم أجرؤ على لمسه خشيـة أن يلمحني أحـد المخبرين ويقلب الـدنيـا على رأسي، فألكسنـدر سولزنيتسن هو من المنشقين على خط ستالين، ولكنه بدل أن ينظر الى المستقبل راح يدور في دوامة الماضي، على حد قول أحد الأصدقاء في الـ كي. جي. بي لقد كان السجن لمدة عشر سنوات هو العقاب الذي ينتظرني فيما لو وجد ذلك الكتاب في منزلي.

في ذلك اليـوم وفي أثنـاء عـودتي الى المنـزل في «بـافك» قـابلني الكسنـدر تيتوفيتش غولدبيف خارج مبنى مجلس العلاقـات الاقتصـاديـة، فتقـدم مني قائلاً: «ما الأمـر، لقـد علمت أنك أهنت نـائب المستشـار. حسنـاً فعلت، عليك أن تجابههم دوماً وإلا فانهم سيقفزون فوقنا».

لم أفهم من كان يقصد بقولـه «فـوقنـا»، ولكن أحـد المترجمين ممن تعـرفت عليهم أوضع لي أن غولدبيف هو عضو خاص في المجلس، وألمح بـالتـالي الى أنه ضابط في الـ كي. جي. بي.

بادر غولدبيف بالسؤال: «من أرسلك الى طهران؟».

قلت لـه: «المعهـد الآسيـوي ـ الافـريقي.. من أجل تحضير الأطـروحـة للدبلوم».

قال: «حسنا، حسناً، موسكو هي مـوسكـو، لقـد قيل لنـا أن لا نبقيك هنا، وإنما عليك العودة الى موسكو... فلا تنزعج من «ايونين»، وهـو رجل طيب على أية حال».

ثم صافحني مودعاً، وقد فهمت من حديثـه معي أن رسـالتي وصلت الى موسكو وبسرعة لم تتعدَّ اليومين.

لقد قضيت وقتاً ممتعاً في ايران، فـزرت «يـازد» و «كيرمـان» و «أصفهـان» و«شيراز» و «بيرسبوليس»، وتعرفت على الايرانيين عن كثب. وفي الخامس من كانون الأول / ديسمبر كان موعد مغادرتي طهران، وكانت الثلوج تهطل بغزارة

غطّت معها الطرقات وسببت ازدحاماً في السير. وبوصولنا قرب المطـار نـزلت من الحافلة التي لم تتمكن من مواصلة الطريق وتقدمت سيراً على قـدميّ، ولم أكد أتقدم من المبنى حتى فوجئت بأعداد من الناس يهرولون وقد غطت الدماء ملابسهم وكانوا يصرخون فيما ملأ رجال الشرطة المكـان، وعنـدمـا سألت عما يجري أخبرني أحد المهرولين بهلع أنه منذ خمس دقائق حدث انفجار وقـد انهار السقف وراح الناس يركضون في كل اتجاه، ويقال إن قنبلة انفجـرت، وأردف ينصحني: «من الأفضل لك الابتعاد بسرعة، فالسـافـاك سيأتـون بعـد قليل ويبدأون بالقبض على الجميع وعلى الأخص عليك لكونك أجنبياً».

على اثر هذا الحادث أقفل المطار وألغيت الرحلات. وقـد أذيع نبأ الحادث في تلك الليلة باعتباره حادثاً قهرياً: انهيار سقف مطار مهرباد الـدولي نتيجـة ثقل كميات الثلوج المتراكمة، وقد دفن العديد من الناس تحت الانقاض.

احتفالاً بالنجاه توجهت مع بعض الـرفـاق الى بـار الفنـدق حيث شربنـا نخب حظنا بحياة جديدة.

وفي اليوم التالي فتح المطار واستؤنفت مواعيد الرحلات. وعندما صعـدت الى الطائرة ورأيت حطام المبنى أدركت كم كان عدد الضحايا كبيراً، ممـا جعل مغادرتي مفعمة بحزن عميق.

الفصل الثالث

اجراءات الانضمام الى الـ كي . جي . بي . ـ المدرسة ١٠١

أسرار المهنة ـ من «فيشيكا» الى الـ «كي . جي . بي .»

عند عودتي من ايران اتصلت بنيكولاي فاسيليفتش ساكالين في مديرية الـ كي . جي . بي واتفقنا على أن نلتقي كالعادة في كوزنتسكي ٢٧ ، شكرته عل مساعدته لي في الرحيل من ايران وأهديته ولاعة رونسون، ومنذ ذلك الوقت زالت الحواجز في ما بيننا . وقد أبلغني نيكولاي أن رسالتي حازت اهتماماً خاصاً من قبل المجلس، ولو تأخر رحيلي لسبّبب اشكالات لتحضيرات وضعت لسنوات عديدة قادمة . أعلمني أن الـ كي . جي . بي قامت في أثناء غيابي بالكشف على ماضيّ وتاريخ عائلتي لعدة أجيال سابقة فلم يجدوا أي شيء سلبي ، لذلك حان الوقت للمباشرة بالفحوصات الطبية دون تأخير.

يقع المركز الطبي للـ كي . جي . بي في كسلني بالقرب من لوبيانكا ، وهو مبنىً قديم رمادي اللون شبيه بمركز موسكو، ومحاط بأسوار كافية لمنع الفضوليين من رؤية الداخلين والخارجين . لقد داخلني الوهم عن ذلك المكان بنتيجة ما سمعته عنه من أخبار وعما يحدث فيه من حيل وغرائب ، إذ قد يصار الى إدخالك مثلاً في ممرّ خالٍ تُطْفَأ فيه الأنوار فجأة وتفتح الأرض فتهوي لتصطدم بشيء ناعم، ثم تشعّ الأنوار ويهرع الأطباء ليفحصوا ضغط دمك ، وقد تمر في أكثر من تجربة ، كأن يسحب الكرسي من تحتك فيما تطلق رصاصة من مسدس بالقرب من أذنك ليؤخذ ضغط الدم مجدداً .

ولكن أياً من مثل هذه الأمور لم يحدث، ولم يكن ما سمعته سابقاً من الأخبار حقيقياً . فالفحص الطبي كان عادياً بدءاً بفحص الأذن والأنف والحنجرة الذي يقوم به أطباء اختصاصيون ومروراً بفحوص الكشف على القدرة في التركيز والملاحظة وقوة الذاكرة ، وينتهي الأمر بجلسة مع طبيب

نفساني . وأذكر هنا أن الـ كي . جي . بي لم تستخدم في فحوصها مطلقاً أجهزة الكشف عن الكذب اعتباراً منهـا أن الطبيب النفسـاني أكثـر أهليـة من تلك الأجهزة . لقد كان الطب النفساني من العلـوم الحديثـة ولم يعتمـد إلا في نهايـة الستينيـات ، وكـان من قبل حكـراً على المجتمعـات البرجـوازيـة ، وكـان اختصاصيوه في مطلع أعمارهم وذوي خبرة محدودة ، لذا حبّذ معظمهم العمل مع الـ كي . جي . بي بغية خلق ظروف عمل لهم ، إذ كـان مجالهم محدوداً ، ولم تكن ثمة حاجة لخدماتهم ، الأمر الذي انعكس سلباً على مداخيلهم ووضعهم الاقتصادي .

وكانت الشروط للانخراط في الـ كي . جي . بي متشـددة . فقـوة الابصـار ينبغي أن تكون مئة بالمئة ولا يُقْبَل من يضعـون النظـارات ، كما يـرفض المرشح الذي سبق وأجريت له عملية جراحية أو تعرض لكسر في العظام أو عانى من مرض جدي . إضافة الى ذلك ينبغي على زوجة المرشح اجتياز الفحص الطبي هي أيضاً ، والشروط التي يجب توفرها فيها هي نفس الشروط المطلوب توفـرهـا في زوجها . ولم يكن ثمة أمر يتحكم في تقارير الأطباء أو يؤثر على استنتاجاتهم سـوى طلب من الـــ كي . جي . بي إذا مـا أريـد تغيير واقع معين ، وفي هـذه الحال يوكل الأمر الى الوساطات والهدايا ، وهو مـا يُعَدُّ أقـوى من القـانـون في الاتحاد السوفياتي . واذا ما أريد اسقاط مرشح ما بسبب نظـرتـه السيـاسيـة أو لأسبـاب شخصيـة بحتـة فإن الـذريعــة التي تعطى هي أن المرشح لا يتمتع بالشروط الصحية اللازمة . واذكر أن أحد التـلامـذة رُفض لأن والـدة زوجتـه يهودية وآخر لأن زوجته كانت عاهـرة . . ولكن الأسبـاب المعلنـة قـدمت على أساس عدم توفر الشروط الصحية في كل منهما .

لقد سارت الأمور في المعهد الآفروآسيوي على خير ما يرام . وكان المقـرر أن أمضي السنة الخامسة لإعداد اطروحتي والحصول على الدبلوم ، ونظراً لتغيبي في ايران مدة عام كان عليّ العودة الى السنة الـرابعـة وهـو مـا تقضي بـه القـوانين السائدة في المعهد ، ولم يكن ثمة وسيلة لتغيير ذلك . وعند مثـولي أمـام مكتب مـدير الطلبـة في قسم التـاريخ الايـراني البروفـوسـور ميخـائيل سيرجيفتش إيفانوف ، طلب مني الاطلاع على الأطـروحـة التي قمت بإعـدادهـا . وبعـد قراءته لها أبلغني أنه لا يجد ما يوجب إجراء تصحيح فيها ، وهو مـا يعـد أمـراً نادر الحدوث ، ولذا فإنه لا يجد ما يدعو الى تخلفي برجوعي الى السنة الرابعـة ، بل إن بإمكاني متابعة تحصيلي بشكل عادي .

كان علي خلال الستة أشهر من السنة الخامسة دراسة مجموعة موضوعات في الاقتصاد السياسي والفلسفة الماركسية ـ اللينينية، وتاريخ الغرب والشرق، وتاريخ ايران واللغة الايرانية ـ الفارسية، والانكليزية، واللغات الغربية، والترجمة العسكرية، ومواضيع أخرى لم أعد أذكرها. لقد كانت الدراسة معقدة وصعبة للغاية، ولكني تخطيتها بسلام ونلت شهادتي بتقدير، وقد اقترح علي البروفوسور ايفانوف متابعة دراستي لنيل الشهادة العليا، وعند اتصالي بنيكولاي طلب مني الانصياع للأمر بحيث أن ايفانوف لن يكون عقبة في طريقي وهو يدرك تماماً ما ينبغي علي القيام به.

جملة تطورات غير منتظرة وقعت خلال الأشهر الستة الماضية، فقد أخذت الرابطة العسكرية في الجامعة بممارسة ضغوط علي، وراح محاضر اللغة العسكرية في الفارسية يقترح علي الالتحاق بالجيش بعد التخرج، وأوضحت له أنه بعد ثلاث سنوات من خدمتي الالزامية لم أعد أكن محبة للجيش، ولكن المايجور بانشكن لم يجد ذلك مقنعاً، وقال: «سوف نرسلك مباشرة الى افغانستان وليس عليك ارتداء البذلة العسكرية». (ملمّحاً الى أن العرض هو الانخراط في مخابرات الجيش، وهو الجهاز المنافس للـ كي. جي. بي).

وعندما وجدت انني محاصر بإصرار بانيشكن هذا اتصلت بنيكولاي وطلبت منه المساعدة ليكف يده عني، فنصحني نيكولاي بالتروي والتجاوب معه وملء استمارة الأسئلة المطلوبة وترك الأمور تسير بشكل طبيعي، وبالتالي عدم الكشف عن أية علاقة لي بنيكولاي مهما بلغت الضغوط وتحت أية ظروف.

كان يتوجب على الطلبة قبل التخرج الخضوع للتدريب العسكري في مخيم بالقرب من كوفروف، ويستثنى من ذلك الذين سبق لهم الخدمة في الجندية لمدة ثلاث سنوات، وكنت واحداً من هؤلاء، ولكن مخابرات الجيش وقد عرفت أن الـ كي. جي. بي جندتني لحسابها قررت الانتقام مني. ولم يكن نيكولاي قادراً على الحؤول دون ذلك. عندها طرحت على نفسي السؤال عن مدى مصداقية الـ كي. جي. بي وشكّكت في صلاحياتها، وقد تبلورت الأمور عندما حان وقت تحديد المهمات، وعلمت بتحويلي الى وزارة الدفاع. دهش البروفوسور ايفانوف لما آل اليه الأمر وهو الذي تولى إحالتي من قبل لمتابعة دروسي ونيل الشهادة العليا. ومنذ ذلك الحين لم أعدْ أرى له وجهاً، وما

زلت حتى اليوم أتساءل عما كنت سأحققه فيما لو تابعت دروسي.

في مكتب المدير تجمّع أساتذتي والمسؤولون في المعهد، وكنت في غاية السرور لرؤيتي هؤلاء الذين رافقوني طيلة خمس سنوات. استهل البروفوسور يوريف رئيس مجلس إدارة المهمات الحديث فقال: «هذا الشاب غني عن التعريف، فنحن جميعنا نعرفه جيداً.. إنه التلميذ الأول في فصله وهو عضو مكتب المعهد الحزبي ويعتبر التلميذ المثالي. عمل في ايران على تحضير أطروحته ورُشح للدراسة العليا من قبل لجنة التاريخ الايراني، ولكنه فضل العمل في حقل مختلف، لقد اختار فلاديمير اندريفيتش كوزيشكن مهمة في وزارة الدفاع». وكان صوت البروفسور ياريف بادي التأثر يملؤه الحزن. وقبل مغادرتي المكتب وقعت على الملف منهياً بذلك فصلاً آخر في حياتي.

ولم يكد شهر أيار / مايو يوشك على نهايته حتى اتصل بي نيكولاي طالباً لقائي في المكان المعتاد في كوزنتسكي حيث مكتب الـ كي. جي. بي، قدمت جواز مروري فأعطيت تصريح دخول يحمل المواصفات التالية:

تصريح مرور

الاسم العائلي:

الاسم الشخصي:

اسم الأب:

تاريخ الصدور:

رقم المدخل:

وقت الخروج:

توقيع المستلم:

توقيع وختم مكتب الاذن:

بعد الإذن لي بالدخول التقيت نيكولاي الذي التزم الصمت ولم تند عنه أية كلمة. وأخيراً بادرته سائلاً: «من يريد رؤيتي؟». دون أن يجيب اتجه بنظره محدقاً في الفراغ للدلالة على أنه من الأشخاص المهمين، ثم قام لاصطحابي

باتجاه المدخل رقم (٥) في المبنى الثاني للـ كي. جي. بي، توقفنا أمام بوابة ضخمة يصل علوها الى أربعة أمتار ومن بعدها بوابة أخرى تؤدي الى قاعة داخلية يخيم عليها الهدوء ويقف عند مدخلها حارسان بلباسهما العسكري يقومان بالتدقيق في البطاقات. وعندما تقدمت رمقني الحارس متفحصاً المعلومات المذكورة في جواز المرور، ثم تقدم نيكولاي مبرزاً بطاقة الـ كي. جي. بي ودخل خلفي وقد شمله التدقيق هو أيضاً. سرنا سوياً في الممر الذي طليت أرضه باللون البني ذي الجدران المطلي نصفها الأسفل باللون الأصفر ونصفها الأعلى بما في ذلك السقف باللون الأبيض، فيما توزعت أبواب المكاتب حول القاعة وكانت من خشب السنديان وتدلت من السقف مصابيح بيضاء. كان الممر يعج بالحركة ولغط الأصوات، ولكن الوجوه تنضح بالتعاسة وبنظرات الاكتئاب والجميع متعجل الى مكان ما.

وكان ثمة مصعد ما إن اغلقتُ بابه الحديدي الشبيه بباب السجن حتى غمرني إحساس السجين وسيطرت علي مشاعر الغربة بالانتماء الى هذا المكان. وبوصولنا الطابق السادس خرجنا لنجد ممراً آخر لا يختلف عن ذلك الذي عبرناه في أسفل المبنى، وما كدنا نصل الى منتصف الممر حتى تقدمنا شخص طويل القامة ذو شعر أسود بدا في منتصف العمر، طرق أحد الأبواب، ثم دخل ودلفت خلفه، أما نيكولاي فقد بقي في الخارج. كانت غرفة المكتب صغيرة الى حد ما ذات سقف مرتفع، وكان ثمة ثلاثة أشخاص وقفوا عند دخولنا. تصافحنا بعد أن قدمني الرجل الطويل الذي أدخلني الغرفة ثم دعيت الى الجلوس، وراح الثلاثة يتأملونني دون أن يعرّفوني بأنفسهم أو ينطقوا بكلمة، وبدا اثنان منهما كأنهما قوقازيان أحدهما ذو شعر أبيض أما الآخر فكان شعره داكناً، وكانا يبدوان في الخمسين، أما الثالث الجالس خلف المكتب فقد بدا وجهه مألوفاً، كان في حدود الستين في العمر، عيناه تتوقدان ذكاء ويحمل سمات رجل نبيل. بادرني قائلاً: «علمنا أنك عدت لتوك من ايران.. فكيف بدت لك تلك البلاد؟». وبعد أن أبديت اعجابي بتلك البلاد وبالناس فيها، انتقلنا الى الحديث عن الشاه والأمور السياسية والاقتصادية في ايران. لكن أحد الرجلين القوقازيين تدخل وسألني إذا ما كنت أمانع في أن يكون الحديث باللغة الفارسية. وأخذنا بتبادل الحديث عن عملي هناك، وقد أدهشني استخدامه للتعابير الايرانية بمهارة فائقة، وقد أُفدت لاحقاً عند سؤالي المرافق بعد خروجنا من المقابلة بأنه مجرد مترجم

عـادي، ولكنني أدركت أن سـؤالي لم يكن في محلـه ولم أُعْطَ بـالتـالي الجواب الصحيح.

عندما وصلنا الى الجهة الأخرى من المدخل كان نيكولاي ما زال ينتظر وراح يتبادل النظرات مع الرجل المرافق. ومرة أخـرى جـرى التـدقيق في أوراقي من قبل الحارس. . ثم خرجب من المبنى وأنا أتنفس الصعداء.

سألني نيكولاي عن ردة فعلي من الاجتماع بـ «كـورزينكـوف». لقـد لفت الاسم انتباهي وذكرني بكتاب عن الـ كي. جي. بي طالعته في مكتبةٍ بطهـران وفيه صـورة كتب تحتهـا «الكسيفتش كـورزينكـوف ـ النـائب العـالم لمديـريـة المخابرات (غير القـانـونيـة) للـ كي. جي. بي». عنـدهـا أدركت أن عملي الجديد سيكون في هذا الجهـاز، وابتـدأ قلبي يخفق بسرعـة. لقـد اطلعت على أعمال هذا الجهاز من خلال الأفلام والكتب التي أبـرزت دور هـؤلاء الأبطـال اللاشرعيين الذين تعاملوا مع هتلر خلال الحرب ونسّقـوا مع القـادة الغـربيين بعد انتهاء الحرب. فكان منهم الكولونيل «آبل» الذي وقع في قبضة الأميركيين ولكنه لم يدل بأية معلومات عن شبكته التي شملت مئات العملاء، وكـذلك غانشر غوليوم الذي جمعته صداقـة حميمـة بـ «ويلي بـرانـدت» وكـان يـومهـا مستشار المانيا الغربية.

بعد زيارتي للمبنى الـرئيسي للـ كي. جي. بي في كـورنتسكي ٢٧، وقـد تطلب الأمر من نيكولاي دخول القاعة من دوني ليطلع المجتمعين على مرشحه وبقيت في الممر خارجاً انتظر مع حوالي عشرة أشخاص آخـرين، وبعـد زهـاء سبع أو ثماني دقائق استدعيت للدخول. وبعد تعـريف مـوجـز من نيكـولاي وقف شخص كان على رأس الطاولة وهو يبتسم، كان قصير القـامـة ذا وجـه دائري، وعينين واسعتين، وأنف أفطس، وشعـر مبلل بـالـزيـت رُفـع الى الخلف، ما كنت لأتخيل أن يكون جنـرالاً في الـ كي. جي. بي بل بـدا لي في تلك الحظة مروّج افلام شعبية أو مجرد مسـؤول حـزبي بسيط، أمـا في الحقيقـة فكان الجنرال أولوف المبتسم دائماً. بدأ الجنرال بسـؤالي عن مـدى استعـدادي لخدمة الحزب، ومن ثم راح الآخرون يلقون علي أسئلـة عن ايـران وعن المعهـد وعن غير ذلك من الأمور.

«وماذا عن وضعك السكني؟ لن تطلب منـا تـوفير شقـة لك على الفـور، اليس كذلك؟» كان هذا سؤال اورلوف لي وأتبع ذلك بقهقهة عاليـة كـانت في

غير محلها. وكان جوابي أن مكان إقامتي متوفر ولست بحاجة الى شقة. «هذا أمر جيد»، ضحك اورلوف مجدداً «لذا أهنئك. لقد تم قبولك طالباً في معهد الراية الحمراء في القيادة العليا للـ كي. جي. بي».

أشعرني هذا الاجتماع بالاشمئزاز. وما زلت أذكر كيف طأطأ معظم الحاضرين رؤوسهم لإخفاء التبرم والخجل من حديث الجنرال وتصرفه السخيف، وتساءلت عما اذا كنت سألتقي بشخصيات أخرى على هذا المثال في الـ كي. جي. بي، وقد تبين لي لاحقاً أن هناك عدداً لا يستهان به منهم. فكلما علت الرتب وُجد على شاكلة أورلوف أفراد عملوا في الحزب وأسندت اليهم مناصب عليا في الـ كي. جي. بي.

«القرار للكادرات»، كان هذا شعاراً ستالينياً في منهجية الحزب السوفياتي عام ١٩٣٠. وبالرغم من بساطة ذلك الشعار إلا أنه حمل في طياته معاني كثيرة تترجم بأسلوبين: الأول أن كل شيء في الحياة القومية قد قرر من قبل كادرات مؤهلة كفؤة اختيرت بعناية من قبل اختصاصيين. أما الثاني فيذكر أن كل شيء أقرّ من قبل البيروقراطيين، أي بواسطة فروع الكادرات والرسميين فيها، وبمعنى آخر فإن أقسام الكادرات أمسكت عملياً بمجمل الأوضاع في الحياة القومية وجعلتها تحت سيطرتها، وشمل ذلك التعيينات ورفع الأجور والترقيات والرواتب. وقد طال هذا الأمر جهاز الـ كي. جي. بي ايضاً، حيث احتل أعضاء حزبيون سابقون رئاسة الكادرات. وبهذه الطريقة أخضع الحزب جميع النواحي الحياتية لمراقبته بما فيها مراقبة الـ كي. جي. بي.

في ٣١ آب / أغسطس ١٩٧٥ طلب مني الحضور الى نادي دينامو الساعة السابعة صباحاً، وذكر نيكولاي أنه المكان الذي خصص لاجتماعات الطلاب الاعضاء في معهد «الراية الحمراء» للقيادة العليا أو ما سمي بـ «المدرسة ١٠١». ولقد استغربت لكون هذا المكان مخصصاً للاجتماعات، فقد قضيت فترة الطفولة في هذا المربع، ومذ كنت في السابعة تعلمت فيه السباحة، ومن بعد تدربت على الملاكمة في مركزه الرياضي، وكثيراً ما ارتدته لمشاهدة السينما برفقة الأصدقاء، وما سمعت يوماً أن للـ كي. جي. بي علاقة بهذا المكان الذي هو في أساسه نادٍ رياضي. صحيح أن اللاعبين أعضاء فريق الدينامو لكرة القدم كانوا يسمون بـ «الحثالة ومخبري الشرطة» وهو ما كنت أعلمه وأصدقائي، وكما كنا نعلم لهم تسمية أخرى، هي «أفراد ميلشيا موسكو»،

غير أني لم أكن لأتصور ما حييت سيطرة الـ كي . جي . بي على نادي الدينامو. أما الآن فقد أصبح واضحاً لي أنه أحد ملحقات وزارة الداخلية .

بوصولي محطة الدينامو الساعة السابعة صباحاً وجدت عدة حافلات متوقفة في المحيط وأشخاصاً لا يقل عددهم عن الخمسين. كان ذلك في ٣١ آب / أغسطس، وكان الشارع خالياً من المارة في هذه الساعة المبكرة، ولذا لم يثر تجمعنا انتباه أحد، ولو حدث ذلك لما ظن أحد أن ثمة شيئاً غير طبيعي، فقد اتخذت جميع الاحتياطات. وكان ثمة من يقوم بتسجيل الأسماء .

اتجهت نحو أحد زملائي الطلبة، ومن خلال حديثي معه عرفت أننا لسنا المجموعة الوحيدة، فقد سبقتنا مجموعة أخرى وصلت في السادسة صباحاً. بعد ذلك طُلب منا بلطف الصعود الى الحافلات. وانطلقنا .

كان سهلاً علي معرفة وجهتنا ولا سيما في هذه الناحية من موسكو التي ليست غريبة علي. اتجهنا أولاً الى شارع لينينغراد ثم الى توشينو مروراً بالمطار ونفق سوكو. كان الصمت مخيماً وبدا الجميع جديين .

بعد أن قطعنا مسافة خمسة عشر كيلو متراً ومررنا بقرية بولوفو دخلنا منطقة محظورة أوصلتنا الى غابة كثيفة حيث توقفنا أمام مبنى من أربعة طوابق متصل بمبنى آخر عبر ممر بني اللون في الدور الثاني، وكان المكان مشتملاً على موقف للسيارات وملاعب للتنس وحدائق مزهرة، وقد بدا كمتنزه للاستجمام في محيط موسكو.

المسؤول المرافق أبلغنا أن مدير المدرسة «فولوسوف» سيجتمع بكل واحد منا على انفراد، وعندما حان دوري دخلت المكتب حيث جلس شخصان حول الطاولة ما لبثا أن نهضا فصافحاني وعرفا عن هويتيهما: الكولونيل فوسولوف ونائبه الكولونيل ستريليكوف .

خلال الاجتماع طُلب مني تغيير اسمي لدواع أمنية، وسُمح لي باستعمال اسمي الأول واسم والدي ولكن تحت اسم عائلي جديد هو كورساكوف، وذلك لمدة سنة، وهي فترة التدريب في المدرسة والتي قضت علي مشاركة تلميذ آخر غرفة واحدة دون مشاركته أياً من أسراري .

وبهدف تأهيلنا للعمل في الخارج كان ثمة أمر طلب منا التنبه اليه، وهو أن يكون تصرفنا طبيعياً وكأننا نمارس حياة مدنية عادية، وكذلك ينبغي علينا

داخل المعهد أن تكون العلاقات في ما بيننا خالية من المظاهر أو التقاليد العسكرية.

حدد مكان سكني في الغرفة ٣١٠، وكان شريكي فلاديمير بلادين، وهو طويل القامة، صغير السن، يوحي مظهره بأنه جنوبي رغم كونه غير قوقازي، وكان الأخير الذي وصل مع المجموعة الأولى وقد خصص لنفسه السرير القريب من النافذة. كانت الغرفة عادية تحوي سريرين وطاولة ومغسلة علقت فوقها مرآة وراديو ثبّت على الحائط، وقد تبيّن لي لاحقاً أنه يعمل كجهاز ارسال أيضاً لالتقاط كل ما يدور من حديث في الغرفة. ولكن هذا لم يمنعنا من التعايش فيما بيننا ومن تبادل المعلومات. وقد كان فلاديمير يماثلني في العمر، وهو خدم في الجندية ثلاث سنوات في المانيا، وأكمل دراسته فيما بعد في معهد العلاقات الدولية، فتعلم الانجليزية والعربية وعمل فترة في العراق. كان متزوجاً وله ابنة عمرها سنة واحدة. ولعل من المصادفة الغريبة أن تكون حياته مشابهة لمراحل حياتي الى حد كبير.

في صبيحة اليوم التالي تجمعنا في صالة المحاضرات في الطابق الثاني حيث جلس فولوسوف وستريليكوف مع ستة أشخاص آخرين حول الطاولة وبادرنا فولوسوف قائلاً: «قبل البدء بعملنا الروتيني عليكم الخضوع لامتحان».

ساورتنا الشكوك وتوقعنا حدوث أمر ذي شأن خطير باعتبار المعهد مدرسة مخابرات تابع للـ كي. جي. بي. وسرعان ما تبين لنا أن الامتحان هو عبارة عن كتابة مجموعة من الأرقام تقرأ فيما يعمل على إحداث تشويش في الراديو بطريقة البث المزعج. وكان ذلك شبيهاً بالتدريب في الجيش على استعمال راديو الارسال والتشويش. ولم أدرك مطلقاً الغاية من ذلك الامتحان الذي لم يستغرق سوى بضعة دقائق ولم تعلن نتائجه فيما بعد علينا.

كان عددنا مئة وعشرين شخصاً وزعنا على أربع مجموعات تولى القيادة في كل منها الأكبر سناً. قائد مجموعتي كان الكولونيل بافيل كوزمبيتس ديفيروزوف وهو في حوالي السبعين من العمر، أبيض الشعر، ذو أنف ضخم وعينين حادتي النظرات. القائد وهو الأكبر سناً في المجموعة عمل في قيادة الـ كي. جي. بي أو في ذلك الجهاز قبيل الانتقال الى المدرسة ١٠١.

البرنامج اليومي كان نظاماً عسكرياً عمل على تطبيقه دون توقف وجرى على النحو الآتي:

الساعة ٤٥,٦ صباحاً : موعد النهوض

الساعة ٠٠,٧ـ٣٠,٧ : التمارين الرياضية

الساعة ٣٠,٧ـ٠٠,٨ : الاستحمام

الساعة ٠٠,٨ـ٤٥,٨ : تناول الفطور

الساعة ٠٠,٩ : البدء بالدروس

الساعة ٣٠,١٢ـ٠٠,١٤ : فترة تناول الغداء

الساعة ٠٠,٢٠ـ٠٠,٢٢ : دروس خاصة في المكتبة

الساعة ٠٠,٢٣ : انتهاء فترة العمل

وفي العادة كان تناول وجبة الغداء في صالة كبيرة تتسع لحوالي مئة وعشرين شخصاً، كل شخص يقوم بخدمة نفسه، أما قائمة الطعام فتتألف من سلطة البندورة (الطماطم) وسلطة الخيار وشوربة الخضار وشوربة البطاطا باللحم وشوربة السمك مع مخلل الخيار والسولينكا (شوربة خضار حارة مع السمك واللحم)، وقطع اللحم محشوة بالأرز وفطائر اللحم وفطائر الجبنة ولحوم الطيور وغيرها. . وثمة فاكهة جافة وحلويات معدة من الحليب. كان الطعام يأتينا من المزارع في القرى المجاورة. ويقوم بطهوه نسوة خبيرات يضعنه في أوعية قديمة تضفي عليه مذاق طعام منزلي. أما المشروبات الكحولية مثل النبيذ والبيرة فكانت من الممنوعات في المدرسة ١٠١.

بعد تناولنا وجبة الغداء الأولى قمنا بجولة بين الغرف والقاعات والمرافق الأخرى في المجمع، كان ثمة ثلاث قاعات وبركة سباحة وأربعة ملاعب للتنس.

في اليوم التالي، في ١ أيلول / سبتمبر وكان نهار اثنين بدأت الدروس. وكان العنوان الأول: هيكلية مجلس الأمن القومي لمجلس الوزراء السوفياتي (في ذلك الحين كان لا يزال يدعى مجلس الوزراء وحدث التغيير سنة ١٩٧٨ عندما استحوذ ادروبوف على السلطة فألغى دور الـ كي. جي. بي بمراقبة المجلس).

تألفت قيادة الـ كي. جي. بي من تسعة قادة ومسؤولين. القائد الأعلى

يشرف على المخابرات الخارجية وهي تشمل: (أ) أربع قيادات: القيادة (اس) المخابرات اللاشرعية، القيادة (تي) المخابرات التكتيكية والعلمية، القيادة (كي) المخابرات الخارجية المضادة، والقيادة (آر تي) مخابرات مراقبة الأجانب على الأراضي السوفياتية. (ب): جهازين اثنين: الجهاز (اي) جمع المعلومات، والجهاز (آ) الاجراءات العملية. (ج): اثني عشر قسماً جغرافياً تعمل على جمع المعلومات السياسية في المنطقة الموكلة بها وقد وزعت على المناطق كل بحسب أهميتها، وهي كالتالي:

القسم الأول: الولايات المتحدة وكندا

القسم الثاني: أميركا اللاتينية

القسم الثالث: بريطانيا، استراليا، نيوزيلندا، اسكندينافيا

القسم الرابع: المانيا الغربية والنمسا

القسم الخامس: فرنسا، ايطاليا، اسبانيا، هولندا، اللوكسمبورغ، ايرلندا

القسم السادس: الصين، فيتنام، كوريا، كمبوديا

القسم السابع: اليابان، اندونيسيا، الفلبين، تايلندا، سنغافورا

القسم الثامن: ايران، افغانستان، تركيا، برلين الغربية

القسم التاسع: دول الفرانكوفون الافريقية

القسم العاشر: دول الانجلوفون الافريقية

القسم السابع عشر: الهند، باكستان، بنغلادش، سيري لانكا

القسم الثامن عشر: الدول العربية في منطقة الشرق الأدنى

كما كان هناك عدة أقسام أخرى ذات اختصاص:

القسم الحادي عشر: الارتباط مع «الأصدقاء» (أجهزة الدول الاشتراكية)

القسم الثاني عشر: تحت القيادة (آر. تي)

القسم الثالث عشر: غير موجود - وربما كان للتمويه -

القسم الرابع عشر : الأمن التكتيكي لعملية المخابرات

القسم الخامس عشر : القيادة (إي) ـ اشراف القيادة العليا .

القسم السادس عشر : مراقبة الاتصالات الاجنبية

بالاضافة الى ذلك ضمت القيادة العليا عدة كادرات ومجلساً حزبياً . أما القيادة الثانية للـ كي . جي . بي فكانت مرادفة للـ M15 البريطانية وتحوي المخابرات المحلية المضادة ومهمتها منع المخابرات الاجنبية من العمل في الأراضي السوفياتية .

القيادة الثالثة للـ كي . جي . بي هي أمن الجيش والمخابرات المضادة . فقد منع المجلس الأعلى للحزب الشيوعي السوفياتي الجيش من تكوين جهاز مخابرات مضاد تابع له ، وهكذا يكون بمستطاع الحزب مراقبة الجيش .

القيادة الخامسة للـ كي . جي . بي هي القيادة الأيديولوجية ، أسست في نهاية الستينيات لمكافحة المعارضة السياسية بعد أن نشط تحرك المنشقين .

القيادة السابعة للجهاز موكلة بمهمات المراقبة غير أنها لم تكن مستقلة للقيام بالعمليات وهي في ذلك تتعاون مع مختلف القيادات الأخرى .

القيادة الثامنة مهمتها العمل على وضع الشيفرة وحل الرموز.

القيادة التاسعة تتولى توفير الحماية للقياديين الحزبيين وأعضاء الحكومة والشخصيات الهامة المستهدفة مثل أعضاء مجلس السوفيات الأعلى والكرملين والـ كي . جي . بي وهي لهذا السبب لقبت بالقيادة المميزة .

القيادة السادسة مؤهلة باختراق المؤسسات الأجنبية على الأراضي السوفياتية بواسطة أجهزة التنصت ووسائل المراقبة في السفارات كنبش الأنفاق وغيرها .

كذلك تقدم الـ كي . جي . بي بادارة القيادة العليا للقوات الأمامية .

كل تفاصيل هذه المعلومات عن أدوار القيادات المختلفة هي خلاصة استنتاجات توصلت اليها ولم تذكر لنا في المقرر الدراسي .

والفارق الوحيد بين هيكلية الـ كي . جي . بي في روسيا وبين الجمهوريات الأخرى هو وجود الأقسام في الأخيرة بدل القيادات والفروع بدل الأقسام ، فيما تظل الأوضاع التنظيمية والمهمات الأخرى على حالها .

والدروس عن هيكلية المخابرات في الدول الرأسمالية الرئيسية تعلمنا أن كل التفاصيل مختلفة في دراستها عن هيكلية الـ كي . جي . بي بل هي مناقضة لها في واقع الأمر. ففي «السي . آي . إي» والمخابرات البريطانية استعين برسوم ولوحات تفصيلية بأسماء ضباط المخابرات وطلب منا أن ينصب التركيز على المخابرات الأميركية باعتبارها العدو الرئيسي ، وباعتبار أن أجهزة المخابرات الأخرى منضوية تحت لوائها . وقد رسخوا في عقولنا منذ البداية تفوق العملاء السوفيات على العملاء الغربيين كما أقنعونا بأن أنشطة أكثرية المخابرات المعادية هي مثل (كتاب مفتوح) . كان الهدف من ذلك شحننا بالثقة بينما كانت اغلبيتنا لا تعرف الكثير عن تقنيات العمل في عالم المخابرات ، وقد بدا ذلك واضحاً على وجوه الطلبة الذين عملوا لبعض الوقت في قيادة الـ كي . جي . بي قبل الانضمام الى المدرسة ١٠١ .

وقد درسنا في ما بعد عن نظرية المخابرات ومشاكلها وأهدافها والهيكلية الخاصة بكل دولة . وكانت الـ كي . جي . بي قد وضعت على ضوء ذلك تقسيماً للأهداف والبنى لكل منها ، فالبنية السياسية للدولة الرأسمالية مثلاً قسمت على النحو الآتي :

الحكومة والحزب الحاكم والوزارات ، أحزاب المعارضة والاحزاب السياسية الأخرى ، والجامعات ، والأهداف الاقتصادية ، الأهداف العسكرية والأهداف الصناعية ـ العسكرية . وكان الهدف الأول للمخابرات العسكرية هو الحصول على معلومات سرية بأية طريقة ممكنة ، وهذا يشمل الاختراق باستعمال الوسائل التكتيكية وبواسطة العملاء المهمين لنا ، وبمعنى آخر كانت الـ كي . جي . بي تعمل باستمرار على وضع أجهزة تنصت في المؤسسات والمنظمات بالاضافة الى تجنيد عملاء لهم في تلك المؤسسات . كانت التعليمات تقضي بإيجاد الأشخاص المعنيين للحصول على معلومات مفيدة ، فلقد ولّى حسب قولهم زمن تعددية العملاء وجاء زمن النوعية . فاذا ما أريد تجنيد شخص ما للعمل في مكان يهم الـ كي . جي . بي فإن على ضابط المخابرات ايجاد الدافع لذلك ، أو الأساس للتجنيد في لغة المحترفين . . فنظرية الـ كي . جي . بي في المخابرات تستند الى ثلاث ثوابت ايديولوجية ، وهي ان يكون الشخص من فئة المؤمنين بالشيوعية فيعمل لمصلحة الاتحاد السوفياتي ، أو ممن تكون لديهم دوافع أو أسباب نفسانية وتندرج في هذا السياق فئة المعتوهين ، أو من أولئك المُحْبَطين معنوياً والمنبوذين والباحثين عن المغامرة وبالتالي من الأشخاص

الذين حال مـديـروهـم بينهم وبين الحصـول على تـرقيـة في العمل وتكـون لهم أسباب محض مالية وهو الدافع الأقوى الذي بسببـه يتـداعى الكثيرون . وقـد ذكر محاضرنا أن ثمة أسباباً أخرى أكثر تأثيراً . أما التجنيـد على أسـاس الانتماء الايديولوجي فنادر الحدوث ، وهو لـو حـدث فـان الشك والحيرة هما اللـذان يحكمان العلاقة طيلة الوقت ، ولم تذكر لنـا الأسبـاب الكـافيـة وراء ذلك ، ولم يكن ثمة داع لذكرها ، فالجميع يعلم ما آلت اليه الايديولـوجيـة السيـاسيـة في الاتحاد السوفياتي على المستويين الداخلي والخارجي ، وأصبح ذلك محط أنظـار الغرب خاصة والعالم عامة . ولا سيما بعـد أن قـامت في العـديـد من البلـدان انقلابات غيرت بقـوة السـلاح وبـدعم مبـاشر من الاتحاد السـوفيـاتي أنظمـة الحكم . فبعد أن تصل زمرة مؤيدة للنظام السوفياتي الى الحكم في أي مكان من العالم فإن النتيجة الحتمية لذلك هي انهيار الاقتصاد وتدني المستـوى المعيشي ، إضافـة الى مـا يحدث من سلب للحقـوق الانسـانيـة وتكبيل للحـريـات . . وسرعان ما تنطلق المجموعات المسلحـة مشيعـة الارهـاب بين النـاس وفـاتحة المجال الى حرب أهلية ومخيمات للاجئين .

لقد غدا هذا واقعاً معروفاً في كل مكان . . والسؤال هو كيف يمكن إقامـة علاقات تعاون من منظور الأسس والمبـادىء الـدوليـة بين الاتحاد السـوفيـاتي والعالم .

من ناحية أخرى فان مفهوم ذلك الواقع لم يكن مقتصراً على الغرب وحده ، بل هو ماثل في يقين الشعب السوفياتي نفسه وقائم حتى في عقول المسؤولين من ضباط المخابرات السوفياتية . وكل ذلك كان واضحاً إضافة الى كونه موضوعـاً يُمارس يومياً .

ومنذ ثورة ١٩١٧ نظـر النـاس بعين الأمل الى المستقبل وتـوقعـوا أن تثمـر الوعود عن بشائر خير، ولكن انتظارهم كان يخضع بـاستمـرار للمماطـلات ، فتارة يبرز تدخل أجنبي من هنا وتنشب حرب أهلية هناك ، وطوراً تهب ريـاح تغيير لإعادة البنـاء ، مثلما حـدث في العشرينيـات ، ثم أتت فترة البحث عن أعداء الشعب في الثلاثينيات ، فالحرب ضد هتلر، فإعادة إعمار الاقتصاد بعد الحرب . وهكذا كلما ألح الشعور بالحاجة الى استقرار ما كان افق السعادة أكثر ابتعاداً . . ولم يكن ثمة ما يوجب لوم أحد ، فقد كانت الأسباب موضوعية .

وفجأة ، في عام ١٩٥٦ حطم خروتشوف الصورة المزيفة للقـادة السـابقين

من السوفيات، لقد أنحى باللوم على ستالين وألقى عليه مسؤولية كل المشاكل التي عانتها البلاد مبرئاً الآلة الحزبية مما حدث. ولكن خداع الشعب لم يكن سهلاً، لأن الجميع يتذكرون تلك الشعارات: «عندما نقول ستالين نقصد الحزب. عندما نذكر الحزب نقصد ستالين» وهنا تكمن الخدمة الكبرى التي أسداها خروتشوف، فقد حطم ايمان الناس الوثيق بالحزب الشيوعي وقادته. ولكن خروتشوف بنقده لأعمال ستالين من موقع السخرية عمل على تكريس زعامته الشخصية وأعاد البلاد الى عبادة الفرد، ولم يكن بذلك يختلف بشيء عن سلفه.

ولذا، ما لبث الذين حلموا بإمكانية حدوث التغيير أن عدلوا عن رؤيتهم واستسلموا للحقيقة المرة. وعادت النقمة تتصاعد من جديد على الحزب أكثر منها على شخصياته. وفي العام ١٩٦٤ سقط خروتشوف ولكن الستالينيين لم ينسوا له فعلته في تحطيم السلطة الحزبية، وبدأ عهد بريجينيف واستؤنف طرح الشعارات وبالونات الهواء وسياسة التمدد باتجاه الساحة العالمية. وبدأت المساعدات الاقتصادية والعسكرية بالتدفق على كوبا وفيتنام وانغولا وأثيوبيا في الوقت الذي كان فيه الاقتصاد السوفياتي منهاراً والنقمة في ازدياد، وراحت الأصوات ترتفع: «إن مريضاً ذهب الى المستشفى وقال للمرضة: «أريد اختصاصياً في الأذن والعيون». فردت عليه قائلة: «ربما تريد طبيب الأذن والأنف والحنجرة؟». أجاب: «كلا.. ما أريده هو طبيب الأذن والعيون».. اعتقدت الممرضة أن الرجل مختل عقلياً فأرسلته الى طبيب نفساني. «أيها الطبيب هناك أمر ما في أذني وعيني، وأينما أذهب أسمع شيئاً ولكني أرى شيئاً مختلفاً تماماً. قال الطبيب: «يا عزيزي، لسوء الحظ لا أستطيع أن أفيدك بشيء، فليس عندنا دواء يشفي من الاشتراكية».

قد يتساءل الكثيرون: لماذا لم يقف الشعب في الاتحاد السوفياتي رافضاً العبودية، هل هو الخوف من الميلشيا والمخابرات، وهل أساليب القمع كانت من القوة الى حد تستحيل معه المقاومة؟

لا جدال أن أساليب القمع كانت قاسية، وهي لم تكن الوسائل الوحيدة، فبنظر ماركس أن مرجعية الأمور كلها الى الاقتصاد، ولذا فقد وضعت فئات الشعب جميعها تحت سيطرة الدولة اقتصادياً، وأصبح كل فرد في الاتحاد السوفياتي مرتبطاً من الناحية المعيشية بعجلة الاقتصاد الحكومي، سواء أكان

ذلك في عملـه أو راتبـه أو سكنـه وحتى في عطـلاتـه، وكل وسـائل الحيـاة أخضعت لسيطـرة الحزب، ومن يعبّر عن امتعـاض أو يبـدي اعتراضـاً فهـو بذلك يعرض نفسه للحرمان ولن يوجد ثمة طرف يمكنه التعويض عليه.

يضاف الى هذا أن الوضع الاقتصادي بالنسبـة لفئـات الشعب لم يكن من السوء بحيث يدفع الفرد الى التخلي عن مساعدة السلطات، وبرغم أن الحياة لم تكن مرفهة فهي لم تصل الى درجة الفقر، وقد حافظت السلطات على استمرار هذا التوازن. لذا كان الناس عندمـا يفـاضلـون بين الاعتراض عـلانيـة وشتم المسؤولين فيعرضون أنفسهم لخسارة كل شيء وبين تناسي الأمر، كانوا يفضلون ما هو أقرب الى السلامة ليتسنى لهم استئناف حياتهم بهدوء، وليجنبوا أهليهم وأقاربهم مشاكل لا طاقة لهم بتحملها.

وكان ثمة أمثـال تتردد: «الضعيف يـذهب الى الحائط» و «رجل واحـد في الحقل ليس جندياً».

يقول فلاديمير فيسوتسكي في شعره: «قليلة هي العقول المجنـونـة، ولهذا السبب نتذكر القـادة الكبـار»، أمـا مطلقـو الشعـارات عـلانيـة فكـانـوا من السكارى الجوالين في الشوارع.

نتيجة لحالة الضياع على مستوى المبادىء والايديولوجيات لم تكن الـ كي. جي. بي قادرة على الامساك بزمام الأمور وتغيير طريقة التفكير عنـد النـاس، وانحصر الاهتمام بالتصدي للأنشطة المعـاديـة للسـوفيـات والحد من انتشـار السلاح بين أفراد الشعب.

وبالعودة الى معهد الراية الحمراء فان ضابط المخابـرات كـان يتـدرب على كيفية التقرب من الشخص المنوي تجنيده ويعد السيناريو المطلـوب ويـدرسـه جيداً، ويكون ذلك في اطار التوجهات الآتية:

١ ـ تهنئته بمناسبة عيد ميلاد ابنته وتقديم هدية صغيرة.

٢ ـ حدثه عن صحته وعائلته.

٣ ـ حدثه عن المستجدات السياسية واكتشف موقفه من سياسة الحكومة، بعد ذلك شدد على الدور الايجابي للاتحاد السوفياتي.

٤ ـ حـدثـه عن مقـال نشر في الصحف (فضيحـة ايـران غيت، مثـلاً).

واعرف إذا كان هناك أمر آخر بضيفه الى الموضوع (مع التعرف مسبقاً على المعلومات التي بحوزته).

٥ ـ حاول معرفة إذا اشتكى المجند أمرك الى رؤسائه وانزع الفكرة من رأسه، واذا شعرت برفضه اقلب الموضوع بكامله الى نكتة. أما إذا شعرت بتجاوبه فتعمق معه قليلاً واقترح عليه مثلاً وقف الاتصالات الهاتفية وتحديد موعد للاجتماع مسبقاً. وفي حال تعذر حضور أحدهم فلا داعي للاتصال لإعلامه، وفي الحال يعين موعد آخر للاجتماع ويكون بعد أسبوع في الزمان نفسه وفي المكان الذي سبق تحديده.

هذا إضافة الى أنه يتعين على ضابط المخابرات توجيه مجنده وتعليمه على السرية، ومعدل فترة الرعاية في العادة يكون في حدود السنة. بعد انقضاء هذه الفترة ينبغي على المجند نقل المعلومات والأسرار شفهياً وخطياً الى ضابط المخابرات بداعي الصداقة، ولا يتخاذل عن قبول الأموال التي هي خطوة هامة في التطويع. وأساليب عرض المال متنوعة، فمثلاً يعلّم ضابط المخابرات هدفه أنه قدم تقريراً لمنظمته في موسكو بناءاً على المعلومات التي أعطاه إياها ونال على أساسها مكافأة، وعليه مقاسمته المكافأة باعتباره «مساعد الكاتب». والهدف من إعطاء المال هو زيادة دخل المجند ليشعر بنعمة عمله وليس لإثبات الكرم الأممي للـ كي. جي. بي. والحد المعمول به يساوي خمسمئة دولار أميركي. والمكافآت تتفاوت بحسب أهمية المعلومات، وفي حال تجاوزت المكافأة العشرة آلاف دولار عليه عندئذ الحصول على موافقة رئيس مجلس ادارة الـ كي. جي. بي شخصياً، وليس مقبولاً أن يحصل المجند على المال بطريقة تلفت الأنظار اليه، ولذا يجب اقناعه دوماً بحبك رواية تبرر حيازته للمال الزائد.

باستمرار الوضع مع المجند على حاله من إعطاء المعلومات وأخذ المال وتوالي الاجتماعات دون إثارة الريبة من حوله تقدم للمجند رسالة مفادها:

«أنت مساعد قيّم لنا ومعلوماتك ذات قيمة وفائدة لنا في موسكو. وقد طلب مني قادتي أن أشكرك، ونحن نتمنى أن تستمر علاقاتنا الوطيدة بنجاح، فانت شخصية مهمة جداً وأمنك هو أمر مهم لنا، ولذا يجدر بك أن لا تفعل ما يعرضك للخطر».

لا تستعمل كلمات مثل: المخابرات، التجسس، العميل، الـ كي.

جي. بي مطلقاً في الرسالة، ومن الأفضل أن لا يعلم المجند أي شيء عن ضابط المخابرات ومنظمته، وفي حال رفضه استئناف التعاون لا تمارس عليه أية ضغوطات، وانما على ضابط المخابرات اقناعه بالعدول عن قراره دون الاقدام على أي تصرف آخر بتاتاً.

ربما يبدو أسلوب الـ كي. جي. بي هذا للقارىء الغربي صعب التصديق، وفي الواقع إن وسائل الابتزاز والضغط القديمة لم تعد مستعملة من قبل الجهاز، فقد ولى زمن تلك الوسائل.

قيل لنا في المدرسة إنه في أواخر الستينيات سنّ الاميركيون والدول الغربية الأخرى قوانين جديدة بخصوص المواطنين الذين هم على اتصال بالمندوبين السوفيات. وأعلن رسمياً أنه إذا ما اشتكى أحد ما لجهاز أمن الدولة عن محاولة إقناعه بالتعاون مع السوفيات فلن يصاب بأذى، وقد أعطى هذا القانون نتائج مرضية ومعاكسة تمثلت بانضمام العديد من العملاء السوفيات الى أجهزة الأمن الغربية، وثبت أن التعاون بسبب الخوف وليس الصداقة غالباً ما تكون نهايته سيئة.

ينبغي على ضابط المخابرات التحقق جيداً من المجند باستخدامه مختلف الوسائل والأساليب، وذلك بغية التأكد من تعاونه بإخلاص وعدم كونه طعماً قدمته المخابرات العدوة. كما ينبغي عليه أن يحلل تصرفات المجند ويسجل ملاحظاته على أي تصرف يثير الشك، وكذلك التأكد من صحة معلوماته عن طريق الطلب لإعطاء معلومات عن أمر معلوم سابقاً من قبلنا، ومن ثم استجوابه عن الطريقة التي حصل بواسطتها على المعلومات. كل هذه الأمور ينبغي إجراؤها بكل لطف وتهذيب. وبعدها يوضع المجند تحت المراقبة لمعرفة ما يفعله بعد مقابلة ضابط المخابرات.

أما الاجراء الرئيسي للتحقق من مصداقية المجند فيكون خلال الاجتماع به، إذ يعتذر ضابط المخابرات بطريقة مفاجئة متعللاً بحجة الذهاب الى مكان ما لمدة ساعتين واعداً بالعودة بعدها لمتابعة الاجتماع، وعليه أن يتعمد ترك حقيبة البد التي معه في عهدة المجند بحجة وجود بعض المستندات السرية داخلها ويطلب منه إبقاءها لديه باعتباره محل ثقته. وبالطبع لن تكون في الحقيبة أية مستندات سرية بل راديو ارسال أو مسجّل إضافة الى وجود مادة كيميائية تظهر البصمات إذا ما عمل على فتحها. فإذا كان المجند طعماً وضع من قبل

مخابرات عدوة فسيلجأ الى إعلام مسؤوليه بأمر المستندات خلال تغيب الضابط مدة الساعتين اللتين تكفيانه لفتح الحقيبة والاطلاع على محتوياتها ، وسيهرع الى الهاتف لهذه الغاية ، وعندها يمكننا سماع حديثه بالكامل .

بعد الانتهاء من العملية واسترداد الحقيبة من المجند تقام بعض التحاليل الدقيقة ، وفي حال عدم وجود أية أدلة على عدم مصداقية المجند يعمل على اتخاذ الاجراءات لإدخاله في شبكة الـ كي . جي . بي ولكن التحقق من أمره لا يتوقف عند هذا الحد ، فليس ذلك إلا البداية فقط . وبحسب القوانين المتبعة فإن العميل يخضع للتحقيق في أمره على الأقل مرة واحدة في السنة وكذلك قبيل أية عملية هامة يشترك فيها .

مجمل هذه المعلومات كان موضع إثارة لنا خلال الدراسة إضافة الى بعض المواضيع الفنية مثل التصوير الفوتوغرافي والكتابة السرية واستعمال أجهزة التنصت وغيرها . وبعد عدة أشهر من الدراسة تلاشى الحذر وحلت الأربطة عن الألسن . ورحت أحاول معرفة هويات الموجودين معي في الفصل . فالكولونيل ريفيزورروف قائد قسمنا المؤلف من ثلاثين عنصراً كان قائداً سابقاً للقيادة (اس) المخابرات اللاشرعية ، وقد سُرِّح من المخابرات وأحيل الى التعليم ، ولديه خبرة واسعة بحكم عمله في كل من اميركا وكندا . وكان موضع احترامنا وخوفنا في آن معاً .

كان معنا في الفصل عدد من خريجي جامعة موسكو ومن معهد العلاقات الدولية ، وهم اختصاصيون حاملو شهادات تقنية ودبلوم صحافة وترجمة وسبق لهم العمل في الخارج ، كما كان هناك عدد من ضباط قيادة الـ كي . جي . بي إضافة الى آخرين من الـ كي . جي . بي في الجمهوريات .

وكان يطلب منا العمل في مجموعات لحل بعض المسائل كتحليل وضع معين وكيفية العمل على تفكيكه والغوص في تفاصيله لبناء استراتيجية معيّنة ، وقد علمنا ريفيزورروف كيفية التفكير بأسلوب مبدع ، ويضرب لنا مثلاً على ذلك فيقول : «إذا بدا لكم الحل الذي توصلتم اليه عظيماً فلا تجزعوا وتعتقدوا أنه غير معقول . بل علينا بحث أمر المخطط من جديد للوصول الى الحل الأفضل» . أما المخطط الأفضل فكانت تلك التي يقدمها طلاب الجامعات السابقون ممن لم يسبق لهم العمل في المخابرات على غرار أفراد الـ كي . جي . بي الذين يصعب عليهم خرق الأفكار المنطقية التي اعتادوا عليها في المنظمة .

في أوقات الفراغ كان علينا ارتياد المكتبة الملحقة بالمعهد حيث معظم الكتب عن المخابرات وأدوارها . وأشهرها كتاب دايل كارينجي وعنوانه «كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس» وقد ترجم الى الروسية ووضع بخاصة ليكون في تصرف المخابرات فقط ، وكنت أعتقد أنه وضع لرجال الأعمال وليس للجواسيس .

لقد أعطي اهتمام خاص لتعلم اللغات ، فكان الطلاب في غالبيتهم يجيدون لغتين أو ثلاثاً وربما أكثر ، وقد عمل زملائي في المجموعة على تحسين لغتهم ، وكانت معلمتنا ايلينا اكيدوفا ابنة اكميروف تجيد الانجليزية وتتكلمها بطلاقة . الاستماع الى الراديو وتسجيل الأخبار من إذاعة الـ بي . بي . سي . البريطانية ، بالاضافة الى مشاهدة الأفلام التلفزيونية ، ذلك كان جزءاً من البرنامج التعليمي لنتمكن ، أولاً ، من تحسين مفهومنا للقضايا السياسية والألفاظ المتبعة ، ولندرك ، ثانياً ، كيفية تعامل الغرب مع الأخبار والسياسة العالمية والسوفياتية .

كانت أفلام جيمس بوند هي المفضلة عندنا ، «من روسيا مع الحب» و«دكتور نو» و «كازينو رويال» هذه الأفلام عرفتنا كيف ينظر الغرب الى رجال المخابرات السوفياتية : وجوه لرجال حمقى ، يحلون مشاكلهم بقبضاتهم لا بعقولهم ، رغم أن «الكاراتيه» لم تدرج في منهاج الـ كي . جي . بي إلا في العام ١٩٧٥ إضافة الى أنها لم تمارس إلا خلال التمارين الصباحية في المعهد . وفيما يختص باستعمال السلاح فلم أشاهد طيلة السنة التي قضيتها مسدس ماكروف سوى مرة واحدة ولم أطلق منه أكثر من ثلاث طلقات ، وعندما كان يتساءل الطلاب عن أسباب هذا النقص في التدريب يأتي الرد : ينبغي على ضابط المخابرات ان لا يكون اعتماده على قبضتيه أو على سلاحه ، بل إن سلاحه الوحيد هو عقله .

لقد اتيحت لي ذات يوم فرصة مناقشة أحد الطلاب وكان سبق له العمل لسنوات مع القيادة الداخلية للـ كي . جي . بي ودار الحديث عن العلاقة بين الحزب والـ كي . جي . بي وللمرة الأولى أعرف أن الحزب لا يعلو فقط فوق الـ كي . جي . بي بل أيضاً فوق أسمى القوانين وأرفعها ، ومثالاً على ذلك : إذا كانت الميليشيا أو الـ كي . جي . بي تحقق في قضية ما وتبين بعد ذلك أن أحد أعضاء الحزب الرسميين أو أن فرداً من عائلته متورط فيها فسرعان ما تصدر

الأوامر بوقف التحقيق وإحالة القضية الى مجلس السوفيات الأعلى. وأذكر أنه أخبرني عن قضية تورط ابنة مسؤول رفيع في الحزب كانت عشيقة لضابط مخابرات غربي ولكن لم يكد يبدأ التحقيق في القضية حتى صدر الأمر بتجميده وإحالة القضية الى المجلس الأعلى. وكان من نتيجة ذلك صدور تعليمات تحظر المسّ بالدبلوماسيين بصفة عامة.

وبالعودة مجدداً الى تاريخ الـ كي. جي. بي فإن ثمة جهازاً يدعى «الشيكا» أنشىء في ٢٠ كانون الأول / ديسمبر عام ١٩١٧، واعتبر اليد الحارسة للحزب في مكافحة الانقلابات والتخريب، ترأس الجهاز فيلكس دزرزينسكي وهو بولندي الأصل. وقد تبين في ما بعد أن مراكز «الشيكا» كانت بإدارة مواطنين أجانب غير سوفياتيين، وكانوا خليطاً من تشيكيين وبولنديين وهنغاريين ويهود وفنلنديين وجنسيات أخرى. ونادراً ما كان بينهم سوفياتيون.

ولقد شرح لنا أساتذتنا في المعهد أن العديد من الشيوعيين قدموا الى روسيا من جميع أنحاء العالم للمساعدة في إقامة الثورة البلشفية. وركز الغرب عبر إعلامه المناهض على أن السلطة في الاتحاد السوفياتي هي بيد المافيا الشيوعية. وقد ثبت لي هذا الواقع. ففي الأسابيع الأولى بعد انقلاب تشرين الثاني / أكتوبر استبدل الحراس في بتروغراد الموجلين بحماية حكومة لينين بمسلحين من لتفيان، والمجيء بهؤلاء لم يتم لكونهم أكثر حرفة، وانما لاعتبارات أخرى، فالحراس البتروغراديون كانوا عمالاً سوفياتيين، وفي حين كانوا يدركون أن عليهم الحفاظ على الحكومة باعتبارهم حماتها تبين لهم أن أعضاءها يتكلمون اللغة الروسية بلكنة أجنبية، وكان أن انتشرت الشائعات بأن لينين استبدل وليس معروفاً من يتولى الحكم. وعندها جاؤوا بالمسلحين من لتفيان لحماية أجهزة الدولة وابتدأت موجة الشعارات من مثل: «نعم للسوفيات، لا للشيوعيين».

لقد سميت الثورة في روسيا ثورة روسية، وهذا صحيح. وعندما سقطت الملكية في شباط / فبراير ١٩١٧ كنا نتكلم عن ذلك الحدث باعتباره ثورة. أما الذين استولوا على السلطة في انقلاب تشرين الأول / أكتوبر فهم غرباء مدسوسون. واذا ما شك أحد في كون هذا حقيقة فإني أقترح مراجعة ملفات أعمال لينين التي نشرت في الثلاثينيات والكشف عن أسماء البلشفيين القدامى

في «المرجع السوفياتي»، وسيظهر أن الكثيرين منهم يحملون أسماء روسية مستعارة. وفي مدافن موسكو حيث دفن البلشفيون القدامى سيكون من الصعب على الزائر أن يجد اسماً روسياً واحداً.

ومما يثير الاستغراب انه منذ العام ١٩١٧ الى ما قبل مجيء ميخائيل غوربتشوف يلاحظ أن جميع الذين تسلموا سدة الحكم في الاتحاد السوفياتي لم يتحدروا من أصل روسي، ومن الممكن القول انه منذ تأسيس الدولة لم يؤت برئيس للجمهوريات السوفياتية أفضل من غوربتشوف.

في ربيع ١٩١٨ شكلت الدائرة الخارجية من أعضاء في «الفاشك»، وكان في طليعتهم مرتزق اسمه أكرمان، أما الآخرون فكانوا من الشيوعيين الدوليين الذين قاموا بنشاطات سرية في الدول الأوروبية وفي أميركا، والهدف الرئيسي من إنشاء هذه الدائرة هو تنظيم ودعم حركة العمال العالمية تحت شعار «ارفعوا أيديكم عن روسيا السوفياتية»، ومن خلال هذه الدائرة تسلل مسؤولون فيها الى مختلف الدول فاتصلوا بالاحزاب الشيوعية المحلية وأبلغوها تعليمات موسكو.

وكان على الشيوعيين في أرجاء العالم التقيد بمبادىء ماركس، وقد اعترف هؤلاء بالحكومة البلشفية في روسيا على أنها حكومتهم، ولذلك أصبحت روسيا مقراً للشيوعية العالمية. أما الهدف فكان تنظيم ثورة دائمة. ولكن هذا تطلب تقديم الأموال الداعمة في وقت كان فيه الاقتصاد الروسي يعاني من الانهيار، فاتجهت الحكومة البلشفية الى مصادر متعددة في أنحاء العالم لدعم الأحزاب الشيوعية، ولكن لم يكن من الممكن تقديم الدعم عن طريق المصارف، لذا لجأ أعضاء الدائرة الخارجية الى تسليم المال بواسطة الاتصالات الشخصية.

والى وقتنا الراهن فإن شيئاً لم يتغير في تسيير مثل هذه الأمور في الدولة السوفياتية، وسيكون هذا جلياً في ما سيأتي من فصول في هذا الكتاب.

«لا يمكن لضابط المخابرات أن يحقق نجاحاً إلا إذا أفشل مراقبة المخابرات العدوة التي تركزت عليه». لقد أولى المعهد أهمية كبيرة لهذا المبدأ، فتلقينا دروساً عن كيفية تنظيم المراقبة في الدول الرأسمالية مثل الولايات المتحدة وبريطانيا وعن كيفية إفشالها. كان اساتذتنا ضباطاً من القيادة السابعة للـ كي. جي. بي الموجهة بالمراقبة الخارجية، وكان الدرس الأول أن لا ندع المراقب يشعر بمعرفتنا بأمره. وبالتالي إشعاره باحترامنا باعتباره مدعواً للقيام بواجبه

في حماية بلاده، وقد جرت عدة حوادث في الماضي نتيجة لتصرفات غير مسؤولة أدت الى فضح هوية رجل المخابرات والى تحطيم سيارته إضافة الى تعرضه للضرب.

وعلى ضابط المخابرات أن يكون على معرفة تامة بالمدينة التي يعين فيها وأن يستكشف ويحدّد معالم الطريق التي سيسلكها قبل تنفيذه لأية عملية، وكذلك عليه اختلاق رواية لتغطية تصرفاته عند تجواله في المدينة، فإذا اتجه الى محطة للحافلات في شارع خالٍ من المارة على سبيل المثال يجب أن يكون انتظاره هناك هادئاً وأن يسمح لمراقبيه برؤيته في وضوح. وعند صعوده الحافلة عليه الوقوف قرب النافذة الخلفية بحيث يشاهد متتبعيه في سيارة المراقبة، ويجب أن يكون ذهنه يقظاً لتذكر ملامح الأشخاص وسماتهم وأنواع السيارات وأشكالها.

لقد عرض علينا فيلم يظهر فيه ضابط مخابرات في موسكو، كان تصرف الضابط فاضحاً إذ حاول إخفاء هويته فبدأ بربط شريط حذائه والنظر من خلف كتفيه ثم راح يستر وجهه بصحيفة، وبعد ذلك قفز من القطار قبل ثوان من غلق الأبواب. وكان المغزى من عرض الفيلم علينا إفهامنا أن لا نقوم بمثل هذه التصرفات المثيرة للافتضاح.

هذه الدروس النظرية تلتها مرحلة التطبيق العملي، فكان على التلميذ الاتجاه الى محطات القطار التحت أرضية في موسكو، وللتعريف عن هويته ـ بالنسبة لمراقبيه المكلفين من قبل المعهد ـ عليه حمل صحيفة أو مجلة بصرف النظر عما إذا كان ملاحقاً أم لا، بل عليه أن يكتشف الأمر بنفسه. وعند عودته الى المدرسة عليه كتابة تقريره عن ذلك، وبدورها فرقة المراقبة تقدم تقريرها، ومن ثَمَّ يصار الى تداول ومناقشة الموضوع وتبادل الآراء. وأذكر أني في المرة الأولى وضعت تقريراً عن عشرة أشخاص وأربع سيارات ملاحقة، واتضح فيما بعد أن شيئاً مما ظننت لم يكن له وجود، وغدوت حينها محل تندر واضحوكة لدى الزملاء، الأمر الذي دفعني فيما بعد الى إعطاء الموضوع جدية أكثر، ولكنني في نهاية المطاف تمكنت من الحصول على علامات متفوقة في المراقبة الخارجية.

ولكن النقص الكبير في درس المراقبة هو في قيادة السيارات التي لم تكن متوفرة نتيجة اعتبارها من وسائل الترفيه، وقد حصل الطلاب في أكثريتهم على

إجازات القيادة في المعهد، ولكنهم لم يتسلموها إلا عند انتهاء فترة الدراسة. وقد برهن الدبلوماسيون السوفيات على أنهم سائقون سيئون عند قيادتهم سياراتهم بعد الانتقال الى مراكز عملهم خارج البلاد.

انتهت السنة الدراسية في المدرسة ١٠١ بسرعة وتقررت فترة الامتحانات النهائية في تموز / يوليو ١٩٧٦، وقد قسمت الى قسمين: تطبيقي ونظري، وحدد مكان الامتحانات التطبيقية في «الفيلاّ» الواقة قرب محطة النهر في موسكو، وترتب علينا البقاء مدة عشرة أيام هناك. كان المكان شبيهاً بالمسكن في الخارج، وبدا لنا المجمع مثل سفارة. قمنا بعدة عمليات تطبيقية لما سبق أن تعلمناه، فعهد بعميلين اثنين لكل تلميذ كما كلف كل تلميذ بتنفيذ ما مجموعه تسع عمليات، وشملت العمليات التطبيقية مواعيداً لاجتماعات سرية، واستعمالاً لكلمات السر، والتحقيق بأمر المجند، وتبادلاً للمعلومات بالوسائل التقنية، إضافة الى تسليم المستندات يدوياً ونقل المعلومات شفهياً بطريقة خفية سريعة تحول دون رؤية المراقب لها.

كان يحتم علينا تمضية ثلاث ساعات قبيل المباشرة بالعملية نقضيها في دراسة خط سيرنا ومحاولة تجنب المراقبة، وهذه الأساليب لم يكن مسموحاً بها سوى في فترة التدريب، أما عندما تتحول العملية الى ممارستها واقعياً فيتحتّم على ضابط المخابرات التخلي عن عمليته في حال شكه بأمر الملاحقة والعودة على الفور الى مقر السفارة.

من البديهي حدوث أخطاء كثيرة مع العملاء. فقبيل أول اجتماع بقيت عن قصد تحت المراقبة مدة ثلاث ساعات، ولكن العملية ألغيت بعد ذلك لتأخري عن الاجتماع بالمجند، إلا أنه كان علي العودة الى الترتيبات السابقة المرادفة في النصف ساعة التالية، ولكن المجند أصر على معرفة سبب تأخري وعندما أعلمته بالمراقبة التي كانت مفروضة علي غضب ورفض متابعة الاجتماع. لم يكن من الضروري اخباره بأمر الملاحقة، وقد أخافه ذلك وأضاع علي فرصة حصولي على المعلومات التي بحوزته.

حادثة أخرى وقعت عندما أخبرني العميل الذي قام بتمثيل دور القنصل الوزاري في السفارة السويسرية أن السفير غادر في عطلة وقد أوكل اليه شؤون السفارة، فأخذت ذلك على محمل الصدق وتبيّن لي أن ذلك كان فخاً، وكان علي أن أسأله تزويدي برموز شيفرة السفارة التي ما كنت لأعرف شيئاً عنها. .

فمثل هذه الأمور لم يؤت على ذكرها خلال دراستي .

كذلك ترددت شائعات في «الفيلا» عن قيام الميليشيا «رجال البوليس» بإغارة على مركزنا . وهذا يعني إلقاء القبض علينا بتهمة القيام بعملية فنكون عرضة للاستجوابات والتحقيق وما يترتب على ذلك من تعذيب وضرب . وتبين فيما بعد أن الأمر قصد به أحد التلامذة وكان ريفيزوروف يشك بشجاعته . وقد احتجزه رجال الميليشيا لفترة وجيزة ثم أخلوا سبيله دون أن يمسوه بأذى .

وبانتهاء العشرة أيام وعند عودتنا الى المدرسة بدأت الامتحانات في الموضوعات الخاصة واللغات الأجنبية ، وقد اجتزتها بنجاح . أخيراً انتقلنا الى قاعة الاجتماعات حيث قدمت لنا التهاني لنجاحنا في الانتساب الى معهد الراية الحمراء التابع للـ كي . جي . بي ، بعد ذلك ابلغ كل فرد منا على حدة بالدائرة أو القيادة التي سيكون تابعاً لها . وقد الحقت بالقيادة «اس» . تلا ذلك شرب الأنخاب ، وقد أسرفنا في ذلك فرحنا مع اساتذتنا نعب الشراب غير آبهين لكمية ما نتناوله من الكحول .

في صبيحة اليوم التالي في السادس والعشرين من تموز / يوليو ١٩٧٦ غادرنا المدرسة نهائياً والدوار يلعب برؤوسنا .

الفصل الرابع

هيكلية (اس) ـ التقسيم الخاص ـ التنافس والفساد

في التاسعة من صبيحة أول أيلول / سبتمبر وصلت الى مكتب الـ كي . جي . بي في فوزكسوف التي سبق لي زيارتها ، ولكن هذه المرة بثقة أكبر وبصفة رسمية تخولني الدخول عبر الباب رقم (٥) .

وتجدر الاشارة إلى أن لمبنى الـ كي . جي . بي الرئيسي ستة مداخل ، الأول يسمح للشخصيات باستخدامه أيام المناسبات ، وفي الأيام العادية فيقتصر الدخول منه على رئيس الـ كي . جي . بي وأقرب مساعديه إضافة الى الزوار من ذوي المناصب الهامة . أما المدخل الثاني فهو مقفل بصفة دائمة ، والمدخلان الثالث والرابع فللعاملين في القيادات الداخلية ، فيما خصص المدخلان الخامس والسادس لضباط المخابرات وضباط القيادة العليا للقوات الأمامية ، ولم يكن محظوراً على العابرين خارج المبنى استعمال الرصيف المحاذي حيث يتوزع ثلاثة حراس تابعون للقيادة العليا التاسعة .

عند المدخل رقم (٥) كان في انتظاري الرجل الطويل الذي رافقني الى المبنى خلال زيارتي السابقة ، وقد عرّف عن نفسه باسم الكولونيل فالنتين ايفانوفيتش إيروفيف . اتجهت وإياه في الممر الى الشمال ومن بعد الى الغرفة ٧٠١ حيث كان يعمل شخصان آخران مع ايروفيف الذي بدأ يتودد إليّ بالحديث ، سألني عن أحوال العائلة وأيام العطلات ، ولم يَبْدُ على عجلة من أمره .

خلال وجودي في المدرسة ١٠١ تعرفت بفاليري ميسورادز وهو أحد التلامذة وابن الجنرال ميسورادز نائب رئيس مجلس ادارة الـ كي . جي . بي في جورجيا . وقد وعدني فاليري بقضاء أيام العطلة في بتسندا عند انتهائنا من المدرسة . وبتسندا منتجع دولي محظور ذهاب أي كان إليه ، ولكن أمر ذهابنا

الى هناك سيتم بتدبير من والده.

التقانا الجنرال في مطار سوشي وتناولنا الغداء على الشاطىء، وتوجهنا بعد ذلك برفقة سائق الجنرال الى بتسندا حيث استقبلنا قـائد الـ كي. جي. بي في الدائرة البلدية هناك.

«طال عمرك أيها الرفيق الجنرال».

«هل الأمور بخير هنا؟» سأل الجنرال.

«أجل».

«تدبر أمر صديقنا من موسكو ووفر له كل سبل الـراحـة». قـال الجنـرال وتابع شارحاً لنا أن المكان الأفضل هنـا هـو البقـاء في شقـة مستقلـة وليس في المنتجع نفسه، ويمكننا تناول وجبات الطعام في المطعم العسكري الذي يرتاده السكان المحليون حيث الأسعار فيه أقل بسبعين بالمئة مما هي عليـه بـالنسبـة للآخرين. بعد ذلك زودني بتصريح مرور دوّن عليه من الخلف بخط واضح: كي. جي. بي، وسارت الأمـور على أفضل مـا نشتهي.. طقس رائع وسكن مريح.

وفي أحد الأيام وكنا قد انتهينـا من تنـاول الطعـام دخل المطعم شـاب من جورجيا وكان عاملاً في المنتجع، وعندما طلب طعامه قيل له إنه قد تأخـر ولم يبق ثمة طعام، فانفجر صائحاً يتوعـد المرأة مـردداً أنـه من العـاملين وينبغي إطعامه قبل غيره، وراح يجول بنظره على الحاضرين ثم صاح بالمرأة وهـو يشير إليّ متسائلاً عن سبب تناولي الطعام رغم أني لا أعدّ من الموظفين في المنتجع.

حاولت المرأة تهدئته قائلة انه من الـ كي. جي. بي فرد مهتاجاً: «فلتذهب الـ كي. جي. بي الى الجحيم.. من يظنـون أنفسهم؟ ومـاذا تفعل الـــ كي. جي. بي بطعامي؟».

وعندما عرف فالنتين ايفانوفيتش لاحقاً ما حدث نظـر إلي متنهـداً وقـال: «ماذا توقعت، هل تعتقد أن لفظة كي. جي. بي ستأتيك بنتائج سحرية؟.. لا تستغرب، فبعد حين ستلمس حقيقة ما يجري».

أبلغني ايروفيف مؤكداً أنه يجب أن لا يعلم أحد باستثنـاء عـائلتي طبيعـة عملي، وأضاف مطمئناً أن وزارة الخارجية ستدعم رواية عملي الـذي أدّعيـه.

وقد أعطيت صفـة رسمي في وزارة الخارجيـة في لجنـة ادارة السكن التي تشرف على مجموعة من المنازل إضافة الى كونها مسؤولة الارتباط تجاه السلطات المحلية بما فيها الشرطة. أما جيراني في المنطقة فقد روعيَ أن أكـون «الـدبلـومـاسي» في نظرهـم، وذلك لإضفاء صفة مـا على وضعي واعطـاء مبرر مقنع لـلآخـرين. كذلك ذكر ايروفيف ان اسمي سيدون في اللائحة الخاصة بمسـؤولي الـ كي. جي. بي وهي خارج نطاق وصلاحيات الجيش.

بعد انتهاء هذه الترتيبات بيّن لي ايروفيف أن عملي سيكون في القسم السابع للقيادة (اس) ورافقني الى الغرفة ٧١٤ حيث التقيت شخصين هناك: فالنتين ميخالوفيتش بيسكونوف وكان رئيس الفرع وروستيسلاف كوزلوف، لم يذكر لي أحدهما شيئاً عما يجب علي عمله، وقد عرفت أن هذا القسم كان مسـؤولاً عن ايران وافغانستان وتركيا. جلست أتأمل الغرفـة. كـانت صغيرة فيهـا نـافـذة واحدة وأربع طاولات أسندت الى الحائط وعلقت فوق إحداها خريطـة صغيرة الحجم للشرق الأدنى. غادر بيسكونوف الغرفة ثم عـاد سـائلاً كـوزلـوف عن أحدهـم ويدعى «كونارد» ثم غادر مجدداً. كان كوزلوف في الخمسين من عمره وبدا شخصاً هـادئاً وديعـاً ولكن بنظـرات حـادة، وبـدا لي لأول وهلـة كأنـه كاهن، وقد فوجئت في ما بعد عندما علمت أنه عمل في الشرق الأدنى متنكراً بصفة سكرتير للكنيسة الارثوذكسية الـروسيـة، وقـد نـال عـدداً من الأوسمـة تقديراً لخدماته.

خضعت الكنيسة الارثوذكسية في الاتحاد السوفيـاتي لضغـوط من السلطـة فطلب منها تعيين بعض العملاء من القيادة (اس) في ارسـاليـات بلـدان مثل «اسرائيل» التي لم تكن مرتبطة بأية علاقة مع الاتحاد السوفياتي، ولكن الكنيسة من ناحيتها رفضت إعطاء صفة طاهٍ لموظف في الـ كي. جي. بي.

خلال فرصة الغداء توجهت وبيسكـونـوف الى المطعم العسكـري، فـراح يـزودني بمعلـومـات عن المكـان: القيـادة (اس) تشغل الطـابقين السـادس والسابع من المبنى، والقائد الأعلى للقوات الأمامية مقره في الطـابق الخامس، ورئيس مجلس ادارة الـ كي. جي. بي يحتل الطابق الرابع، إلا أن الدخـول الى هناك ليس مسموحاً سوى للنخبة. أما القيادة العليا التاسعة الموكلة بـالحمايـة الشخصية فكانت في الطابق الثالث، وفي الطابق الثاني كانت القيـادة العليـا الثالثـة الموكلة بمكـافحـة التجسس في الجيش، وشغلت الخدمـات الاداريـة

الطابق الأول، وانفرد المطعم في الطابق الخامس، ويتم اختيار أنواع الأطعمة بموجب اللائحة وتسدد القيمة بالدفع نقداً مقابل إيصال، وكانت الخدمة ذاتية والطعام جيداً.

فجأة التقيت كورزينكوف القوقازي وقد سبق أن التقيته في مقر الـ كي. جي. بي والذي يتكلم الفارسية بطلاقة، سألني عن سبب وجودي في غير المكان الذي خصص لي قائلاً: «لقد سبق وحجزنا لك مكتباً، وها أنت هنا». أجبته: «ولكن مديرية الكادرات ارسلتني الى الغرفة ٧١٤ هذا الصباح». اتسعت عينا كورزينكوف وقال: «حسناً، سنسوي الأمور بعد الغداء».

لاحقاً، في الغرفة ٧١٤ وفيما كنت وبيكونوف جالسين دخل كورزينكوف وطلب مني بتهذيب انتظاره في الممر بينما أخذ بالتحدث مع فالنتين ميخالوفيتش. وبعد خمس دقائق فتح الباب وسألني إذا كانت بحوزتي أية أمتعة وطلب مني مرافقته، وقد عرّف عن نفسه هذه المرة بأنه اسماعيل مرتزيفيتش عليف رئيس الفرع الشرقي في القسم الثاني في القيادة (اس) وهو برتبة كولونيل، ثم أبلغني بأمر تعييني وقد كان في القسم الثاني منذ البداية ولكن بيسكونوف شخص بدون ضمير «وقد أخفى الأمر عني فاستحق مني بعض العبارات».

لم أعرف أية تفاصيل عما جرى مع إدراكي أن عليف يقول الحقيقة. بعدها نزلنا السلم الى الطابق السادس، فدخلنا الغرفة ٦٠١ وكانت أكثر اتساعاً من الغرفة ٧١٤. في الداخل رصفت ست خزائن حديدية على جوانب الجدران وخمس طاولات على مقربة منها، وكان ثمة نافذة تطل على ساحة دزيرزينسكي وضعت عليها شبكة من الخارج بداعي تهوئة الغرفة من حرارة الصيف وأيضاً للحؤول دون تكرار ما وقع سابقاً، إذ حدث منذ عدة سنوات، وعلى اثر فتح الأبواب في المبنى نتيجة الحر الشديد، أن دخل تيار هوائي فجرف أوراقاً سرية من مكتب في الطابق الثالث، وتسربت من النافذة المفتوحة، وانتهت الى الرصيف في الخارج، مما أفقد الموظف المسؤول صوابه فشهر مسدسه وراح يصرخ بالمارة في الخارج يحذرهم من لمس الأوراق.

كان هناك جهاز تبريد واحد في المبنى وضع في مكتب رئيس الـ كي. جي. بي.

في الغرفة ٦٠١ جلس ثلاثة أشخاص آخرون إضافة الى عليف، وقد

تعرفت على أحدهم ويدعى سيرجي براوسيف وكان في المعهد الآفرو آسيوي، وفياشيسلاف موسيكين وهو خريج معهد العلاقات الدولية وكان قد درس اليابانية، وفلاديمير ناليتوف وهو يتقن العربية.

كان جو العلاقات المخيم في الغرفة ٦٠١ حميماً وجدياً يسوده منطق العمل، وكان التعامل مع اسماعيل مريحاً وخالياً من القيود التي تفرضها علاقة رئيس بمرؤوسيه، وبدا الرجل بما لديه من خبرات وتجارب كفيلسوف شرقي، وقد كرس نفسه لاحتواء أية مشكلة مهما كان حجمها، وسبق له أن أتمّ دراسته للغة الفارسية في جامعة باكو، وساعده على ذلك كونه من تاليش وهي المنطقة الواقعة على الحدود الايرانية، وسبق له أن قام بثلاث مهمات في ايران ولكنه اضطر للمغادرة بعد تعرضه للضغط من قبل جهاز الشرطة السرية الايراني المعروف باسم «سافاك».

وقد بدأت عملي في القيادة (اس) بالتعرف على بنيتها وهيكليتها، إذ أن كل ما تعلمته في المدرسة ١٠١ عن المخابرات اللاشرعية كان عن ماضيها، وذلك بأنها كانت المعتمدة دون غيرها أيام البولشفيك بعد إغلاق السفارات وقطع العلاقات الدبلوماسية، ولهذه الأسباب وجدت الدائرة الدولية «شيكا» المؤلفة من شيوعيين دوليين خبراء في العمل السري ومدعومين من قبل الأحزاب الشيوعية الأجنبية، ولقد استمر هذا الوضع حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وبعد ذلك توجه الاهتمام الى إنشاء السفارات السوفياتية، فيما بدأت المخابرات اللاشرعية بالتراجع ومن ثم لتختفي من الواجهة.

القسم الأول: المركز اللاشرعي، وقد عمل فيه جماعة من ذووي الخبرة العالية ألقيت على عواتقهم مهمات خاصة ذات أهمية.

القسم الثاني: الأرشيف، ومهمته تحضير المستندات وتلفيق الروايات للتغطية، وهو القسم الأكبر ويشبه بتركيبته الصغيرة بنية القيادة (اس)، لكونه موزعاً على عدة أقسام جغرافية ومختصة، فالقسم الألماني يشمل كل دول اوروبا الغربية ما عدا ألمانيا الغربية، بينما شمل قسم الانجلوفون الولايات المتحدة وكندا والكومنولث البريطاني بما فيها المملكة المتحدة، وغطى قسم امريكا اللاتينية جميع دول أميركا الجنوبية. أما القسم الصيني ولغاية عام ١٩٧٨ فقد غطى الصين بشكل خاص ومن بعدها اليابان ودول جنوب شرقي آسيا.

ويتلقى قسم المعلومات العديد من الاخباريات عن مختلف الاجراءات

والمستندات في كل البلدان والتي تجمع بطريقة يتعذر معها عدم الاجابة عن أي سؤال قد يطرح حول أي موضوع في أيٍّ من البلدان. أما القسم التقني حيث يعمل المزورون المحترفون حيث يتم تغيير أي مستند دون أن يكشف أمره أكبر الخبراء، وفي تلك الفترة كان ثمة أربعة مزورين محترفين يعملون في هذا القسم وضع بتصرفهم كل ما يلزم بها في ذلك المكان الذي كانت تطبع فيه العملة السوفياتية. وبالرغم من ذلك فنادراً ما استعمل الـ كي. جي. بي مستندات مزورة.

وتولى القسم الثالث في القيادة (اس) اختيار العناصر وتدريبها، وكانت مهمة موظفي هذا القسم العثور على الأشخاص المناسبين بغية تجنيدهم للقيام بالادوار غير الشرعية وكانوا يلجأون من أجل ذلك الى التلامذة في معاهد التعليم العالي التي تدرس اللغات والمواضيع الأخرى. ومثالاً على ذلك أذكر تساركوف مساعد المدير في المعهد الآفروآسيوي، فقد كان من الـ كي. جي. بي وكان دوره آنذاك مراقبة التلامذة عن كثب للاختيار منهم. وتبين لي لاحقاً أنه ضابط في القسم الثالث في القيادة (اس).

ومن جهة أخرى يعمل القسم الثالث على إبقاء العلاقة متينة مع الـ كي. جي. بي في مختلف الجمهوريات.

وهنالك فروع خاصة في القسم الأول تختار وتدرس حالات المرشحين للتجنيد، وتعطى الأولوية الى الأقليات الوثنية التي انتقلت الى الاتحاد السوفياتي من البلدان المجاورة، وعلى الأخص من آسيا واوروبا.

أما القسم الرابع، الجغرافي، والذي يغطي الولايات المتحدة وكندا واميركا اللاتينية فيقع على عواتق الضباط فيه تأمين الأجواء اللازمة للعملاء اللاشرعيين في تلك البلدان، وبمعنى أدق استمرارية الاتصال بهؤلاء العملاء سراً.

القسم الخامس: دول اوروبا الغربية.

القسم السادس: الصين، اليابان، ودول آسيا الجنوب شرقية.

القسم السابع: دول شمالي افريقيا الغربية ودول الشرقين الأدنى والأوسط.

القسم الثامن: تنفيذ العمليات، وكانت سابقاً قسماً متخصصاً قائماً بذاته

ولكنه تحول ليكون تحت اشراف رئيس الـ كي . جي . بي ويسمى القسم (تي) . ودوره تصفية العناصر المشبوهة . أما «العمل الرطب» وهو تعبير استعمله الغرب في وصفه لأعمال هذا القسم فغير موجود في قاموس الـ كي . جي . بي فتصفية العناصر كانت مدرجة تحت عنوان «العمل المباشر» .

إضافة الى ذلك ألقيت على عاتق هذا القسم مهام القيام بأعمال تخريبية في الخارج في حال نشوب الحرب بما في ذلك اغتيال الشخصيات الحكومية والقادة العسكريين وتدمير محطات التوليد ووضع السموم في خزانات المياه . وقد حظي هذا القسم بامتيازات عديدة فعلتْ مراتب ضباطه عشرين بالمئة عن أفراد القيادة العليا في الـ كي . جي . بي . ولكن في سنة ١٩٧٢ أوقف نشاط القسم (في)، وذلك للأسباب الثلاثة الآتية :

١ ـ انفراج العلاقات بين الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي .

٢ ـ تنبّه القادة السوفيات الى تزايد المعارضين السياسيين في الغرب وفي داخل الاتحاد السوفياتي واستحالة تصفيتهم جميعاً .

٣ ـ لجوء أوليغ ليالن قائد القسم الى بريطانيا سنة ١٩٧١ وفضحه لأسرار كثيرة .

وعلى الأثر استُدْعي ضباط القسم من جميع أنحاء العالم وتم إلحاقهم بالقسم الثامن في القيادة (اس) في الاقسام الجغرافية . وكانت مهمة هذا القسم التخطيط للحروب وتدريب ضباط الـ كي . جي . بي واللاشرعيين على أعمال التخريب، غير أنه عُمل على خفض الأجور من ثم إلحاقهم بالقسم الثامن الى مستوى ما كان يتلقاه الضباط في القيادة (اس)، وباندلاع الحرب في أفغانستان عاد الى هذا القسم دوره النشط .

القسم التاسع : الأمن، ومهمته تأمين الحماية للعملاء اللاشرعيين خلال قيامهم بمهماتهم، وكذلك ملاحقة تطور الأحداث والتدخل في حال حدوث أمر ما، ولذا فقد كان هذا القسم غير ظاهر في العلن .

القسم العاشر: أنشطة المخابرات على الأراضي السوفياتية، ومهمته تجنيد التلاميذ الأجانب في الاتحاد السوفياتي لاستخدامهم في دعم المخابرات اللاشرعية .

كما أن ثمة فصائل خاصة في القيادة (اس) ينضوي تحت لوائها عاملون بمسميات مختلفة مثل: اللاشرعي، العميل اللاشرعي، العميل الخاص.

اللاشرعي: مواطن سوفياتي بالأصل وضابط عسكري في الـ كي. جي. بي تمرّس في تدريب خاص وسجل على أساس أنه مواطن من بلد أجنبي. يتم اختيار هؤلاء من قبل المسؤولين في القسم الثالث للقيادة (اس) وذلك تبعاً لحسن مظهرهم ومعرفتهم للغات وانتمائهم للمجموعات الوثنية (الملحدة)، وعادة ما يترشح العشرات للانتساب ولكن بضعة أشخاص فقط يحققون نجاحاً.

بعد توفر الشروط اللازمة يعرض على المجند العمل في جهاز الـ كي. جي. بي وفي حال قبوله يصار الى إعلامه أنه مرشح ليصبح «لاشرعي». وبقبوله الأمر يبدأ بالتدريب الخاص بعد إنهائه الدروس في المعهد وتتراوح مدة ذلك بين الأربع والست سنوات، ويتم التركيز على اللغات لمدة أربع سنوات ليصبح قادراً على تكلم اللغة بطلاقة وكأنها لغته الأصلية، وبعدها يعمل على تحسين لغته العملية، فإذا أعطي اللاشرعي، مثلاً، صفة رجل انجليزي الأصل وكلف بالعمل في فرنسا فعليه تعلم الفرنسية ومن ثم اللكنة الانجليزية.

وعند بدء التدريب يصار الى استبدال الاسم الأول للمرشح، ويعطى مستندات جديدة وتلفق له رواية عن تاريخ حياته، ويسرع بعد ذلك بالتأقلم لخلق شخصية جديدة لإنسان آخر ومختلف، وتخصّص له شقة في موسكو، غير أن صلته بالـ كي. جي. بي توقف بصورة نهائية، فيحرم من زيارة المبنى أو الاطلاع على هيكلية أو تنظيم العمل في الجهاز. فما لا يعرفه لا مجال لإفشائه في حال القبض عليه.

ويشمل التدريب البث على راديو الارسال والتقاط الموجات وكتابة وتحليل الشيفرة وكتابة التقارير والعمل على تجنيد العناصر. ويوضع المرشح تحت مراقبة دقيقة لتحركاته وتصرفاته كافة، وتجهز شقته بوسائل التنصت وأجهزة المراقبة، ويصار الى تحليل كل خطوة يقوم بها، كما يصار الى وضع (الطعم) المتمثل بنصب أشخاص معينين يلتقيهم خلال تحركاته اليومية وهم مكلفون بذلك من قبل القسم الثالث حيث يفرض على كل ضابط في القيادة (اس) التعاون مع القسم الثالث لتدريب هؤلاء اللاشرعيين.

عندما حان دوري لـلاشتراك في اللعبـة أُخبر المرشح أنني مسـؤول في وزارة الخارجية وانني متهم بنشر الأدب المناهض للأدب السوفياتي. وكـان عليـه أن يلتقيني مصادفـة في مقهى غير بعيـد عن الـوزارة. جـرى ذلك بشكل طبيعي ونشأت بيننا علاقة ود وصداقة، وعند رفعه التقريـر لمرؤوسيـه نفي وجـود أيـة شبهة علي. وبدوري كضابط في القسم الثالث كان علي رفع تقرير وتحليل مـا ورد في تقريره، وبعدها يصار الى اتخاذ ما يلزم.

مع مرور الوقت تأخـذ وسـائل الفحص بـالنسبـة للمـرشح منحنىً بـالغ التعقيد وتوكل لامرأة دراسة ردة فعلـه حيـال الجنس الآخـر. وذات مـرة أرسل أحـد المرشحين الى بـاكـو بصفـة سـائح كنـدي، وهنـاك تجمهـر من حـولـه الأصدقاء، وحين توجب عليه العـودة الى الفنـدق في السـاعـة الحاديـة عشرة لتسلم رسالة بالراديو طُلب من «الأصدقاء» وهم من رجال الـ كي. جي. بي تضييق الخناق عليه ومنعه بأيـة وسيلـة من العـودة الى الفنـدق، فعملـوا على دعوته الى وليمة عشاء فاخرة انتقلوا بعدها الى فيلاّ خارج المدينة، وكلما حـاول المرشح الاعتذار للمغادرة جوبه بأن ذلك سيعتبر منـافيـاً للتقـاليـد الشرقيـة، وبالتالي فتصرفه على هذا النحو سيكون إهانة واضحـة وهـو منـاقض لأصـول الضيافة. وعند حلول الظلام طالبهم المرشح من جديد بإعادتـه الى الفنـدق، ولكنهم تظاهروا بالسكر. وحار في أمره. ولما لم يتمكن من ايجاد وسيلة تخرجـه من مأزقه انهار وراح يتكلم بالروسية مردداً أنه من الـ كي. جي. بي وأن عليـه العودة فوراً الى المدينة... وكان من الطبيعي أن يتم فصل ذلك المرشح.

عند اقتراب فترة التدريب يبدأ البحث عن هوية «اللاشرعي»، وكما ذكرت من قبل فإن المطلوب هو استعمال المستنـدات الحقيقيـة، وعنـدهـا ينبغي على قسم الأرشيف في القيادة (اس) التنقيب في ملفات التسجيل للبلـد المطلـوب والعمل على تجنيد عميل هناك بمقدوره تزويدهم بما يلـزم، ولكن هـذا الأمـر يتوقف على النظام المعمول به في دائرة التسجيل في ذلك البلـد. وهنـاك عـدة طرق للحصول على الهوية، وهي إما أن يتم انتحالها عن شخص متـوفى يقـوم عميلنا المجنـد بعـدم تسجيل استمارة وفـاتـه في بلـده الأصلي، وإمـا بتجنيـد أحدهم في تلك البلاد ومن ثم نقله الى الاتحاد السوفياتي، ويكون ذلك برضـاه والاتفاق معه لمدة طويلة، ويعمل على وضعه تحت مراقبة دائمة. وعلى أساس تزويد اللاشرعي بالهوية المنتحلة بعد أن يلم بكل تفاصيل حياة بديلـه كأسماء الأشخاص وعناوينهم ومعرفة معالم المدن والشوارع والمنازل، وذلك بـاعتبـاره

مقيماً هناك، وقد يتطلب الأمر لبلوغ ذلك شهوراً عدة أو حتى سنوات من العمل المضني.

وعند الانتهاء من وضع مجمل الترتيبات يرسل «اللاشرعي» بطريقة شرعية، مستعملاً كما هي العادة في السفر مستندات مزورة ويتجه الى بلد ثالث بعد الاتحاد السوفياتي حيث يكون في انتظاره مسؤول من القيادة (اس)، ويقوم هذا الأخير بتسليمه المستندات الرئيسية التي أعدّت لتناسب شخصيته البديلة. وبعدها يتجه «اللاشرعي» الى البلاد المطلوبة.

كما أن هناك وسائل أخرى لتسريب «اللاشرعي»، وذلك عن طريق إعطائه هجرة قانونية أو نقله براً من دولة مجاورة أو حتى تسهيل هروبه من الاتحاد السوفياتي وجعل الأمر يبدو حقيقياً.

لم تكن القيادة العليا للـ كي. جي. بي مستعدة للتخلي عن حقوقها كافة لمصلحة القيادة (اس) أو إعطاء موافقتها على كل عمل تقوم به، علماً أن ذلك هو الاجراء الأكثر أماناً. لقد كان ذلك أحد أوجه العداء بين الأقسام. يضاف الى ذلك الإلحاح على الـ كي. جي. بي من قبل اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي: «يجب أن لا يؤثر نشاطكم سلباً على السياسة السلمية الخارجية للاتحاد السوفياتي»، ويعني هذا أنه في حال فشل عملية ما للـ كي. جي. بي. أو بروز فضيحة سياسية فإن اللجنة التنفيذية لن تكون متهاونة في تصرفها مع ضباط المخابرات، فالفشل في بلد تتواجد فيه بطريقة شرعية ويؤدي الى طرد دبلوماسي سوفياتي خارج البلاد هو أمر مختلف عن الفشل في بلاد تتواجد فيها بطريقة غير شرعية. فعمل المخابرات يتم في العادة تحت تغطية التمثيل الدبلوماسي، وهذا دافع معروف يتبعه العديد من الدول. أما عندما تستعمل المخابرات مستندات دولة أخرى فإن الأمر يكون في غاية الخطورة، وبالتالي فإن المتورط قد يطرد من الـ كي. جي. بي. بدون أي تعويض، ويصل الأمر الى حد اتخاذ اجراءات قانونية ضده.

لهذه الأسباب يركز القسم التاسع جهوده لتفادي أية أخطاء، وذلك بانتهاج غاية الحذر وتقليص إمكانية التعرض للخطر الى حده الأدنى، ومن ناحية أخرى يخضع «اللاشرعي» لتمضية فترة زمنية طويلة في تحضير رواية ملفقة عن حياته وتنظيم شؤونه العملية الخاصة وتجواله في مختلف أنحاء العالم، لذلك فإن هؤلاء «اللاشرعيين» لا يزودون المخابرات بالكثير من الأخبار

والمعلومات.

العميل اللاشرعي: من الممكن أن يكون من المواطنين السوفيات أو من الأشخاص الأجانب، ولكنه ليس ضابط كي. جي. بي ولا يحمل صفة عسكرية، وقد أدخل في جهاز المخابرات ليقوم بمهمة واحدة معينة. والعميل الشرعي يحمل سجلاً لمواطن من دولة أجنبية ويخضع لتأهيل خاص شبيه بتدريب اللاشرعي وتسري عليه أيضاً المواصفات السابقة ذاتها، والفارق الوحيد هو أن العميل اللاشرعي يعود الى استئناف حياته المدنية، بينما يبقى الشرعي موظفاً في الـ كي. جي. بي.

العميل الخاص: وهو الأجنبي الذي توظفه الـ كي. جي. بي ويخضع لتدريبات خاصة في الاتحاد السوفياتي ويعمل في بلاده مستعملاً مستنداته الخاصة، وهو ليس ضابط كي. جي. بي ولا يملك أية صفة عسكرية. ويختار من بين العملاء الموثوق بهم أو ممن يجندون خصيصاً عن طريق القيادة (اس) سواء تم ذلك داخل أو خارج الاتحاد السوفياتي، وجل هؤلاء من طلاب الجامعات من ذوي المبادىء اليسارية المتعاطفة مع السوفيات، وهم غالباً ما يكونون مناسبين لأدوارهم، وتقوم القيادة (اس) باختيارهم ويتم تجنيدهم ببراعة تمكنهم من اختراق أي هدف يطلب منهم بما في ذلك أجهزة مخابرات الأعداء.

يتم تأهيل هؤلاء بتأنٍ بالغ، فيرسل المجند منهم سراً الى موسكو ليتلقى تدريباً يمتد لفترة عام حيث يجري تعليمه أساليب التجسس وطرق ومواضيع المخابرات ويعمل على شحن عاطفته تجاه السوفيات على نحو ايجابي.

بعد التأهيل يرسل العميل الخاص الى بلاده أو الى بلاد العدو الرئيسي (الولايات المتحدة)، وتختلق رواية مناسبة لتغطية أسباب غيابه عن البلاد طيلة تلك المدة، كما توفر له كل المبررات والاحتياطات اللازمة بحيث لا يتسنى لأحد معرفة زيارته الاتحاد السوفياتي.

إضافة الى تلك الفصائل فإن ثمة فصيلة أخرى يقال لها «عملاء الدعم» وافرادها هم ضباط موجودون أصلاً في الجهاز. ومهمة هؤلاء توفير المستندات الضرورية وابتكار أساليب التغطية وتوفير الشقق.

في سنة ١٩٧٦ ترأس القيادة (اس) الجنرال كيريبيشنكو وهو من خارج

سلك القيادة ولم يسبق له التدريب فيها، ولكنه كان صاحب سجل شيق، وقد أُتي به من القسم الثامن عشر في القيادة العليا للـ كي. جي. بي المختص بشؤون الدول العربية وسبق له أن كان مواطناً مصرياً للـ كي. جي. بي خلال فترة تدهور العلاقات مع السادات. وكان كيريبيشنكو حينذاك قد علم من مصادر مطلعة أن السادات يخطط لطرد المستشارين السوفيات من مصر، وذلك من طريق أحد مصادره سامي شرف الذي كان رئيساً للمخابرات المصرية في ذلك الوقت. ولكن كيريبيشنكو أصيب بالدهشة لعدم اتخاذ أي تدبير حيال مسألة على هذا القدر من الأهمية رغم إخطاره المسؤولين في المركز بمعلوماته، وبدلاً من ذلك راح المركز يطلب المزيد من المعلومات عن وضع المخابرات في مصر.

والواقع أن فلاديمير ميخايلوفيتش فينوغرادوف وهو السفير السوفياتي في مصر رفع في الوقت نفسه الى مجلس السوفيات الأعلى تقريراً مغايراً لتقرير كيريبيشنكو، وبالتالي أقنع موسكو بنية السادات متابعة واستمرار العلاقات الوطيدة مع الاتحاد السوفياتي. في هذا الوقت استمر توارد المعلومات من العملاء وراح كيريبيشنكو بدوره ينقلها محذراً، ولكن تحفظ السفير وإصراره جعلا اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي على ثقة أكبر بصحة تقاريره، وذلك لكون السفير عضواً في المجلس الأعلى للحزب.

بعد اجتماعه الى السفير فينوغراف وتأكيده الشخصي على استمرار العلاقات الودية بين مصر والاتحاد السوفياتي أعلن السادات في ١٨ تموز / يوليو خلال إحدى خطبه عن طرد جميع المستشارين والخبراء السوفيات من مصر.

عندئذ أصدر كوسيغين وهو رئيس مجلس الوزراء حينذاك توجيهاته بترقية (المواطن المخابراتي) الى رتبة جنرال وتقليده مركزاً قيادياً في الادارة، وبذلك غدا كيريبيشنكو رئيساً للقيادة (اس). أما السفير فقد أعيد ال موسكو وعين في منصب نائب وزير العلاقات الخارجية، دون اتخاذ أي اجراء لمحاسبته ـ فنحن لا نعاقب أعضاء المجلس الأعلى.

خلال عملي مع قيادة (اس) استعملت تصريح مرور لمدة شهر، إذ ان تحضير هوية دائمة لعضو في الـ كي. جي. بي يستغرق وقتاً طويلاً ويمر بكثير من الاجراءات، تبدأ بأخذ صورة فوتوغرافية باللباس العسكري في

استوديو الـ كي. جي. بي، ورغم أن رجال الـ كي. جي. بي لا يرتدون بذلة عسكرية في الظاهر فإن عليهم ارتداءها عند التصوير، ومن ثم ترسل الصور الى قسم الكادرات، ويصار الى إصدار البطاقة وهي حمراء مستطيلة الشكل طبع في وسطها بلون مذهب «الاتحاد السوفياتي»، وتحت ذلك «جهاز الأمن القومي لمجلس الوزراء السوفياتي»، والى يمين الصورة تفرد أسطر لتثبيت الإسم الأول واسم الأب والعائلةإضافة الى الرقم المسلسل والرتبة. كما أن هناك بطاقات ذات لون رمادي تعطى لضباط الدرجة الثانية من رتبة كابتن، أما البطاقات ذات اللون الأحمر الفاتح فتعطى للضباط الكبار من رتبة مايجور منشّاة بمادة شفافة تقيها من التزوير.

سُجل على بطاقتي:

الرتبة: ملازم

الدرجة: اداري ـ درجة ثانية

وتعتبر الدرجة في الـ كي. جي. بي أهم من الرتب العسكرية، وترتيبها كما يلي:

اداري درجة أولى: رتبة لا تعلو عن ملازم أول

اداري: كابتن

اداري درجة أولى: مايجور

مساعد رئيس قسم: ملازم كولونيل

مساعد أول لرئيس القسم: كولونيل

رئيس الفرع: كولونيل

نائب رئيس القسم: كولونيل

رئيس قسم في القيادة (اس): كولونيل ـ في القيادة العليا للـ كي. جي. بي: جنرال

القائد الأعلى للقيادة (اس): جنرال ـ القيادة العليا للـ كي. جي. بي: ملازم جنرال

نائب رئيس الـ كي . جي . بي : كولونيل جنرال

رئيس الـ كي . جي . بي : جنرال عام

ويصار الى التعيينات وفق سجل العمل . وعند اعطاء الرتب يعتمد عامل القدم في الخدمة . فالمدة الفاصلة بين تعيين ملازم أول وملازم ثانٍ هي سنتان، وبين ملازم أول والكابتن والمايجور ثلاث سنوات، وبين المايجور وملازم كولونيل وكولونيل أربع سنوات . أما رتب الجنرالات فتعتمد على المناصب دون اعتبار لعامل القِدَم في الخدمة .

ويعتبر راتب المسؤول في الـ كي . جي . بي جيداً قياساً بالمستوى المعيشي في الاتحاد السوفياتي، حيث راتب الفرد في حدّه الأدنى مئة وخمسون روبلاً، ويقبض الضابط الاداري من الدرجة الثانية مئتين وخمسين روبلاً راتباً شهرياً إضافة الى عشرة روبلات بدلاً لرتبته العسكرية وعشرة بالمئة زيادة على راتبه مقابل معرفته لغة غربية وعشرين بالمئة لمعرفته إحدى اللغات الشرقية، كما يحصل على ستين روبلاً عند الترقية . وبذلك يكون راتب كل من الكولونيل والمساعد الأول لرئيس القسم في حدود الستمائة روبل شهرياً .

غير أن ضباط الـ كي . جي . بي من ناحية أخرى، لا يتمتعون بأية امتيازات، فلم تخصص لهم محلات لشراء احتياجاتهم بأسعار مخفضة، كما لم توفر لهم تسهيلات لامتلاك سيارة قبل سواهم، باستثناء بعض الجنرالات، إذ تعطى الامتيازات لأولئك المختارين بدقة من قبل اللجنة التنفيذية للحزب . لذا، فان معظم العاملين في الجهاز غير مستثنين من الوقوف في الطابور لشراء احتياجاتهم مثلهم في ذلك مثل غيرهم من الأشخاص العاديين، وإلا فما عليهم إلا اللجوء الى السوق السوداء . وقد اضطر الجميع من دون استثناء للانغماس في هذه الفوضى والتورط في الأمر .

ومن الناحية الأخرى فقد كانت ثمة أمور تجري في الخفاء . فوالدة أحد زملائي الضباط كانت مديرة لأحد محال التموين الكبيرة في إحدى ضواحي موسكو، وكنت أقصد المكان برفقة الزملاء في المكتب، وقد تناوبوا على الركوب معي في سيارتي إذ كنت الوحيد الذي يمتلك سيارة في الفرع، وكان سبق أن اشتريتها عند عودتي من ايران . لم تكن المواد تظهر بكثرة في المحل، كما لم تكن أنواع اللحوم والنقانق المعروضة جيدة، باستثناء الكافيار . ولكن سرعان ما اكتشفت أصنافاً من المأكولات والمواد الغذائية الجيدة في القاعة

السفلى من المحل. وحين سألت عن السبب في حجب هذه المواد والاحتفاظ بها بعيداً عن الانظار أجابت السيدة: «لو توقف الأمر علي لما ترددت في عرضها الآن، ولكن اللجنة المحلية للحزب هي التي تمانع، وذلك بقصد الاحتفاظ بهذه المواد للمسؤولين وعائلاتهم».

بعد فترة تسلمت بطاقتي من قسم الكادرات كضابط في الـ كي. جي. بي وقد غمرني الشعور بامتلاكي السلطة للوهلة الأولى، مثلي في ذلك مثل سائر الضباط الذين ظنوا أنه بمجرد إبراز البطاقة تفتح الأبواب وتحلّ العقد فيما يشبه السحر. ولكن التعليمات جاءت صارمة من الضابط المسؤول عن الموظفين بعدم إبراز البطاقة لأيٍّ كان وعلى الأخص لأعضاء الميليشيا، وبالتالي الحرص على عدم افتضاح أمر ضابط المخابرات. ولكن الأسباب كانت غير ذلك، فقد كان العداء على أشده بين الـ كي. جي. بي والميليشيا من جهة، وبين شيلوكوف وزير الداخلية واندروبوف رئيس الـ كي. جي. بي من جهة أخرى، وقد دسّ الأخير العديد من العملاء في صفوف الميليشيات بغية السيطرة عليها مما لم يَرُق لشيلوكوف الصديق المقرب من بريجينيف والدي أقنع الأخير بضرورة جعل الميليشيات مستقلة، وقد راقت الفكرة لبريجينيف الذي رأى فيها إضعافاً لقوة ونفوذ الـ كي. جي. بي وبالتالي إعطاء الميليشيات دوراً مناوئاً ومنافساً في آن معاً.

استفحلت العداوة حتى طالت أدنى المستويات. فكانت الميليشيات تعتدي على ضباط الـ كي. جي. بي لأبسط سبب ودونما رحمة، فتراوغ في وقائع حادثة ما وتعطي الأمور حجماً أكبر من واقعها الحقيقي، ويعمل على استصدار لوم رسمي من وزارة الداخلية ويشكل يدين ادارة الـ كي. جي. بي لتشويه صورة هذا الجهاز، فتنطبع في أذهان الناس تلك الصورة المشوهة مصدقين لها، إذ يبقى ما يصدر على الورق أشد تأثيراً مما يوصف شفهياً، ويقال في هذا المعنى: «ما يكتب لا يمكن أن يُجَزَّ ولا حتى بفأس».

على هذا يتضح أن الـ كي. جي. بي لم تتمتع بنفوذ قوي في المجتمع السوفياتي. بل لم يكن من صلاحيات أفراد الجهاز اعتقال أحد دون موافقة مكتب المدعي العام، واذا حدث ذلك فبواسطة عناصر ضبط من وزارة الداخلية. ولهذه الأسباب، دون غيرها، فان رجال الـ كي. جي. بي يطلبون إذن دائرة التحقيق الجنائية بموافقة من وزارة الداخلية قبل اعتقال أي مواطن

سوفياتي. هذه الاجراءات كبّلت سلطة الـ كي. جي. بي مما دفع انـدروبـوف الى تنبيه موظفيه بصرامة من أن يقبض عليهم، فلا رحمة ولا شفقة من القيـادة في حال حصول ذلك، وعقوبة ذلك ستكون إما بالطرد من الجهاز أو بنقل من يخالف التعليمات الى منطقة نائية.

هذا الوضع من التنافر أوجـد جـواً من الفـوضى في صفـوف ادارات وزارة الداخلية من أعلى الرتب الى أدناها. فقد عيّن بريجينيف صهره (وهو حـارسـه الشخصي من قبل) نائباً لوزير الداخلية، وقد تمادى في صلاحياتـه وعمل على تعيين أصحابه وأقاربه في مناصب عليا، فحول الـوزارة الى شبـه منظمـة تخدم مآربه الشخصية وتوفر له الحماية، وكان في وزارة الداخلية عنـاصر فـاقت الـ كي. جي. بي عـدداً، وأضحت رواتب المسـؤولين فيهـا مسـاويـة لـرواتب المسؤولين في جهاز الـ كي. جي. بي.

وبالرغـم من أن ليس هدفي هنا التحدث عن مظاهر الفـوضى والانحـلال التي دبت في عهد بريجينيـف والمعروفة جيداً لدى معظم الناس في شتى أرجـاء العالم، فإن ما حدث في وزارة الداخلية يستحق التطرق اليـه. فلقـد أسنـدت المناصب الأعلى في الوزارة بشيلوكوف وبمساعده شوربـانـوف، في حين لم يتم تـوزيع المنـاصب الأقل من منظـور الجدارة والكفـاءة، بل دفع ثمنهـامــالاً، وكانت هناك لائحـة بأسعـار المنـاصب ـ ولسـوء الحظ لم يتم لي الاطـلاع على الأرقـام. . . وكـان من نتيجـة ذلك أن أحـاط كل مسـؤول نفسـه بجماعتـه الخاصة.

وتحولت دائرة التحقيقات الجنائية الى ورشـة مصـالح. فإذا سرقت ثـلاثـة روبلات تذهب الى السجن، إذا سرقت ثلاثمئـة ألف روبل فإن قضيتك تُحلّ بدفع نصف المبلغ رشاوى الى دائرة التحقيقات.

أما دائرة مكافحة سرقـة الممتلكـات الاشتراكيـة فإنها شريكـة ضـالعـة في الفوضى هي الأخرى، إذ يقع على عـاتق تلك الـدائرة مـراقبـة الأمـور الماليـة والاقتصادية، وأفرادها يقومون بزيارات مفاجئة للمؤسسات التجارية للتدقيق في الملفات ومراجعة الحسابات، غير أنهم طبقوا عملهم بأسلـوب معـاكس، فقبيل الاغارة على هدف ما كان المسؤولـون في الـدئرة يسـارعـون الى الاتصـال بمعاونيهم لاعلامهم بالأمر، وبالطبع كانت تكلفة هذه المعلومات باهظة.

ازاء هذه الأوضاع البالغة الفوضى سرت الشائعات عن اسناد زمام الأمـور

للـ كي . جي . بي لضبطها . ولكن هذا لم يكن ليحدث ، فأي وزير هذا الذي سيسمح لنفسه بعدم اقتناص الأموال التي كان يجنيهـا عن طـريق جماعتـه من الموظفين؟

أما عن الكيفية التي يتم بها وصول الأموال الى جيوب المسؤولين الكبار فلم تكن معقدة : فعلى إثر مـداهمة مطعم مـا تُدفع للمسـؤول عن العمليـة رشـوة مبلغها ألف روبل فيحتفظ بستين بالمئة منها لنفسه ويعطي الباقي الى رئيسـه ، ويقتطع هذا الأخير من المبلغ الذي تسلمه نسبة ستين بالمئـة ويعطي رؤسـاءه الأربعين بالمئـة ، وهكـذا تستمـر دورة تبـادل النسب صعـوداً لتصل الى رئيس المنظمة . أما «البريجينيفيـون» فلم يكـونـوا ليتعـاملـوا بـالنقـد الـورقي فجَنـوا حصصهم ذهباً وأحجاراً كريمة وهدايا ثمينة .

وثمة صور أخرى لاستشراء مظاهـر الفسـاد والـرشـوة في إدارات وأجهـزة الدولة . فمصلحة السيارات الحكـوميـة الموجلة بتـوفير القيـادة المريحة وتسهيل المرور لأعضاء اللجنة التنفيذية وأعضاء الحكومـة بعيـداً عن الازدحـام كـانت تسيّر الدراجات النارية أمام سيارات المرسيدس والـ BMW المستوردة بالعملة الصعبة من ألمانيا الغربية بواسطة سينوكوف ، وكانت تلك المجموعة الوحيـدة المخولـة رسميـاً بـاستعمال هـذا النـوع من السيـارات ، فيما استعمل الآخـرون سيارات الفولغا السوداء . وقد أدت التغييرات في وزارة الـداخليـة الى حـدوث تغييرات بالتالي في مصلحة السيارات الحكومية ، فبعد أن كـان شرطي المرور في شوارع موسكو في العادة بـرتبـة عـريف وعـريف أول تغير الـوضع مع بـدايـة السبعينيات وتوزعت الرتب بين ملازم ثان وكابتن وأحياناً مايجور، كما عمدت الشرطة الى تضييق الخناق على السـائقين لا بقصـد تنظيم المرور وتحسينـه ، بل بقصد إجبار السائقين على دفع رشاوى للتخلص من تحرير المخـالفـات ودفع الغرامات ، وكان ذلك من المصادر الاضافية غير الرسمية للضباط في مصلحة السيارات ، مما حدا بالكثيرين الى طلب العمل ورشوة المسؤولين لقبولهم مقابل خمسة آلاف روبل يدفعها طالب العمل ، في حين كـان معـدل دخل الفـرد لا يتعدى المئة وخمسين روبلاً في الشهر .

وقد عمل رجال الشرطة على نصب الكمائن للسائقين ، فعمدوا الى تغطيـة لوحات تحديد السرعـة القصـوى التي تنتصب عـادة على جـوانب الشـوارع ، وأصبح مألوفاً لدى السائقين أنه يتعين في حـال ايقـاف أحـدهم دسّ ثـلاثـة

روبلات داخل بطاقة القيادة وتقديمها للشرطي، أما في حال تلبس السائق مخموراً فإن المبلغ يتراوح ما بين خمسين ومئة روبل. وطالت الرشاوى حتى مكتب إصدار رخص القيادة، وصار بالامكان شراء رخصة سوق وبطريقة علنية بحوالي مئة وخمسين روبلاً دون الخضوع لأية فحوصات.

والسائق ذو الحظ السعيد هو من يتعرض للإيقاف مرة واحدة في الأسبوع، إذ كان المعدل مرة كل يومين، وفي إحدى المرات طالني الأمر، فأبرزت بطاقتي في الـ كي. جي. بي ولكن ردة الفعل كانت عدائية، فحررت بحقي مخالفة وايصالاً بها، وعندما سألت الشرطي عن سبب سوء معاملته لمن يعتبرون زملاءه في الـ كي. جي. بي كان رده أن الأوامر تقضي بذلك.

وتصاعدت الشكاوى من المواطنين الذين راحوا يتساءلون عن موقف الـ كي. جي. بي إزاء تفشّي هذه الفوضى، ولكن المسؤولين في الجهاز فضلوا الصمت وامتنعوا عن إعطاء الجواب، ومرد ذلك لسببين، الأول أنه كان من المخجل الاعتراف بقضم صلاحيات هذا الجهاز من قبل الحزب، أما الثاني فلأن أحداً لن يصدق هذا التبرير.

لقد تغافل «الجماعة» في السلطة وأغمضوا أعينهم عما يجري وحوّلوا سخطهم لتردي الحالة الى إلقاء اللوم على الـ كي. جي. بي التي كانت في ذلك الحين منشغلة بمهمات أخرى متعددة، فكان اهتمامها منصباً على أمور التجسس في الخارج ومكافحة التجسس المضاد في الداخل الى جانب توفيرها الحماية للمسؤولين الحكوميين ومراقبة الاتصالات الاجنبية، وكذلك حماية القادة الكبار من الحزبيين، وبالتالي العمل على مراقبة المضاربات المالية. ولم يشأ المسؤولون توريط الجهاز في مكافحة الفوضى حتى لا يكون ذلك مَدْعاةً لصراعات بين القيادات فيحارب الحزب نفسه.

بالطبع لم تكن الـ كي. جي. بي بريئة من أعمال الفوضى ولكن ذلك لم يبلغ في مستواه الحد الذي بلغه في وزارة الداخلية. فقد كان اندروبوف قاسياً في تعامله مع المنحرفين. ففي سنة ١٩٧٢ قبض على عدد من المسؤولين في الـ كي. جي. بي لتورطهم في المضاربات المالية، وكانت العقوبة في حق هؤلاء حاسمة فأعدم معظمهم.

لا أقصد من ذلك أن أفراد الـ كي. جي. بي هم من طينة مختلفة عن سواهم من السوفيات، ولكنهم ملتزمون بالانضباط. وإذا كان ثمة فوضى أو

عمليات رشوة في الجهاز فهي لم تتعدَّ الهدايا المتواضعة للرؤساء بعد العـودة من مهمة في الخارج، وغالباً مـا كـانت على شكل دعـوات للعشـاء في المطعم أو المنزل، وحتى هذه الأمور والمجاملات كان محظوراً سلوكها وكان العقاب يطال صاحب الدعوة والمدعوين في آن معاً.

وفي كل الأحوال كانت تصرفات رجال الميليشيا حيال أفراد الـ كي. جي. بي جافة وسيئة، فإذا قبضوا على أحدهم متلبساً بحالة سكر أحالوه على الفور الى وزارة الداخلية التي بدورها تحيله الى سيلوكوف شخصياً، فيجـدّ الأخير في استغلال الحادث للتشهير بأندروبوف من خلال تقرير يـرفعـه الى بـريجينيف الذي من ناحيته ينحو باللائمة على اندروبوف.

وبالسؤال عن أسباب العداء الرئيسية بين مسؤولي الحزب والـ كي. جي. بي يُرى أنها تعود الى سنة ١٩٣٧، وذلك خـلال عمليـات القمع التي طبعت عهد ستالين، وهو خلاف ما أشيع من أن مفوضية الشعب للشؤون الداخليـة هي التي أعدمت حراس لينين الحزبيين بنـاءاً على أوامـر ستـالين، وقـد لعب القـاة الحزبيـون دوراً هـامـاً في هـذه العمليـات ويتضح ذلك عنـد النظـر في سجلات الرسميين أمثال بريجينيف وكوسيغين وبودغورني وسـواهم ممن بـدأوا أنشطتهم الحزبية سنة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨. وهذا يعني ضلـوع كل هـؤلاء بأعمال التعذيب والتصفيـة التي تعـرض لها أولئك الحراس. ذلك تم في زمن اعتبرت الترقية فيه من المكاسب الضرورية وكان السبيل الوحيد لنيلهـا مـرتبطـاً بقـدر الدعم الذي يقدمـه الأعضـاء الحزبيـون في تنفيـذ عمليـات القمع والاشتراك فيها.

وبالنسبـة لي فلم أشترك بأيـة عمليـة من ذلك القبيل، واقتصر عملي على «فضح أعـداء الشعب» بتبليغ الأمـر خطيـاً الى مفـوضيـــة الشعب للشـــؤون الداخلية التي شهدت تغيرات عدة في الثلاثينيـات والضـالعـة في التصفيـات التي شملت الحراس السابقين وكان استبدلهم ستالين بأولاد «الأعداء» الـذين أعدموا بعد الثورة، وهم أولاد الفلاحين المهجرين الذين صبوا كامل حقـدهم على السلطات السوفياتية وكانوا متعطشين للانتقام، هذا الواقع كـان الـدافع للإرهاب الكبير وراء عمليات القمع سنة ١٩٣٠. فالمسـؤولـون في مفـوضيـة الشعب للشؤون الداخليـة لم يكـونـوا ليرحموا حـراس لينين الـذين قضـوا على عائلاتهم وقد حان دورهم للانتقام والقضاء عليهم.

وأطل عهد خروتشوف الذين اتهم ستالين بكل الجرائم التي ارتكبت في الماضي، ولكن دون المساس بالحزب. وعندما أطاح الستالينيون بخروتشوف وألقوه خارجاً راحوا يرممون صورة قائدهم، وكان الأوان قد حان لتقديم كبش محرقة تبرير جرائم ستالين، ولم يعدموا حيلة فألصقوا ذلك في الـ كي. جي. بي. وبوصول بريجينيف الى السلطة سنة ١٩٦٤ بدأت المحاكمة السرية للـ كي. جي. بي التي لم يكن قد بقي في ذلك الحين أحد من مسؤوليها الذين اشتركوا في عمليات القمع على قيد الحياة.

واثر فضائح خروتشوف أزيل فوراً كل من كانت له علاقة في جهاز الـ كي. جي. بي أو عمل على نقله الى وظيفة أخرى. وأذكر والداً لزميل لي كان كولونيلاً في أمن الدولة، وقد أرسل في سنة ١٩٥٦ الى منطقة الشرق الأقصى حيث أصبح رئيساً لإحدى آبار النفط في جزر الكرلي. كذلك أذكر اندريه ديمترفيتش الذي عاش في المنطقة السكنية التي كنت فيها، وكان رجلاً ضخماً ذا وجه عابس وكنت أسمعه يردد أنه قادر على قضم رقبة أي كان بضربة واحدة من يده، وقتها كنت في الثامنة من عمري ورحت أتساءل كيف يمكن ذلك، وهل سيستمر بتحطيم الاعناق بعد انتهاء الحرب؟ وذات ليلة من عام ١٩٥٦ اختفى اندريه ديمترفيتش فجأة، وعرفت لاحقاً أنه كان أحد جلادي الـ كي. جي. بي.

في سنة ١٩٧٦ بلغت سمعة بريجينيف ذروة مجدها، فأصبح القائد الأعلى للدولة، ووضع على صدره ثلاث نجمات: المنظم، البطل، الاتحاد السوفياتي، ورقيت درجته العسكرية الى رتبة ماريشال، ثم نصب نفسه قائداً أعلى لمجلس الدفاع، وحاز عدداً كبيراً من الأوسمة الدولية، واستهواه الاعتداد بانتصارات الحرب العالمية الثانية، وكانت العملية العسكرية الوحيدة التي خاضها آنذاك هي الانزال البحري في ملايا زمليا في الكرميا، وبلغ ذلك حد اعتبار تلك العملية أحد أكبر الانتصارات على الألمان. ولكن بالعودة الى كتاب مذكرات الماريشال زولوف نجد كيف وصف تلك المعركة بأنها أحمق عملية أدت الى فقدان آلاف الأرواح. غير أن الكتاب سحب من الأسواق واستبدل بطبعة ثانية خالية من الفصل الذي يذكر ملايا زمليا.

وبوجه عام كانت الأوضاع مثاراً لعدم الارتياح في شتى أرجاء البلاد. غير أن ذلك برز واضحاً في صفوف الـ كي. جي. بي وبشكل علني. وخلال

الأسبـوع الأول من وجـودي في القيـادة (اس) لم أكن أصـدق مـا سمعتـه من أحاديث مناهضة للسوفيات، وهو ما اعتبره مقدمة أولى لبداية البريسترويكـا التي ظهرت في عهد غوربتشوف، وفي عام ١٩٨٨ كان المعلق في راديو موسكو يقول: إن النتائج الايجابية للبريسترويكا أنه أصبح بإمكاننا مناقشة أية مشكلة وانتقاد أي كان دونما خوف، وذلك على عكس ما كان عليه الوضع منـذ عشر سنوات عنـدمـا كنـا خـائفين لا من التعبير فقط بل من التفكير أيضـاً ولكن انتفاء الشعور بـالخوف في الـــ كي. جي. بي قبل ذلك لم يكن مـرده الى القـوة التي نزعم أننا نمتلكها، وإنما لعلمنا قبل سوانا بتلك الأقذار التي تـربّعت في القمة.

يقول الشاعر الورسي: «يصيب الاهتراء رأس السمكة أولاً». وقد كـان من غير المعقول تخيل وجود اهتراء إلا في القائد بريجينيف الذي لم يكن قـادراً حتى على لفظ الكلمات بوضوح. وقيل انه مصاب بسرطان في عظـام فكـه، وكـان ذلك افتراءاً، وحقيقة الأمر أن بريجينيف كان زير نساء وعاشقاً مسرفاً ممـا أثـر سلباً على قدرته الجنسية، فصدرت الأوامر لأطبائه بإيجاد العلاج المناسب، ولما لم يفلح هؤلاء عمل على اتباع وسائل أخرى، وأخذ يستعمل الهرمـونـات التي حذره أطبـاؤه تكـراراً بضرورة الإحجـام عن استعمالها، ولكنـه لم يعط اهتمامـاً لذلك، مما أدى الى إصابته بعدة نوبات أثـرت فيما بعـد في قـدرتـه على التكلم بوضوح. لقد علمت بهذه الأمور من الأطباء في القيادة العليا الـرابعـة في وزارة الصحة وكانت تعرف باسم مستشفى الكـرملين حيث مختلف أنـواع الأدويـة مستوردة من جميع بلدان العالم، وقد أحضرت خصيصـاً لمعـالجة الـرجل الأول في الاتحاد السوفياتي.

في أحد الأيام التقيت أحد الزملاء ممن كانوا في المدرسة ويعمل في الـ كي. جي. بي في القيـادة العليـا التـاسعـة، وهـــو من ضمن حـرس بـــريجينيف الشخصي، وقد أطلعني على جوانب كثيرة من حياة قائدنا آنـذاك. لقـد كـان لبريجينيف العديد من النساء المحظيات في كل منطقة من الاتحاد السـوفيـاتي، فحيثما حلّ كانت على الدوام ثمة مجموعة مختارة من النساء لإشباع رغبة القائد وإرضاء شهواته، وفي حالة إعجابه بإحداهن في خلال استقبـالـه لهن لإلقـاء التحية يقوم مرافقه الخاص بكل تهذيب بدعـوتها لـزيـارة الضيف الكبير، فإن وافقت قدمت لها ولعائلتها جميع التسهيلات، وفي حالـة الـرفض ـ ونـادراً مـا كان ذلك يحدث ـ يطلب منها التوقيع على مستند عدم إفشاء الأمر. وقد عرفنا

بأمر العديد من الممثلات في موسكو ممن كانت تربطهن علاقات بـالسكـرتير العام.

استمر مسلسل حفلات التكريم لبطل الاتحاد السوفياتي وتقـديم الجوائز. فقد تسلم بريجينيف النجمة الذهبية المصنـوعـة من الـذهب الخالص وزنتهـا خمسة وعشرين غراماً، ووسام لينين وزنته أربعون غراماً، ووسام بطولـة العمل الاشتراكي وزنته خمسة وعشرون غراماً، إضافة الى عديـد الأوسمـة من الألماس والتي يفترض استرجاع ملكيتها للدولة بعد وفاته باستثنـاء الأوسمـة الـذهبيـة التي يحق للعائلة الاحتفاظ بها. وبوفاة بريجينيف ورثت عائلته مـا زنتـه مئتـان وخمسة وثمانون غراماً من الذهب وهو ما يمثل خمسة أوسمة.

ولم يكن بريجينيف الغارق الوحيد في هذه الفوضى، بل جميع من أحـاطـوا به، وكان هو مثلهم الأعلى. وقد أصدر مرسوماً يقضي بمنح لقب مـاريشـال لكل واحد من أبنائه بعد مماته وعلى أسـاس احتفـاظ كل منهم بـاللقب لحين وفاته. وعمد الماريشال فريشكو وزير الدفاع سابقاً الى تبني أحفاد بـريجينيف أيضاً رغم أن أهليهم ما زالوا أحياء، وذلك بقصد إعطائهم لقب مـاريشـال. لقد زخر واقع الحياة في الاتحاد السوفياتي بقصص تافهة من هذا القبيل.

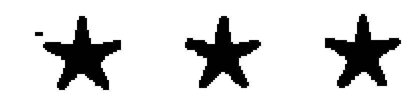
كل هذه الأمور وغيرها أدت الى بروز تململ في صفـوف الـ كي. جي. بي وكان الحزب قد منع الـ كي. جي. بي من التدخل لمعـالجة الأوضـاع نـاصبـاً نفسه فوق القانون، معطيـاً الحمايـة لجميع أعضـاء الحزب. وكـان السـؤال في صفوف الجهاز: «لمن نحن نعمل؟ وحماية من نتـولى؟ ألّلصـوص؟»، فيما راح بعض الضباط من ذوي الرتب الدنيا يبررون عمليات القمع في عهـد ستـالين التي وقعت سنة ١٩٣٠ ضد حرس لينين في الحزب.

عمت اللامبـالاة صفـوف العـاملين في الجهـاز، فـانصرف قسم منهم الى الادمان على الكحول، وفضل كثيرون آخرون عدم التفكير. فيما راح قسم آخر يفلسف الأوضاع مبرراً استئنافـه لعملـه في الجهـاز من منطلق إيمانـه بـروسيـا وبمستقبلها.

لقد كان الأمر صعباً على هؤلاء الذين عملـوا على مـلاحقـة المنشقين، ولا أعني بهم أولئك الذين يفـرون مهـاجـرين من الاتحاد السـوفيـاتي، بل الـذين تصدوا وعارضوا سياسة الحكم ولم يرغبوا باللجوء الى مكان آخر. فاليهود كـان بإمكانهم اللجوء الى «اسرائيل»، أما المواطنـون الـذين هم من أصل روسي فإلى

أين يلجأون؟ .

أوكلت الى القيادة العليا الخامسة للـ كي . جي . بي مهمة ملاحقة المنشقين وحددت المعاقبة بالسجن للمتهمين منهم بمخالفات جنائية، فيما أرسل الباقون الى مصحات عقلية . وقد أخبرني ضابط في القيادة الخامسة عن منشق مَثُل أمامه فراح يطلعه بصراحة متناهية عن اشمئزازه من الأوضاع مبيناً الأسباب التي دفعته للإعتراض، وقد وجد في أقوال الرجل صدى لما كان يتردد في داخله، فأصيب بالحيرة إزاء الأوامر الصادرة اليه برفع تقرير يقضي بإرسال الرجل الى مصحة الأمراض العقلية .



بدت موسكو أشبه ما تكون بالغابة، وقد تُرجمت رؤية الـ كي . جي . بي للأوضاع بالأبيات التالية :

تقدمت دائرة موسكو الجنائية الى الأمام،

رجالها دائماً سكارى متجهمو الوجوه

بعدهم أقبل رجال منظمة حماية الممتلكات الاشتراكية

وهؤلاء يملكون الأموال والفتيات

ومن بعدهم جاء رجال مصلحة السيارات الحكومية

وهؤلاء دوماً يشربون الخمر بينما يدفع الآخرون،

وأخيراً جاءت الـ كي . جي . بي بأيديها النظيفة

ومنعت الجميع من قبض الأموال

ربما يميل القارىء الى الشك بحقيقة مضمون هذه الأبيات الشعرية، وربما يعتقد آخرون أن أندروبوف بإرساله القوقازيين الى الغرب كان يعمل على تنظيف سمعة الـ كي . جي . بي، ولكن سبق أن ألمحت الى أن الحقيقة ربما تبدو أحياناً بعيدة الاحتمال أكثر من الخرافة .

الفصل الخامس

القوانين غير المكتوبة ـ يوم العمل ـ القرية ـ التغطية ـ الإقلاع إلى إيران

تابعت عملي في القسم الثاني في القيادة (اس) بعد إنهائي الفترة التجريبية وتعرفي بشكل أوسع على المخابرات اللاشرعية، وبعد ذلك كان علي الذهاب الى ايران لأحلّ محل ساشا ياشينكو وهو ضابط سبق أن عمل لأربع سنوات هناك وحظي بسمعة طيبة بين جميع الزملاء. وقد نوّه به (اسماعيل) رئيس الفرع فقرأ علينا رسائله الخاصة المكتوبة بأسلوب جيد ومضحك.

عند مراجعتي ملف مهمتي المقبلة في ايران فوجئت بوجود عميلين اثنين فقط للقيادة (اس) هناك، كان أحدهما دبلوماسياً افغانياً يحمل اسماً مستعاراً ويدعى «رام» وهو القنصل للسفارة الأفغانية في طهران، وقد جنده ياشينكو عام ١٩٧٤ وطلب منه تزويده بمستندات أفغانية حقيقية لاثنين من اللاشرعيين «اكبار» و «ستيلا».

أما العميل الآخر فكان «تيمور» ولم يكن هذا مؤهلاً للعمل في المخابرات، وقد جنّد بسبب كون أخيه يعمل في مركز ايراني مهم بالنسبة لمصالحنا، ولكن لم يفدنا بأية معلومات ذات أهمية وتركزت تقاريره دائماً في الحديث عن وضعه وصحته، أضف الى ذلك أن ملفه كان يدل على قبضه لمبالغ كثيرة من الأموال. قبل مغادرتي الى ايران وبناءاً على إصرار وموافقة اسماعيل تقرر إغلاق ملف تيمور وقطع الاتصالات به.

كان لنا في ايران عميلان شرعيان آخران هما «كونراد» و «ايفي» وقد حملا تابعية اوروبية، الأول من لوكسمبورغ ويحمل الجنسية الألمانية. أما ايفي فمواطنة ألمانية غربية، وفي الأصل كان «كونراد» من لاتوانيا وايفي من المانيا الشرقية، وقد قدما الى الاتحاد السوفياتي عبر فنلندا حيث استبدلا مستنداتهما

وأوراق سفرهما. ثم تابعا فانتقلا الى الدانمارك حيث تزوجا ـ تم الزواج بناء على طلب من موسكو بهدف تسهيل مهمتهما ويحق لهما الانفصال لاحقاً إن هما أرادا ذلك ـ وبعد ذلك انتقلا في جولة أوروبية لتبرير رواية مختلقة عن حياتهما قبل التوجه الى باكستان حيث ستوكل اليهما مهمة هناك. أما لماذا باكستان، فذلك لكونه البلد الصديق للولايات المتحدة. لكن كونراد وايفي لم يتمكنا من ايجاد عمل فاضطرا للانتقال الى الهند ومن بعد الى افغانستان، وأخيراً استقرا في ايران حيث تمكن كونراد من العمل في شركة المانية.

عند مقارنتي نسبة العملاء الموجودين في ايران بنظرائهم في دائرة الشؤون الحكومية للبلدان تبيّن لي ان ليس ثمة فارقاً على الاطلاق. فالقسم الصيني لم يمثله أي عميل لا في الصين ولا في أية بلدان أخرى في العالم. وكذلك الأمر بالنسبة لباكستان وتركيا واليابان، ولكن، منذ قدومي الى الغرب والروايات شائعة عن وجود مئتي عميل للـ كي. جي. بي في طوكيو وهي في حقيقة الأمر مبالغات لا أساس لها من الصحة. وما زلت أذكر فترة تحضير «فالير فدوفن» في مكتبنا لتسليمه مهام اليابان، وقد فهمت منه آنذاك أن عددهم هناك كان صفراً. وكذلك عرفت من آخرين في بقية الأقسام أن وضعهم لم يكن مختلفاً، ومنذ ذلك الوقت بدأت الأمور تتبلور أكثر، وأدركت إذ ذاك أن ما يُشاع في الاتحاد السوفياتي مغاير للواقع ولما هو مدوّن على الورق.

كان القانون الأول في عملنا هو البقاء على قيد الحياة والمحافظة على المركز لحين إتمام المهمة وعدم الاقدام على ما يجعلنا عرضة للطرد من البلاد، وهو ما يعتبر النهاية بالنسبة الينا، فلا يعود بالمستطاع الدخول الى بلدان الأعداء الرئيسيين في دول «الناتو» والحليفة لها، ومما يعني أن دخولنا سيقتصر على الدول الصديقة، ولكن هل ثمة مَن يرغب أن يعمل مثلاً في أفريقيا السوداء.

أما القانون الآخر فيقضي بعدم الكشف عن أنشطتنا. ولتجنب الطرد كان علينا اتباع التوجيهات التالية:

١ ـ تجنّب الاحتكاك بالاميركيين أو الالمان أو البريطانيين أو الفرنسيين في بلدانهم أو في بلدان نفوذهم.

٢ ـ حاول التقرب بحذر من المواطنين المحليين في منطقة عملك، ولكن يجب أن يتركز اهتمامك على مندوبي دول العالم الثالث، وبوجه عام فان السلطات المحلية والمخابرات لا تولي أهمية كبيرة لاتصالات الروس بمواطني

دول العالم الثالث .

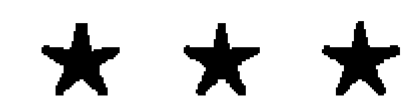
٣ ـ احترم السلطات المحلية والمخابرات وامتنع عن محاولة تجنيد أيّ منهم تحت أية ظروف، واذا عرض أحدهم عليك خدماته فغالباً ما تكون العملية مدبّرة، وذلك حتى لا يؤول الأمر الى طردك من البلاد .

٤ ـ لا تَرْضَ عن أمر يكون سهلاً وقوعه بين يديك مهما كان العرض مغرياً، ومن الأفضل أن تخسر مصدراً للمعلومات من أن تقع في الفخ .

٥ ـ لا تتدخل عن قصد مع الارهابيين مثل «الفلسطينيين» و «اللبنانيين» فقد يكون في ذلك خطر على حياتك .

٦ ـ ركز اهتمامك على مواطني بلدان العالم الثالث مثل الهنود والباكستانيين والعرب والامريكيين اللاتينيين ومواطني جنوب شرق آسيا .

وفي جميع الأحوال اعتبرت كل عملية تجنيد مهمة ناجحة ولا سيما في وقت كان فيه رجال الـ كي . جي . بي في العالم يعدون على أصابع اليدين .



يبدأ يوم العمل في الـ كي . جي . بي التاسعة صباحاً بتبادل الأخبار المتداولة في الصحف والاذاعات ذات «الأصوات العدائية» كما تسميها موسكو. وقد تركزت الأخبار السياسية في أواخر السبعينيات ضد القادة الحزبيين، وكانت العقوبة السجن للمحرضين والمروجين، وقد طال الأمر حتى مؤلفي الشعارات الذين علقوا على عملية تبادل فلاديمير بوكوفسكي المنشق السوفياتي مقابل لويس كورفلان قائد الحزب الشيوعي في التشيلي :

«تبادلوا زعيم عصابة مقابل لويس كورفلان . بمن يمكنهم مقايضة الرجل الأعلى؟» .

وقد ترافقت حَمَلات الشعارات بقصص رُويت . كان إحداها أن صحفياً غربياً سأل بريجينيف عن هوايته المفضلة وقد أجاب أن هوايته جمع النوادر التي تتحدث عنه .

وحين أردف يسأله: «هل جمعت الكثير مها؟». أجاب بريجينيف: «أجل.. سجنان ممتلئان!».

بعد مطالعة الأخبار في الصحف وتبادل النكات ونفث دخان السجائر في الغرفة يبدأ العمل، فتفتح الخزائن وتوضع الأوراق على الطاولات. ولكن ما إن يُبدأ بالكتابة حتى يدخل أحدهم قادماً من قيادة أو قسم ما، مجرد زيارة عادية، فيتوقف العمل من جديد. في الحادية عشرة يندفع الجميع الى الممرات في تمرين فيزيائي روتيني يستمر لمدة خمس عشرة دقيقة، إذ يتوجب على ضباط الـ كي. جي. بي المحافظة على رشاقة أجسامهم. بعدها يتبقّى خمس وأربعون دقيقة عمل لفترة ما قبل الغداء، فما هو العمل الذي يمكن انجازه في هذا الوقت القصير؟ ومن ثم يغادر الجميع مكاتبهم. البعض يتجه الى المحلات في الأسواق، بينما يلعب آخرون الشطرنج أو يتابعون ثرثرتهم ويدخنون السجائر.

وهكذا تستمر دورة الحياة مسيرتها في القسم بشكل متكرر: شعور بالجوع قبيل وجبة الغداء ومن ثم إخلادٌ الى النوم، وفي خلال ذلك يتحرك العمل بطيئاً، وتُدبَّج الخطابات لترسل في الحقائب الدبلوماسية. أما البرقيات فيُردّ عليها بسرعة. بالرغم من ذلك فقد كان العمل في القيادة (اس) أسرع منه في القيادة العليا الأولى.

كان الضباط في القيادة (اس) يتبعون نظام عمل محدد، فقبل انتهاء الدوام بخمس عشرة دقيقة يتعين على الضابط المسؤول الذهاب الى غرفة استقبال قائد القيادة لتسليم مفاتيح الغرف التي تجمع في صناديق خشبية مغلقة وتسجل بعد ذلك التوقيعات في دفتر خاص.

يتجه الضابط المسؤول الى الممرات للتأكد من إغلاق جميع الأبواب، وفي حالة عدم إغلاق احداها فإن باستطاعته الاتصال بالمسؤول عن الغرفة وإحضاره الى المكتب للتحقيق معه. وفي العاشرة ليلاً توكل الأمور الى الحراس المختصين فيغادر الضابط المسؤول الى منزله ليعود في الساعة السابعة صباحاً ويستأنف عمله الروتيني من جديد.

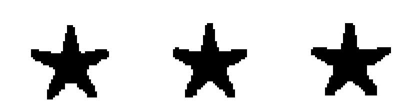
أما نواب رؤساء القيادات وذلك نواب رؤساء الأقسام فيتم حضورهم الى العمل قبل ساعة ونصف من بدء الدوام الرسمي ليتسنى لهم قراءة الرسائل والبرقيات الواردة من مختلف أنحاء العالم، وذلك بحكم انشغالهم طيلة أوقات الدوام في عقد الاجتماعات ومقابلة مسؤولي القيادات.

بعد فترة من العمل في مقر الـ كي . جي . بي باستطاعة المرء ان يلاحظ عدم وجود حراسة دقيقة في الداخل . وكما سبق ذكره فثمة حراسة دائمة على المداخل الرئيسية للمبنى ، إذ يقوم حارس مسلح بالتدقيق في تصاريح الموظفين . أما في الطابق الرابع ، في غرفة الانتظار التابعة لمكتب رئيس الـ كي . جي . بي فثمة حارس طيلة الوقت . بالاضافة الى دوريات في الممرات على مدار الساعة تجنباً لحدوث الحرائق ، إذ كان التدخين داخل المبنى محظوراً في المكاتب ومسموحاً به فقط في الممرات .

لم يكن لدى الـ كي . جي . بي أجهزة لايزر مدسوسة كما لم يكن حراسها يحملون أسلحة اوتوماتيكية ويتربصون في كل زاوية . وإدخال الحقائب الى مبنى الـ كي . جي . بي كان محظوراً ويقتضي الحصول على تصريح خاص من السكرتير الأعلى للقيادة ، أما المسؤولون في الجهاز فلا يتعرضون للتفتيش أو لأية إجراءات أخرى .

غير أن أموراً غريبة كثيرة كانت تقع في المبنى بسبب انتفاء حراسة دقيقة . ففي إحدى المرات دخلت امرأة الى المبنى وراحت تسأل في الممرات عن موقع قسم الألعاب للأطفال ، إذ أخطأت بين مبنى الـ كي . جي . بي ومبنى مجاور ، وكان الحارس قد سمح لها بالدخول اعتقاداً منه أنها عاملة التنظيفات .

وفي واقعة أخرى عثر على رجل سكير نائم في أحد الممرات ، ولا يعلم أحد حتى اليوم كيف دخل المبنى .



أخيراً ، وبعد جهود مضنية أتيحت لي زيارة سجن لوبيانكا الذي يقع في بناية شغلتها الـ كي . جي . بي سابقاً ، حيث كان السجناء يخضعون للتحقيق ، غير أن السجن أغلق سنة ١٩٥٦ وحوّل الى مطعم . واليوم لم يعد للـ كي . جي . بي مكان مخصّص للسّجن . فالأرشيف يحتلّ السراديب ، وهنالك عدة ممرات في أسفل المبنى تربطه بمبنى الكرملين حيث المجلس المركزي ومقر عمليات موسكو .

كان على الضابط قبيل توجهه الى الخارج للقيام بمهمة ما أن يخضع لتلقي ارشادات خاصة تستمر ستة أشهر بغض النظر عما إذا كان يقوم بذلك للمرة الأولى أو لكونه يقوم بزيارة عادية. وفي كل الأحوال عليه أن يقدم برنامجه للحصول على موافقة السلطات، ومن ثم دراسة مجمل الاحتمالات التي يمكن أن تنشأ في البلدان الموفد اليها، وبالتالي عليه مراجعة أقسام القيادة (اس) قبل توجهه بغية تنسيق الأمور مع تلك الأقسام.

من ناحيتي قمت بسلسلة اجتماعات مع مختلف القيادات بمن فيهم كراسوفسكي رئيس القسم الثامن ـ وقد توقف نشاط هذا القسم سنة ١٩٧٢ ـ للقيادة (اس). وقد لفتت انتباهي هناك ولاعة سجائر صممت على شكل قنبلة يدوية، وكان ذلك دلالة واضحة على مهمة القسم. وحين توجهت بالسؤال: «هل هناك ما يمكنني مساعدتكم به في ايران؟»، أجاب كراسوفسكي: «كلا.. لا مصلحة لنا هناك أو في أي مكان آخر. فكل ما يقوم به هو نقل ورقة من هنا الى هناك لا غير».

ومن جملة الاجراءات المتبعة قبيل السفر الى الخارج القيام بسلسلة تحضيرات في القسم الجغرافي للقيادة العليا الأولى في قيادة المخابرات الخارجية، وكذلك في قسم المعلومات، ومقرهما يقع في مبنى خارج موسكو قريباً من يسينيفو ويعرف في أوساط الـ كي. جي. بي بـ «القرية»، وقد شيده الفنلنديون خصيصاً للمديرية الدولية في مجلس السوفيات الأعلى، ولسبب ما سلم المبنى للـ كي. جي. بي، وهو مصمم على شكل ثلاث نجمات، نوافذه عريضة وكذلك ممراته، وقد طليت أبوابه ومفروشاته بلون شفاف حافظ على جمالية خشبية أضفت رونقاً مميزاً على المكان. وأحيط المبنى بسور شريطي ارتفع من حوله سمح بوجود مدخل واحد فقط علقت عليه لوحة كتب عليها «مكتب المعلومات» التي هي حقيقة عمل هذه المنظمة.

أما بطاقة الدخول الى المبنى فكانت بلاستيكية مستطيلة الشكل تحمل صورة الشخص باللباس المدني ورقماً عسكرياً متسلسلاً. وقد أعطي المسؤولون الكبار في القيادة العليا الأولى بطاقة من الـ كي. جي. بي تخولهم دخول المبنى، بينما توجب على ضابط القيادة (اس) بدوره أن يحمل تصريحاً للدخول الى مقر القيادة العليا الأولى. وقد أحاطت الأشجار بالمبنى من جميع الجهات، كما اشتمل المبنى على قاعات رياضية وحوض سباحة، وفرض على الضباط

ممارسة تمارين رياضية لمدة ساعة كاملة يومياً ثلاث مرات في الأسبوع، وذلك بناء على أوامر الرئيس، فكان عليهم الاختيار بين الكاراتيه أو السباحة أو الركض أو المشي في الغابات.

أما وسائل نقل أفراد المنظمة فكانت متنوعة. ولأنه لم يكن بحوزة هؤلاء سيارات خاصة بهم فقد لجأوا الى الحافلات، وفي حال تأخر أحدهم عن موعد إقلاع الحافلة كان عليه أن يستقل سيارة أجرة تنقله الى مكان يبعد كيلو مترين عن مقر القيادة يضطر بعدها لقطع ما تبقى من المسافة سيراً على قدميه. كانت مشكلة التنقل سبباً رئيسياً لبقاء مقر القيادة (اس) في وسط موسكو.

في عام ١٩٦٤ عين الجنرال فلاديمير كريشكوف رئيساً للقيادة العليا الأولى، ولم يكن ضابط مخابرات محترفاً، وانما هو حزبي بيروقراطي كما أنه اعتبر رجل اندروبوف، وقد عمل معه في الكومسومول ومن بَعْدُ في الحزب. وعند تعيين اندروبوف رئيساً للـ كي. جي. بي عام ١٩٦٧ عينه الأخير مساعداً له، وقد اعتمد كريشكوف على صداقته لأندروبوف في حل مشاكله فلم يقم بدور بناء، بل كان يتلقى النصائح، وهو الذي منع تقديم البيرة في الكافيتريا بعد القبض على أحد الضباط الكبار في القيادة وهو في حالة سُكْر. كما أنه لقب بالبورجوازي لاستعماله سيارة مرسيدس ٢٣٠ بيضاء اللون ومزودة بجهاز تلفزيون ويقودها سائق خاص.

لقد اشتمل برنامجي العملي في القيادة العليا الأولى في القسم الثامن على إرشادات تتعلق بالعمل في ايران وافغانستان وتركيا، إضافة الى برلين الغربية حيث يعيش الكثير من الأتراك والأفغانيين والايرانيين.

كان الجنرال بولونيك رئيساً للقسم الثامن وسبق له أن خدم في الولايات المتحدة وكندا، وعند إعادته الى قيادة الـ كي. جي. بي كانت المناصب مشغولة بالكامل، وبسبب عدم اطلاعه على الأوضاع في الشرق الأوسط أوكل الأمور الى نائبه كوسترومين.

أما رئيس القسم الايراني فكان الجنرال انتولي ميخايلوفتش ليزنين، وهو في الخمسين من عمره وسبق لي أن رأيته مرتين، الأولى في ايران عام ١٩٧٤ وقد أخبرنا زميل لي يشغل وظيفة مترجم هناك أنه «قنصل خاص» ملمحاً الى كونه من الـ كي. جي. بي، والثانية في المدرسة ١٠١ وكان عضواً في لجنة الامتحانات النهائية.

أعلمني ليزنين أن المعلومات السياسية هي جزء من عملي في المخابرات، وعندما سألني عن وضع النظام في ايران أجبته أن وريث العرش الايراني المقبل لن يكون من سلالة شاه ـ وقد صدقت إجابتي ـ فتملكه الغضب وانفجر قائلاً: «إذاً، أنت لا تفقه شيئاً، ولذا لن أوقع لك على الاستمارة. فالاقتصاد الايراني هو الأقوى في الشرق الأوسط، وكذلك الجيش وجهاز المخابرات السرية «السافاك»، ناهيك عن الدعم الأميركي الكامل، وبالرغم من هذا كله تعتقد أن النظام الايراني متأرجح؟». لاحقاً بعد عودتي من ايران وانطلاق شرارة الثورة هناك ذكرت ليزنين بحديثنا السابق، ولكنه نظر الي قائلاً انه لا يتذكر حديثاً من هذا النوع.

كانت محطتي التالية قيادة المخابرات الخارجية للقيادة العليا الأولى، وكان هناك فارق بينها وبين المخابرات السياسية من حيث التمرين الخاص على عادات البلدان فمؤسساتها. فعناصر المخابرات الخارجية في مجملهم خريجو جامعات أو معاهد لغات، ومسؤولوها ينخرطون في القيادة العليا الأولى مروراً بالقيادات الداخلية المقربة من الـ كي. جي. بي وكقاعدة فإن لغة هؤلاء هي الانجليزية فقط، وقد يرسلون في مهمات الى أي مكان في العالم، ومهمتهم اختراق صفوف مخابرات العدو، وهذا الأمر يقصد به «السافاك» في ايران، ومحطات الـ سي. آي. إي إضافة الى محطات الدول الرأسمالية الأخرى في الخارج.

المرحلة الأولى من البرنامج التعليمي كان في قسم المعلومات للقيادة العليا الأولى حيث تجمع المعلومات السياسية من كل أنحاء العالم وتقدم الى المديرية الدولية لمجلس الحزب وسائر الأقسام، فالـ كي. جي. بي لا تجمع المعلومات لمصلحتها هي فقط.

وبالرغم مما يبدو في الظاهر فإن انطباعي عن القيادة العليا الأولى كان سلبياً، وكذلك كان رأي زملائي من المدرسة ١٠١ الذين توزعوا على مختلف الأقسام في القيادة، فقد طغت المراوغة والأنانية والتصرف الأرعن لدى القيادات في ظرف كان فيه عدد العملاء في الخارج لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، وكانت المعلومات مختلفة. لم يكن ذلك سلوك مخابرات بل عمل صحافيين.

وبما أن سلفي في طهران كان يحمل صفة دبلوماسية فقد توقعت أن أكون

الملحق التجاري في السفارة، ولهذا السبب كان علي الالتحاق بمؤسسة التغطية لتدبير وتحضير روايتي ودوري المقبل.

تقع وزارة الخارجية السوفياتية في ساحة سمولنسك في أعلى بنايات موسكو، حيث انتصب تمثال ستالين في الخمسينيات كردّ على الاميركيين أن «لدينا أيضاً نطحات سحاب». وكانت جامعة موسكو تقع في إحدى هذه البنايات، وفي بناية أخرى تقع كل من وزارة الخارجية ووزارة التجارة الخارجية، بينما توزعت المباني الأخرى على مسؤولي الحزب والعلماء والفنانين وكل من كان على صلة بكبار أفراد الحزب، في وقت كانت فيه المساكن العامة عبارة عن منازل خشبية خالية من أهم المكونات الحياتية الضرورية، وفي حين كانوا يتكلمون بتبجّح عن المساواة في روسيا وعن الفقر في الغرب.

كانت زيارة السفارات التابعة لوزارة الخارجية تقع في منزل منفصل بعيد عن البنايات الضخمة، ووجودي هناك لم يكن ليشكل تخوفاً من افتضاح هويتي، فثلثا الموجودين هم من المتخفين، وغالبيتهم من الـ كي. جي. بي ومن مخابرات الجيش التابعة لهم، وجلهم يعملون لوزارة الخارجية، وتاس، ووكالة نوفوستي للأخبار، ولجنة العلوم والتكنولوجيا، إضافة الى صحف أخرى باستثناء البرافدا صحيفة مجلس السوفيات الأعلى التي أبقيت بعيداً عن أجواء المخابرات.

أما الفارق بين الـ كي. جي. بي ومخابرات الجيش فكان كبيراً. كانت العادة أن ترسل الـ كي. جي. بي الأشخاص الذين لا تحتاجهم للعمل السري، ولكن عندما يعود ضابط من مهمة غير ناجحة في الخارج تكون جميع المناصب والمراكز مشغولة وليس ثمة من منصب شاغر في الأقسام التي يرفض مسؤولوها قبول الضابط العائد وتعيينه في أحدها، وعندئذٍ تتدخل المنظمة لإنقاذه. فهؤلاء الضباط الذين يتركون وظائفهم من أجل نتيجة إحالتهم للعمل السري لا يعملون للـ كي. جي. بي، بل هم مداومون على حضور اجتماعات الحزب الشهرية ويعودون بعد ذلك الى القيادة لقبض فروق الرواتب والتي هي أعلى في الـ كي. جي. بي منها عن باقي المنظمات. أما في القيادة (اس) فالضباط في العمل السري لا يعفون من القيام بمهماتهم في العمل المخابراتي. وفي كلتا الحالتين فإن المقدرة كانت منعدمة.

أما مخابرات الجيش فوضعها مختلف. فهي ترسل أفضل الضباط للعمل

السري يقيناً منها أن ذلك هو المطلوب لتحقيق الأهداف الجيدة. ولكن الواقع كـان يظهــر أن تحقيق ذلك لم يكن ســوى مجرد سراب حيث يعلم الجميع في المنظمات المفارقات بين الوقائع والأهداف وكيف تسير الأمـور في غير وجهتهـا المرجوّة.

في قيادة السفارات التابعة لوزارة الخارجية كان هنـاك ضـابطـان في العمل السري هما: الكولونيل فيكتور جانيكن والملازم كولونيل نيكـولاي سنتكـوف، وكانا شخصين لطيفَيْ المعشر، وقد وصلت الأمـور معهما حـداً لم يعـودا بعـده يكترثان للعمل، وقد صدق فيهما قول الفيلسوف السوفيـاتي: «الـدفع ذاتـه، إنما المسؤولية أقل، وسوف تبقى برتبة كولونيل».

وتوجّب على مسـؤول الـــ كي. جي. بي الموجلة اليـه مهمـة الـذهـاب الى الخارج بصفـة دبلـومـاسي أن يمضي ثـلاثـة أشهـر في وزارة الخارجيـة، ولكن أسبوعين بالنسبة لي كانا كافيين، وقـد رافقني كل من جـانيكن وسنتكـوف الى قنصل القيادة في وزارة الخارجية فعرّفاني على اكنتين رئيس قسم الشرق الأوسط وعرضا عليه القيام بإطلاعي على الأجواء العملية بدلاً منه.

جلسـت لمدة يــومين مـع بعـض الموظفين في وزارة الخارجيـــة قضيتهما في التعرف على أمور تختص بالسفارات، وبعد ذلك أمضيت ثلاثـة أيـام في قسم التأشيرات الى أن جُهّز جواز سفري الدبلوماسي، وهو عبارة عن كتيب أخضر داكن تعلوه صورة ومهور من قبل دائرة جوازات السفر التابعة لوزارة الخارجيـة وقيادة السوفيات.

باكتمال تلقي التعليمات النهائية كان علي العودة الى القيـادة (اس) لـوضع اللمسات الأخيرة على برنامج العمل، وقد تقـرر اغـلاق ملف العميل تيمـور وبـالمقـابل عُهِد الي أمـر العميل «رام» قنصل افغـانستـان في طهـران، غير أن أهداف مهمتي في ايران تركزت على مكتب تسجيل النفوس ومديرية الجوازات للكشف عن مستجدات المستندات ومراقبة الاجراءات المتخذة في هـذا الشأن مع مراعاة أوضاع الأجانب هناك.

لم تكن متطلبات القسم الجغرافي السابع كثيرة خاصة بعد زيـارة عـدد من ضباط المخابرات اللاشرعيـة فيما يختصّ بهذا المجـال في طهـران، وكـان أحـد هؤلاء الكولونيل سيرجي بافلوفيتش كارلاشكن ويبلغ الستين من عمره، وهـو ذو شعر أبيض وملامح مخيفة، وأولى مهماته كانت في هولندا التي يتقن لغتهـا

جيداً دون غيرها من اللغات، وقد تركز دوره على تأمين الاتصالات مع اللاشرعيين. أما في طهران فقد أوكلت اليه مهمة العمل في المستشفى السوفياتي في طهران كنائب للمدير الاداري، ولكن الجميع كانوا يدركون أن ذلك تم بتدبير خاص من رؤسائه بهدف تزويدهم بالأدوية الغربية التي يحتاجونها من هناك.

قبيل مغادرتي الى طهران كان علي مراجعة مجلس السوفيات الأعلى لإقرار الإذن بالسفر، وقد علمت أن موعد المغادرة سيكون في ١١ حزيران / يونيو. طلب مني اسماعيل شراء بطاقة السفر بالقطار (موسكو ـ طهران)، فسألت مندهشاً: «ألا يتعين على الـ كي. جي. بي تأمين بطاقة السفر للضابط؟»، فرد قائلاً: «أجل، للضباط الكبار فقط، ولكن هذا الإجراء لا يشمل الجميع وأنا من ضمنهم».

كان الأمر مثيراً للعجب، فرحت أتساءل عما إذا كانت مهمتي ستُلْغى في حال عدم تمكني من تأمين بطاقة السفر بنفسي.

كان هنالك ٨٠٠ خبير سوفياتي يشاركون في عملية التطوير الاقتصادي في ايران، وكانت حركة التنقل متواصلة بين البلدين الى درجة دفعت بالمنظمات للمسارعة في حجز بطاقات السفر جواً وبحراً قبل سنة من الموعد.

لذلك لم يكن عمال الحديد والحفارات يشغلون بالهم في موضوع الحجز إذ كانت بطاقاتهم جاهزة ومؤمنة دئماً، وذلك على عكس ضباط المخابرات والدبلوماسيين الأمر الذي شجع موظفي وكالات السفر على قبض الرشاوى. لذا لم أستغرب عندما جاء الجواب على طلبي حجز بطاقة بأن الرحلات محجوزة لمدة ستة أشهر قادمة، وقد حاولت عبثاً إفهام الفتاة أنني من وزارة الخارجية ومكلف بالذهاب في مهمة رسمية. وعندما فقدت الأمل اتصلت بإسماعيل طالباً المساعدة، فكان رده أن على تدبير أمري بنفسي وإلا فكيف أحمل صفة ضابط مخابرات.

أخيراً، وبمساعدة كوليا سنتكوف، حصلت على بطاقة السفر، وقد احتاج الأمر على علبة من الشوكولا قدمتها هدية للفتاة في مكتب السفريات.

قبل سفري دعيت لمقابلة جومانيوك نائب رئيس قيادة الكادرات في الـ كي. جي. بي، حيث طلب مني حمل صندوق من المواد الغذائية لابنه الذي

يعمل في الـ كي . جي . بي في طهران .

وفي المساء دعوت الزملاء الضباط الى مطعم برلين، حيث تناولنا العشاء وتبادلنا النكات ومجاملات التوديع . وفي نهاية السهرة أصر فولوديا ناليتوف على مرافقتي الى المحطة للمساعدة على نقل الحقائب .

بعد توديع الأهل والأقارب توجهت الى محطة القطار حيث فوجئت بإسماعيل وزوجته اللذين قدما لوداعي، وكذلك جومانيوك وزوجته .

في الصالة رقم (٤) المزدحمة بالمسافرين الى ايران وجلهم من الخبراء السوفيات تقدم مني كثيرون طالبين مني حمل صناديق الى أولادهم الذين يعملون هناك في السفارة، وقد استجبت لطلبهم . وقبيل موعد انطلاق القطار بخمس عشرة دقيقة أذيع عبر مكبرات الصوت أن القطار سينطلق من الصالة رقم (٨) بدلاً من رقم (٤)، فدبّت الفوضى، وراح الجميع يتسابقون مهرولين نزولاً على الأدراج باتجاه الصالة رقم (٨) حيث صدمتنا مفاجأة أخرى، إذ أغلقت عربتا القطار وتوجب علينا الصعود الى عربات أخرى، وكان مستوى الباب في الغربة على علو متر ونصف المتر، وعندما فتح الباب بدأ الناس يتدافعون بشكل هستيري وراح قسم منهم يدخل من النوافذ والحقائب خلفهم . وبدا الأمر كالحلم أو لقطة من فيلم الحرب الأهلية الروسية، وقد تمثل لي كأنه صورة السفينة الأخيرة مغادرة كريميا وهي مكتظة بالجيش الأبيض .

استمر الناس بدفع وركل بعضهم بعضاً . وفجأة صاح ناليتوف : «هذا الرجل هو قنصل سفارتنا في طهران وإذا لم توقفوا هذه الفوضى فوراً فلن يغادر أحدكم المكان» . وقال ذلك رغم معرفته أن سلطتي لم تكن تخولني اتخاذ أي عمل من هذا القبيل .

وجاءت النتيجة بجدوى، ففجأة هدأت العاصفة وتسمّر الناس في أماكنهم . إذ ذاك دخلت العربة حاملاً الحقائب كلها . وبعد إعادة ترتيبها انطرحت على الفراش مستسلماً لنوم عميق .

الجزء الثاني

الرفيق سيدوف

الفصل السادس

في القطار الى طهران ـ السفارة في شارع تشرشل

مدة الرحلة من موسكو الى طهران أربعة أيام. وفي جو شديد الحرارة في صيف ١٩٧٧ انطلق القطار الى الجنوب الشرقي باتجاه القوقاز. العربات مجهزة بالمكيفات إلا أنها كالعادة لم تكن صالحة. أما المطعم ويقع في وسط القطار فكان قذراً والطعام مقرفاً. ولم يكن ذلك مستغرباً، فالخدمة في الاتحاد السوفياتي واضحة: «خذه أو اتركه». وكانت المضيفة من اذربيجان تغش الركاب وتعاملهم بفظاظة.

أخيراً، وصلنا محطة «دزلفه» عند الحدود الايرانية السوفياتية، وبدا رجال جمارك اذربيجان ذوو الشعر الأسود والعيون السوداء ببذلاتهم الرمادية اللون، وقد بادرونا بالسؤال عما إذا كان ثمة مبعوثون دبلوماسيون، وصدف أنني كنت الوحيد الذي يحمل هذه الصفة. فطُلب مني التوجه الى مطعم المحطة للاستراحة لحين إتمام عملية التدقيق مع الركاب. وعند عودتي الى القطار بعد انتظار قارب الساعة شاهدت رجال الجمارك يعبئون أكياساً من المواد الغذائية اصطحبها الخبراء معهم، وهي عبارة عن معلبات من اللحم والسمك والنقانق الجافة والكافيار، وزجاجات من الفودكا والكونياك، وبعد أن فرغوا من تعبئة الأكياس حملوها على ظهورهم وغادروا. وتابع القطار الرحلة.

ومن خلال حديث جرى مع أحد الخبراء السوفيات علمت أن الجمارك السوفياتية تسمح للمسافرين بنقل كمية محددة من المواد الغذائية والمعلبات، ولكن أحداً لم يكن ليتقيد بما هو مسموح، وقد ذكرت سابقاً أن سبب ذلك يعود الى حرص الموفد الى خارج الاتحاد السوفياتي على توفير المال.

غير أنه مع مرور الوقت تبدل مزاج المسؤولين في الجمارك، فلم يعودوا مهتمين بالمعلبات المحتوية على لحم الخنزير، ولكن التشدد في عملية التفتيش

يبلغ ذروته خلال فترة الأعياد للحؤول دون إدخال المشروبات الروحية. لذا فإن الخبراء السوفيات لجأوا الى إخفاء زجاجات الفودكا بوسائل مختلفة. ورغم ذلك لم يحدث أن أوقف أي من الخبراء بسبب نقله مواداً غذائية أو مشروبات كحولية، وبالتالي فإن أياً من المسافرين لم يكن ليظهر الشكوى من معاملة الجمارك له، وذلك من منطلق الحفاظ على استمرارية المصالح المشتركة. وكأنّ ثمة قناعة تعبر عن نفسها على نحو تلقائي: يَدٌ تغسل الأخرى.

ولم نكد نقترب من الحدود حتى توقفنا عند حاجز تفتيش تابع لحرس الحدود السوفياتي، وكان معظمهم من المتطوعين الشبان، ومهمة هؤلاء التدقيق في جوازات السفر والتأكد من عدم وجود هاربين أو مغادرين بطريقة غير قانونية.

وعند دخولنا الأراضي الايرانية أوقف القطار مجدداً، وصعد رجال الحدود الايرانيون للتدقيق في جوازات السفر، وقد ابقوها معهم مؤقتاً ولتعاد الينا لاحقاً، ومن بعد تابع القطار سيره الى محطة دزلفه الايرانية حيث جاء دور الجمارك. اقترب أحدهم وطلب مني فتح حقائبي، وحين أبلغته بصفتي الدبلوماسية طلب جواز سفري الذي كان ما زال مع حرس الحدود، ولكنه أصر على فتح حقائبي، وعندما أبديت اعتراضي أشار الى عسكري للمباشرة بعملية التفتيش، وبدأت الأمور تأخذ منعطفاً آخر. وما كاد العسكري يتقدم من الحقائب حتى ظهر حارس ممن دققوا بجوارات السفر وناداه الى خارج العربة، وبعد دقيقة أرجع إليّ جواز سفري مع الاعتذار.

لاحقاً رفعت عربتنا برافعة ضخمة لتوضع على سكة أخرى، إذ أن قياس عربات السكة الحديدية في ايران أضيق مما هي عليه في الاتحاد السوفياتي. ومع انتهاء التفتيش منع خروج الركاب من العربات، غير أني لاحظت وجود الخبراء السوفيات وهم يروجون جيئة وذهاباً برفقة الايرانيين، وكان أحد هؤلاء قصير القامة ويرتدي بنطلوناً رمادي اللون راح يتحدث مع الايرانيين وهو يبتسم ويربت عل أكتافهم. ورغم الحظر المفروض صعد الى القطار واتجه نحو العربة ذاتها حيث كنت، وتبين أن زوجته وابنته كانتا بين الركاب.

التفت الرجل نحوي وسألني مبدياً ابتسامة مجاملة: «انت ذاهب الى ايران؟». أجبته: «أجل». قال: «والى أي شركة أو مؤسسة.. إذا سمحت بالسؤال؟» قلت: «الى السفارة». عاد يقول: «آه، أجل.. وهل لي أن أسأل

مركز من ستأخذ هناك؟» .

بدا الرجل مزعجاً بأسئلته . . ولكن حاستي السادسة نبهتني الى أنـه أحـد موظفي السفارة ، فأجبته : «ياشينكو» .

قال : «أجل ، فنحن ننتظرك منذ مدة . . يورا بيريبلكن ـ عرّف عن نفسه ـ نحن إذن في مكتب واحد . . هيا تعال الى غرفتنا ، فقد أحضرت زوجتي بعض الكونياك ، وعلينا أن نحتفل بوصولك» .

وعندما حاولت تنبيهه الى أنها الساعة الثامنة صباحاً وما زال الوقت مبكـراً لتناول الشراب قال يورا إن ذلك سيكون الدرس الأول لي . . فضابط المخابرات عليه أن يشرب في أي وقت وأي مكان ومع أي كان .

ولم أجد مفراً من الذهاب معه الى الغـرفـة ولكني اعتـذرت عن مشـاركتـه الشراب . ويبدو أن زوجته سبق أن أخبرته عن الإشكـال الـذي حـدث لي مع المسؤول في الجمارك ، إذ أنه طلب من أن أدله عليه من بين مجموعـة كـانت على رصيف المحطة . وحين أشرت الى الرجل قال يورا : «آه . . السيد . . [لا أذكـر اسمه] ولكن هذا ليس من رجال الجمارك ، بل هو من عناصر السافاك . . وهو على أية حال ليس شخصاً سيئاً إذا عرفته عن قرب . . ولكنه يتبـاهى بكـرهـه لنا» .

لقد استغرقت الرحلة من دزلفه الى طهران ستاً وثلاثين ساعة . إذ أننا غادرنا موسكو مساء السبت ووصلنا طهران بعد ظهر الأربعاء . وكان في استقبـالي في المحطة ساشا ياشينكو، وهو رجل طويل القامة في الثلاثين من عمره ذو شعر أسود ونظرة ودية .

كان السير مزدحماً في طهران ، والايرانيون عادة لا يتقيدون بإشارات المرور، فكل منهم يقود سيارته كما يحلو له . ولم يكن ياشينكو ليشذ عن العادة ، وقـد انطلقنا بسيارته البيجو ٥٠٤ الى أن وصلنا مقر السفارة الروسيـة الـذي يقع في شارع تشرشل وسط المدينة ، وكان المبنى مؤلفاً من خمسة طوابق ذات هنـدسـة سوفياتية .

كان سكني في الطابق الرابع في السفارة مؤلفاً من غرفـة نـوم ومطبخ صغير وحمام . وكانت الجدران مطلية باللـون الـرمـادي ، والمفـروشـات أحضرت من الاتحاد السوفياتي منذ خمسة عشرة سنة تقريباً . بعد ترتيب أمتعتي تـوجهت الى

مقر السفارة الصيفي في زارقند التي تبعد حوالى أربعة عشر كيلو متراً الى الشمال من طهـران ، إذ ان فصل الصيف هنـاك أفضل منـه في وسط طهـران كما أن الموسرين الايرانيين يسكنون تلك المنطقة إضافة الى الدبلوماسيين ووجود أغلبية السفارات .

ويحتل المقـر السـوفيـاتي مسـاحـة كبيرة تشتمل على مسكن السفير وشقق جانبية بعضها مؤلف من غرفة نوم واحدة والبعض الآخر من غرفتين أو ثـلاث غرف مخصصة للدبلوماسيين كل حسب منصبه .

دعاني ساشا وزوجته لتناول العشاء معهما وراح يسألني عن أخبار المركز في موسكو، وكذلك أعلمني أن موعد مغادرته سيكون بعد أسبوع ، وأن عليـه في هذه المرة إطلاعي على كل الأمور اعتباراً من الساعة الثامنـة من صبـاح اليـوم التالي . وقد فهمت منه أن سكني الحالي في السفارة مؤقت ، وأن إقامتي ستكون في زارقند .

في اليوم التالي وصلت السفارة في الثامنة صباحاً ، وسألت عن يـاشينكـو ، فأجـابني الحارس إنـه في المقهى المواجـه يتنـاول كأسـاً من البيرة بـرفقـة أحـد الأصدقاء وسيعود بعد قليل ، وقد بدا من كلامه أن مثل هـذا الأمـر طبيعي لا غرابة فيه .

عند عودة ياشينكو دخلنا السفارة ، وكـان البـاب الـرئيسي مغلقـاً كما هي العادة ، ضغط ياشينكو على الجرس ، وبعد أن فتح الباب اوتوماتيكياً إذا نحن في الصـالـة الـداخليـة ، على جـانب الصـالـة جلست امـرأة تبين أنها زوجـة «رسدين» وهو ضابط أمن في السفارة ، استقبلتنا بابتسامـة . على الحائط كـان ثمة صورتان ترمزان الى الاجتماع الذي عقد في طهـران خـلال الحرب العـالميـة الثـانيـة بين المتحـالفين الثـلاثـة : ستـالين ، تشرشل ، وروزفلت . وقـد عقـد الاجتماع في هذا المبنى ذاته .

المبنى مؤلف من ستة طوابق ، خصص الأول لسكن القنصل ، أما الطـابق الثاني فكـان يستعمل من قبل رجـال الأمن المكلفين بحـراسـة السفـارة . وفي الطابق الثالث صالة الاستقبال ومكتب السفير إضافة الى غرف أخرى يشغلها ضيـوف وزارة الخارجيـة ، فيما خصص كل من الطـابق الـرابع والخامس الى مسؤولي الـ كي . جي . بي بينما شغلت مخابرات الجيش الطابق السادس .

صعدت مع ساشا ياشينكو الى الطابق الرابع حيث مكتب ضابط الـ كي . جي . بي الكولونيل ليف بتروفيتش كوسترومين الذي كان وصوله الى طهران قبيل قدومي بشهر واحد ليتسلم مهام الأمور هنا بعد ن كان يشغل منصب نائب رئيس القسم الثامن في القيادة العليا الأولى . وقد سبق لي أن التقيته في موسكو خلال فترة البرنامج التعليمي . طلب كوسترومين من ساشا تقديمي الى السفير لانشغاله ببعض الأمور، وقد اتضح لي فيما بعد أن كوسترومين لم يكن على وفاق مع السفير.

في غرفة الانتظار جلس السكرتير الخاص ويدعى مكسيم بشكوف وهو الملحق وحفيد الكاتب الشهير مكسيم غوركي ، وقد رحب بنا الحاضرون ، وبدا ساشا على معرفة بأكثرهم . شعرت أن الجميع يعلمون أني ضابط كي . جي . بي كما اتضح لي لاحقاً، وذلك بحكم قرب موقع كل من وزارة الخارجية والـ كي . جي . بي، ولهذا السبب كان الجميع مطلعين على أوضاع بعضهم بعضاً .

أما السفير السوفياتي في ايران فكان فلاديمير ميخايلوفتش فينوغرادوف ، وهو ذلك الذي عاد الى موسكو بوصمة عار بعد أن مثل بلاده خلال عهد السادات الذي تم فيه طرد المستشارين السوفيات خارج مصر عام ١٩٧٢ . لقد تبين أن فينوغرادوف تمتع بمساندة قوية داخل مجلس السوفيات الأعلى ، إذ عين بعد عودته نائباً لوزير الخارجية ، ولكنه لم يكن موفقاً أيضاً ، فأقصي عن منصبه ، ثم أوفد الى ايران التي وصلها في شباط / فبراير ١٩٧٧ . وقد كان فينوغرادوف يكره الـ كي . جي . بي ولا سيما بعد فشله في مصر، وكان الانطباع الأول إثر مقابلتي له لأول مرة أنه شخص طبيعي ، غير أن من خبره علق أنه انطباع خادع .

بدأ ياشينكو عملية التسليم بشرح عن البنية التحتية للسفارة السوفياتية . فالسفير هو الدبلوماسي المسؤول وغالباً ما يكون عضواً في مجلس السوفيات الأعلى ، ويعتبر راتبه الأعلى بين المجموعات السوفياتية في الخارج ، وبالتالي هو الممثل الأعلى للحكومة وأيضاً المرجع الأول لجميع أعضاء وموظفي السفارة ويندرج تحت ذلك جهاز الـ كي . جي . بي .

ويلي السفير في المقام القنصل العام الذي يعتبر الثاني من حيث المنصب لا الأهمية ، وهو يمثل وزارة الخارجية ومن واجباته تسلم مهام السفير أثناء غيابه .

وقد تسلم هذا المنصب في طهران فيدور سولشنكـوف، وفي اعتقـاد الاميركيين والسلطات المحلية أنه مسؤول الـ كي. جي. بي وقد ذكر اسمه في كتاب جون بارون «الــ كي. جي. بي: العمل السري للعمـلاء السـوفيـات (١٩٧٤)». ولكن الواقع أن سولشنكوف كان دبلوماسياً عادياً وليس ضـابط كي. جي. بي.

أما هيكلية السفارة فكانت على النحو التالي:

- القسـم السياسي
- القسـم الاقتصادي
- القسـم الاداري
- القسـم القنصلي
- مكتب الملحق العسكري

أما البعثة التجارية فكانت مستقلة، وكما هو متبع في الدول المتقـدمـة فإن هناك بعثة المجلس الأعلى للعلاقات الاقتصادية.

إن هيكلية السفارات السوفياتية في الأساس مركزية، كما هو الحال في بنيـة النظام السوفياتي مع فارق بسيط، ولكن البنية الحقيقية للسفارة مختلفة كثيراً عما يجب أن تكون عليه قانونياً، إذ كانت على الشكل الآتي:

- دبلوماسيون عن وزارة الخارجية
- ممثلون عن مجلس السوفيات الأعلى
- ممثلون عن المجلس الأعلى للنقابات التجارية
- جهاز الـ كي. جي. بي
- مخابرات الجيش

كانت مهام الدبلوماسيين السوفيات هي ذاتها عنـد دبلـومـاسيي البلـدان الأخرى، إن عليهم الاتصال بالمنظمات كافة في البلدان المعينين فيها، وكذلك إقامة علاقات شخصية، والحصول على معلومات سيـاسيـة. ويتـوجب على الدبلوماسيين إبقاء اتصالاتهم بالاجانب ضمن إطار حذر، ومن النادر أن يرى

دبلوماسي ـ حتى في الوقت الراهن ـ مجتمعاً مع مصدر معلوماته في مطعم مثلاً. ولتجنب الوقوع في المحاذير توضع جداول المصاريف بتصرف السفير وبإشرافه، وهو لا يحبّذ أن تتم الاتصالات في المطاعم، والسفراء السوفيات يستفيدون مما تفرزه تلك المصاريف المتنوعة باعتبارها غير خاضعة للائحة حسابية واضحة حتى يمكنهم تجييرها لحسابهم الشخصي.

إن جل ما يقوم به الدبلوماسيون في أغلب الأوقات هو نقل أخبار الصحف والمجلات بعد ترجمة المهم منها الى وزارة الخارجية.

ويوازي مقام مندوب مجلس السوفيات الأعلى الأهمية ذاتها التي يتمتع بها السفير، وهو ما يمثله القنصل في السفارة، ومن واجبه الحفاظ على الصلات والعلاقات الجيدة مع الحزب الشيوعي المحلي في البلاد التي يقيم فيها.

أما في ايران فلم يكن من داع لوجود مسؤول من القسم الدولي في هذا المنصب، إذ لم تسمح الحكومة الايرانية بتأسيس حزب شيوعي هناك، غير ان وجود ثمانية آلاف خبير سوفياتي في البلاد استدعى إسناد المنصب الى المجلس الأعلى لقسم الكادرات في الخارج، وذلك من أجل تنظيم العمل الحزبي عقائدياً بين صفوف الحزبيين، إضافة الى مهمة جمع ما يتوجب على أعضاء الحزب من مدفوعات بالعملة الصعبة، وكون جميع المواطنين السوفيات في الخارج أعضاءاً في الحزب فقد كانت حصيلة المبالغ الشهرية التي تجمع كبيرة. كما يتوجب على مجلس السوفيات الأعلى، لا على الـ كي. جي. بي، الاشراف على أحوال الموظفين السوفيات وتصرفاتهم، ويعود إليه قرار تمديد فترة عمل هؤلاء في السفارة بمن فيهم أعضاء الـ كي. جي. بي.

في ذلك الحين كان ممثل مجلس السوفيات الأعلى في ايران يدعى ابراهيم ازنفيتش امانغليف، وكان في الماضي مسؤولاً عن الكومسومول في كازاخستان، وقيل إنه فشل في مهمته آنذاك و «عقاباً له» على ذلك نقل الى موسكو، وانتهى به المطاف الى أن أصبح عضواً في المجلس المركزي.

أما ممثل المجلس الأعلى للنقابات التجارية فوجوده أساسي، مع العلم أنه لا يشغل أي منصب دبلوماسي، ومهمته تنظيم الأنشطة الثقافية للمواطنين السوفيات في الخارج، وكذلك عرض المسرحيات والأفلام السوفياتية، والهدف من ذلك إبعاد المواطنين السوفيات عن التأثر بأجواء الأنشطة الرأسمالية المحلية.

كان مقر القسم القنصلي في بناية أخرى مقابلة لمبنى السفارة. وعندما وصلت كان هناك خمسة أشخاص يعملون في المبنى، واحد منهم موفد من وزارة الخارجية والأربعة الباقون هم من الـ كي. جي. بي وكان نائب القنصل أناتولي سزونوف من المخابرات، وفكتور كزاكوف ضابط مخابرات سياسية، مهمته إعطاء التأشيرات للايرانيين ولغيرهم من دبلوماسيين ورجال أعمال وسياح، وكان علي الامتناع عن منح تأشيرات لغير المرغوب بدخولهم الأراضي السوفياتية من أعداء ومعارضين سياسيين ومهربين، وذلك عن طريق مراجعة اللوائح السوداء للتأكد من هوية الأشخاص وقد ضمت حوالى ثمانمائة صفحة من الأسماء. ولقد كان الحصول على تأشيرة في غاية الصعوبة، والتأشيرة السياحية تستلزم تصريحاً عن برنامج الزيارة، ويتم الحصول على ذلك من مكتب السياحة، أما تأشيرات العبور للأراضي السوفياتية فتعطى للأجانب حاملي بطاقات السفر مبين فيها تاريخ مغادرة الأراضي السوفياتية، شرط أن لا تتعدى المدة أربعة أيام ما بين الدخول والخروج. وفيما يختص بالتأشيرات الدبلوماسية فهي تعطى بناءاً على تعليمات من موسكو، وتختم التأشيرة على ورقة خاصة لا على جواز السفر، وكذلك ختم الدخول والخروج، وذلك تجنباً لإشكالات قد تحدث نتيجة زيارة الشخص لبلد شيوعي. وبالنسبة للأشخاص الذين يدخلون الى الاتحاد السوفياتي بدعوة من وزارة الدفاع لشراء المعدات والأسلحة بشكل سري تدون عبارة (اختصاص) وتظهر في خانة (سبب الزيارة) على الاستمارة الخاصة. وفي العادة تعطى هذه التأشيرات الى الأفراد من المجموعات الفلسطينية الذين يذهبون للتدريب في الاتحاد السوفياتي.

في ذلك الحين كان المسافرون الأفغان المشكلة الصعبة التي تواجه القسم القنصلي. فهؤلاء كانوا يتطلعون الى حياة أفضل، وهم يذهبون أولاً الى ايران ليسافروا بعدها الى أوروبا الغربية مروراً بالاتحاد السوفياتي وبولندا وتشيكوسلوفاكيا، وخلال وجودهم في ايران يشترون كميات من البضائع التي يندر وجودها في تلك البلدان لبيعها هناك، كما كانوا يشترون البضائع من المانيا الاتحادية ويبيعونها في البلدان الواقعة تحت النفوذ السوفياتي. أما الأفغان الأغنياء فكانت عودتهم الى ايران مختلفة إذ أنهم كانوا يشترون سيارات المرسيدس والـ BMW ويقودونها بأنفسهم الى النمسا ويوغوسلافيا وبلغاريا وتركيا وايران حتى حدود افغانستان حيث يبيعونها لتجار السيارات بأسعار

تفوق ثلاثة أضعاف ما دفعوه، ومن ثمَّ يعودون أدراجهم باتجاه اوروبا الغربية للغاية ذاتها.

أما أسباب تفضيل هؤلاء للسفر عبر الاتحاد السوفياتي فيعود الى انخفاض ثمن بطاقة السفر بالقطار عما هو عليه في مكان آخر، والى أنه ببيعهم البضائع في موسكو يستردون ثمن البطاقة مع ربح إضافي، ومن ناحية أخرى فان هؤلاء كانوا يتوقون الى أن يظلوا على تواصل مع معارفهم، فكان للعديد منهم صاحيات روسيات كما أن لبعضهم زوجات هناك. وقد كان الافغانيون يشعرون بالود نحو السوفيات، غير أن ذلك لم يدم طويلاً.

وعندما كنت أعمل في القسم القنصلي كانت التأشيرات التي تمنح للأفغانيين يُقارب عددها السبعين تأشيرة اسبوعياً. وقد ازداد هذا العدد لاحقاً بحكم حركة العمل الذي شهد مردوداً مربحاً في ذلك الحين.

ومن ناحية أخرى فإن رجال الجمارك كانوا يلقون القبض على الأفغان لمخالفتهم القوانين إذ كان الكثيرون منهم يهربون المخدرات، وكانت السلطات المختصة تقوم بطردهم من البلاد فتدوّن أسماء المخالفين على اللوائح السوداء، ولكن سرعان ما كان أفغان آخرون جدد ينوبون عن أولئك المطرودين ويحلون محلهم، فتعود كرة العمل الى الدوران. وبالرغم من تعليمات موسكو للتشدد في منح التأشيرات الى الأفغانيين وخفضها فلم تكن باليد حيلة.. فليس ثمة من قانون دولي يجيز ذلك.

لقد كان دوام العمل في القسم القنصلي يبدأ من الساعة الثامنة صباحاً وينتهي في الساعة الحادية عشرة، واستقبال الزائرين يتم طوال هذه الفترة وذلك بناءاً على اتفاق شفهي بين وزارة الخارجية والـ كي. جي. بي ومخابرات الجيش، وبما أن أربعة من المسؤولين الخمسة في قسمنا هم من الـ كي. جي. بي. فقد اقتضى ذلك اغلاق مكتب التأشيرات في الساعة الحادية عشرة صباحاً. بعد هذا الموعد يبقى موظف وزارة الخارجية لتسلم الأوراق، غير أنه كان يختفي ويذهب الى الغداء في وقت مبكر.

بعد الانتهاء من العمل في القسم القنصلي لمدة ثلاث ساعات، كان عملي الرئيسي يبدأ في مقر الـ كي. جي. بي.

الفصل السابع

مسكن الـ كي . جي . بي . ـ العميل «رام» ـ
المستوى المنحط ـ السافاك ـ المناخ الخلقي

كان مقر الـ كي . جي . بي في الطابق الرابع من السفارة ويشغل ثلثي المساحة التي يتخللها ممر وزعت على جانبيه أربعة مكاتب خصصت للدبلوماسيين، وفي نهاية الممر باب مغلق بشكل دائم هو المدخل الى القيادة . أما الدخول فيتم بعد ضغط الأزرار على قفل أوتوماتيكي علق الى يسار الباب، وكانت تركيبة القفل تتغير من وقت لآخر وبمعرفة ضباط المقر فقط .

ولم تكن المساحة التي يشغلها المقر كبيرة . فإلى اليمين خلف مكتب الرئيس يقع مكتب نائبه، وإلى اليسار توجد مكاتب رئيس المخابرات ورئيس المخابرات التقنية والعلمية، فغرفة ضباط المعلومات، فغرفة العمل المشتركة للضباط حيث كان اجتماعي بـ ياشينكوف لعدم توفر غرفة خاصة به، ومساحة هذه الغرفة حوالى ٦ × ١٠ أمتار وتتوزع فيها طاولات بلاستيكية وبضع كراسٍ وفيها نافذة كبيرة احتلت الجدار المقابل للباب، وللنافذة زجاج خاص من الداخل وآخر من الخارج يبعد الواحد عن الآخر نصف متر، وهذا التصميم قصد به تفادي التنصت بواسطة الميكروفون اللايزر، وكانت الأوامر تقضي بإغلاق الستائر عند حلول الظلام حتى لا يُرى من الخارج أيّ الغرف مضاءة بشكل دائم .

عند دخولنا الغرفة العامة ضغط ساشا على ما بدا علبة الأضواء فصدر صوت غريب ملأ الغرفة، وقد فسّر الأمر على أنه جهاز دفاعي لموجات الصوت للحؤول دون أية محاولة لاختلاس السمع، ولذا فإنه قبيل الشروع بالتحدث ينبغي الحرص على صغط الزر، على مختلف الجدران العازلة للصوت ثمةلوحات من الصلب ثبتت عليها آلات الكترونية تبعد الواحدة عن الأخرى

حوالى المتر وتبث موجات مغناطيسية، وقد أشرف خبراؤنا على تجهيز هذه الغرفة المانعة مئة بالمئة بحيث يستحيل دسّ أجهزة تنصت في داخلها من غير أن تكتشف، فالذبذبات الألكترومغناطيسية تحول دون استراق السمع. ومن جانبنا فقد اتخذنا أقصى درجات الحذر عند حديثنا عن عمليات ذات طابع سري.

راح ياشينكو يطلعني على بنية الـ كي. جي. بي في الخارج، وأبلغني أن رئيسها هو ممثل للقسم الجغرافي في المخابرات السياسية، وعادة ما يكون برتبة كولونيل أو جنرال، وذلك حسب أهمية البلدان التي يخدمها. وبالتالي فإن كل التقارير الموجهة الى القيادة العليا يجب أن تكون ممهورة بتوقيعه. وبالمقابل فإن جميع تقارير القيادة ترسل فقط اليه، وهو يختار الجهة التي يرسل المعلومات اليها في الـ كي. جي. بي، وعادة ما يقوم بإرسالها الى القسم الجغرافي أو الى رئيس القيادة العليا الأولى ورئيس الـ كي. جي. بي، ولكن يحظر عليه الاتصال مباشرة بمجلس السوفيات الأعلى.

أما نائب الرئيس فيتولى رئاسة المخابرات السياسية واليه يعود القرار في غياب الرئيس، وبالتالي يعتبر مسؤولاً عن المعلومات السياسية واعدادها ليتم ارسالها الى القيادة العليا في موسكو، وكان يدعى الملازم كولونيل جنادي كزانكن، وهو في الاربعين من العمر ذو مظهر لائق، ولكنه لا ينمّ عن جدية.

أما المخابرات الخارجية والتي تعرف بالمخابرات الثقافية فدورها اختراق مخابرات العدو وتوفير حماية المواطنين السوفيات في الخارج، ورئيسها يدعى الملازم كولونيل يوري دنسوف.

من جهة أخرى كان القسم (اكس) المعروف بالمخابرات التقنية والعلمية وقد عمل فيه شخصان في طهران هما الكولونيل فالنتين شكابكن ومساعده الكولونيل انتولي زكرسكي، فتخفى الأول وراء البعثة التجارية والثاني خلف منصب السكرتير العلمي الأول في السفارة، وقد ادعيا معاً أنهما من قسم «الكولونيلات السود» وهو الاسم السوفياتي للحكومة العسكرية اليونانية بين الأعوام ١٩٦٧ ـ ١٩٧٤. وكان اسمهما مطابقاً لما مثلاه بالفعل.. فهما لم يقوما بأي عمل ذي منفعة.

العميل اللاشرعي في مقر الـ كي. جي. بي في السفارة يسمى القسم (ان)، ويتولى حماية افرادنا اللاشرعيين في البلاد، وياشينكو هو الممثل للقسم

(ان). أما الضابط الآخر الذي معه فيعمل في المستشفى السوفياتي واسمه سيرجي بافلوفيتش كارلشكن، وقد سبقني بالوصول الى طهران بثلاثة أشهر، ولكن ساشا أبلغني أنه لا يمكن الاعتماد عليه، لأن كارلشكن يتذرع على الدوام بأنه لا يتكلم الانجليزية والفارسية.

وعندما حان تسليمي مجمل الملفات والأوراق تبين لي أنها جميعها محفوظة في الطابق الخامس في السفارة، فصعدنا الى هناك حيث ضغط ساشا على أزرار العلبة المعلقة على الباب الخشبي الشبيه بذلك الباب في المقر الخاص بالـ كي. جي. بي في الطابق الرابع، وكان قد ذكر لي أن مسؤولي الشيفرة والراديو من كل منظمة ممثلة في السفارة يعملون في الطابق الخامس، وهم على التوالي: اثنان مختصان بالشيفرة وعامل راديو من قبل وزارة الخارجية، ثم اثنان بالشيفرة وعامل راديو من الـ كي. جي. بي، ثم اثنان للشيفرة مع عامل راديو من مخابرات الجيش، ثم واحد للشيفرة من البعثة التجارية وآخر من المجلس الأعلى للعلاقات الاقتصادية.

عندما فتح الباب الخشبي فوجئت بباب آخر من الصلب، وكان المسؤول عن فتح هذا الباب اناتولي جومانيوك ابن نائب رئيس قيادة الكادرات في الـ كي. جي. بي وهو نفسه الذي ارسل له والده معي علبة من المواد الغذائية. وقد قام بتقديمي الى عامل راديو الـ كي. جي. بي ايفان بوليوفين وسألني إذا كان شكله يذكرني بأحدهم. وقد شبهته بلينين بسبب صلعته وبروز عظام خديه ولعينيه المصاحبتين بابتسامة.

سلمني بوليونين ملفاً بلاستيكياً بسحّاب ودفتراً ضخماً وختماً خاصاً من الحديد لحماية الملفات. وكان علي أن أوقع في سجل خاص إقراراً بالتسلم. وقد استعملت اسمي الحركي في الـ كي. جي. بي «سيدوف»، مع الاشارة الى أن استعمال الاسماء المستعارة ضروري في المراسلات بين القيادة العليا والمقر في السفارة وذلك تجنباً لافتضاح الاسماء في حال وقوع الرسائل في أيدي الأعداء، وحتى داخل السفارة كان علينا اتباع الطريقة عينها، غير أن هذا لم يطبق عملياً، وكانت الاسماء في ذلك الحين موزعة على النحو التالي:

- رئيس الـ كي. جي. بي ـ سفيريدوف
- رئيس المخابرات ـ أليشن

- رئيس القسم الثامن، القيادة العليا الأولى ـ آردوف
- جميع نواب القيادة (اس) ـ ليونوف

وكانت تلك الاسماء المستعارة تختار من قبل القيادة العليا في موسكو، وغالباً ما تكون اسماء روسية. أما العملاء الأجانب في الـ كي. جي. بي فيعطون أسماء أجنبية، ولكن هذا الاجراء تغير في منتصف السبعينيات فعكست الأسماء، ثم عاد الى التغير بعد ذلك بثلاث سنوات، فأعطيت الألقاب الاجنبية والمحلية لضباط المخابرات وللعملاء دون تفريق، باستثناء عبارة (رفيق) التي تكتب دائماً قبل اسم ضابط المخابرات، وعلى سبيل المثال فقد بدت البرقية التي ارسلت بخصوص وصولي هكذا:

«الى الرفيق ليونوف،

الرفيق سيدوف وصل بسلام الى المقر في ١٥ حزيران / يونيو.

الرفيق ليونوف بدأ بتسلم دوره العملي

عملية تسليم العميل «رام» باشراف سيدوف حددت في ١٩ حزيران / يونيو.

موعد مغادرة الرفيق ليونوف الى الاتحاد السوفياتي حدد في ٢١ حزيران / يونيو.

سفلتوف (إمضاء رئيس المقر)

وبعد تسلمي ملفات العمل عدت برفقة ساشا الى الغرفة المشتركة حيث شرع بتسليمي المستندات المنسوخة عن البرقيات والرسائل التي جرى اتلاف أصولها بعد تدوينها في سجل خاص، إذ كانت الأوامر صارمة بهذا الشأن وتقع مسؤوليتها على عاتق الكاتب المكلف بالشيفرة.

لقد كان ثمة خارطة كبيرة لطهران معلقة على أحد الجدران في الغرفة حددت عليها بالألوان الأماكن التي ينبغي على ضباط المقر تجنبها، من ضمنها مراكز السافاك في المدينة، والمواقع العسكرية، ومراكز الشرطة كافة، إضافة الى مقارّ الوزارات. وقد قسمت الخارطة الى مربعات، وفرض على كل ضابط حين قيامه بمهمة ما تغطية مربع بورقة بيضاء يحدد فيها موقع المهمة ومكان وجوده مبيناً تاريخ ووقت تعليقه الورقة.

أما غرفة التنصت على أجهزة الراديـو فكـانت في الطـابق السـادس حيث يعمل على تسجيل محادثات السافاك والوحدات العسكرية الايرانيـة ومـراكـز الشرطة، وعلى أساس تلك المحادثات يكون تحرك ضباط الــ كي. جي. بي. في المدينة.

وفي الطابق ذاته كان مكتب «مارس» المولج بالتقاط اتصـالات الشيفـرة في الوزارات ومقر قيادة السافاك والسفارة الأميركية. ويحظر على أي كـان دخـول هذه الغرفة باستثناء فيتالي نيكرسوف المسـؤول المختص، وكـانت المعلـومـات ترسل الى القيادة العليا في موسكو التي من اختصاصها حل رموز الشيفرة.

وبالنسبة لعملية تسليم العميل «رام» كتب ساشا على ورقة مراحل الخطـة وسلمهـا الى كيريشنكـو على أمل أن تتم العمليـة خـلال يـومين. ولكن بعـد ذهاب ساشا راح يتوعد متهجماً عليّ ومحذراً أن الأمر ليس بالسهولـة التي أظن وأن ما قام به ساشا عمل أخرق. فالتزمت الصمت ولم أجبه بكلمة.

في الساعة العاشرة من صبيحة اليوم التالي كنا في طريقنا للاجتماع مع «رام» الذي حدد في الساعة الثانية عشرة وثلاثين دقيقة. راح سـاشـا يقـود السيـارة مطوّفاً في شوارع طهران للتأكد من عدم ملاحقتنـا، وأخيراً قـاد بـاتجاه شـارع زوهر شمالي طهران. أطل «رام» بعد وصولنا الى النقطة المتفق عليها بعـد خمس دقائق. كـان طـويل القـامـة ذا شعـر اسـود، وسبق لي أن رأيت صـورتـه في موسكو، ولكنه أوحى لي بانطبـاع مختلف عنـدمـا قـابلتـه شخصيـاً. حـاول التملص من رؤيتي له سابقاً. كان اسمه الحقيقي كرمايون أكرم وهو السكرتير الأول في السفارة الأفغانية في ايران والمسؤول عن القسم القنصلي، وسبق لـه أن قـدم لنـا مستنـدات وأوراقـاً رسميـة أدت الى اعطـاء اثنين من «الـلاشرعيين» الجنسية الأفغانية بطريقة شرعية. وكانت المهمة القادمة هي العمل على تجديد صلاحية جواز سفر «بدوين» أحد اللاشرعيين العاملين خارج ايران.

تم الاجتماع في مطعم مكسيم أحد أفخم المطاعم في طهران، وقـد استهل ساشا الحديث بالاستفسار عن عائلة «رام» وأحوالها، وكذلك عن عملـه، ثم أبلغه بمغادرته الى موسكو وأن عليه متابعـة اتصـالاتـه معي. فـوجـيء الأخير بالأمر وبدا أنه لم يكن على معرفة بمغادرة سـاشـا على الاطـلاق، إذ كـان من الواجب اعداده لتلقي الخبر تجنباً لردة فعله من المفاجأة.

طلب ساشا من رام المساعدة على تمديد صلاحية جواز السفـر، فكـان رده

ايجابياً، بعد ذلك حددت موعد اجتماعي المقبل معه، وكـان ذلك بعـد ستـة أسـابيع، أي في نهايـة شهـر تموز / يـوليـو. بعـد عمليـة التسليم انتهى دور ياشينكو، ولكن لم تحضّر عملية تسليم «كونارد» و «ايفي» اللاشرعيين، حيث انهما كانا خارج البلاد، وكان كارلشكن ينتظـر اتصـالاً منهما. كـانت الأمـور تسير بشكل جيد مما أتاح لي فرصة أكبر للتعرف على المدينة.

أطلعني ساشا على الوضع الخلقي والأجواء النفسيـة السيئـة في السفـارة. فالجميع كانوا يتناولون الكحول، وتقام حفلات يومياً خلف الأبواب المغلقـة. وكان العاملون بمن فيهم ضباط المقر يشاهدون في المقاهي القريبـة، وعلمت أنه طوال السنة الماضية لم تجر أية عملية ذات شأن، وذلك بسبب عـدم تـوفـر الخبراء المختصين، وكان كل من جنادي كزانكن رئيس المخابـرات السيـاسيـة ويوري دنيسوف رئيس المخابرات الثقافية عديم الخبرة، وبالتالي لا يصلحـان للتخطيط لبرنـامج عمل معين، وقـد أدى عـدم كفـاءتهما الى فشل مهمتين اساسيتين، الأولى في أيار / مايو ١٩٧٧ عند ألقي القبض على مسؤول كبير في وزارة التربية الايرانية ويدعى «رباني» من قبل السافاك، وكان الأخير عميلاً للـ كي. جي. بي، وقـد وقعت الحادثـة عنـدمـا ذهب لـلاجتماع مع ايفجين فينيديتكوف وهو ضابط في مقرنـا، ولكن المسـؤول عن التنصت لاحظ وجـود حركة غير طبيعية للسافاك في منطقة الاجتماع فأرسل إشارة تحذيـريـة، غير أن الايرانيين لم يتمكنوا من القبض على ضابطنا بـالجرم المشهـود ممـا اضطـرهـم الى تجنب الفضيحة فلم يطالبوا بطرد فينيديتكوف من البلاد.

أما المخابـرات السـوفيـاتيـة فقـد سبق لها أن جنـدت العميل «ربـاني» في الاربعينيات، وقد عمل لصـالح الـــ كي. جي. بي، ومـا عـرفتـه من الـذين تعاملوا معه أن المعلومات التي كانت ترد من طرفه بحكم كونـه وزيـراً للتربيـة ليست على قدر كبير من الأهمية، غير أنه كان ثمـة معلـومـات عن جلسـات خاصة وأحاديث مع شخصيات رفيعة المستـوى عن عـائلاتهم يقـوم بإرسـالها وكانت مفيدة أحياناً. كانت المخابرات السياسيـة هي المسـؤولـة عن ربـاني، واستمر العديد من ضباط القسم الثامن في القيـادة العليـا الأولى على اتصـال دائم معه طيلة سنوات تعاونه، وكان آخر هؤلاء جنـادي كـزانكن الـذي عـاد فجأة وسلم مهام العميل الى فينيديتكوف أصغر الضبـاط في الخدمـة والـذي كان تعرض لمحاولة توقيف عند اجتماعه الأول مع رباني. وكانت المشاعر نحو كزانكن مثار ارتياب، وبمراجعة الأحداث تبين أن فينيديتكوف طرد من ايـران

بعد ستة أشهر، وكان سبق للسافاك مراقبة تحركات عناصر الـ كي . جي . بي قبل حضور فينيديتكوف الى طهران، وقد عملوا على افراغ زيت الكوابح من سيارته، ولكنه نجا بأعجوبة من موت محتم.

أما الحادثة الثانية فقد وقعت في حزيران/ يونيو ١٩٧٧ قبيل وصولي. فقد عمل بوريس شيشرين وهو ضابط في المخابرات السياسية تحت غطاء مراسل لوكالة «تاس» على تجنيد شخص ايراني، وخلال اجتماع أخير معه لوضع اللمسات الأخيرة برز رجلان وعرّفا عن نفسيهما أنهما من السافاك، وطلبا من شيشرين العمل لصالح جهازهما، فرفض ذلك، وانتهى الموضوع عند هذا الحد دون إلقاء القبض عليه. ولكن ما تبين بعد ذلك أن شيشرين كان هو الطعم طيلة تلك الفترة، إذ كان من المفترض درس المسألة وتحليلها في مقر الـ كي . جي . بي وفي القيادة العليا في موسكو قبل المضي في عملية التجنيد التي آلت الى الفشل.

وقد عمل بعد ذلك على طرد بوريس شيشرين من ايران دون اللجوء الى إحداث أية ضجة اعلامية.

ثم إن شك الايرانيين كان يدور في مناسبات سابقة حول فيدور سولشنكوف القنصل الوزاري في السفارة والمندوب الى وزارة الخارجية الايرانية، إذ اعتقدوا أنه من رجال الـ كي . جي . بي . الى درجة أدت الى انهياره نتيجة الخوف، رغم أن فيدور لم تكن له في الواقع أية علاقة بالمخابرات.

أما السبب الحقيق لانهيار مستوى الـ كي . جي . بي . في ايران فيعود الى التغيرات التي حصلت في بداية سنة ١٩٧٧ بين الضباط ورؤساء الأقسام. فجميع هؤلاء التالية أسماؤهم غادروا طهران عند انتهاء فترة عملهم، وهم: ليونيد بوغرانوف ـ الرئيس، فلاسوف ـ نائبه ورئيس المخابرات السياسية، ليف كوسترومين، رئيس المخابرات الثقافية ـ إضافة الى الضابطين ديمتري كوزمين وفلاديمير فيسنكو، وجميع هؤلاء كانوا اختصاصيين وخبراء في الشؤون الايرانية.

أما جنادي كزانكن رئيس المخابرات السياسية الجديد فقد بدأ عمله في القيادة (اس) كمرشح ليصبح من اللاشرعيين، غير أنه فشل في الامتحان النفساني آخر الدورة. ولكن بما أنه كان ضابط كي . جي . بي . فقد نقل الى القسم الجغرافي في القيادة العليا الأولى حيث تعلم الفارسية، كما عمل على

التخصص في الشؤون الافغانية، ثم انتقل للعمل هناك لمدة سنة، غير أن المرض أعاده الى موسكو. وبعد اكماله الدروس النهائية أرسل الى ايران.

ولم يكن يوري دنيسوف رئيس المخابرات الثقافية أوفر حظاً أو خبرة في الشؤون الايرانية، حتى انه لم يكن يتكلم الفارسية. وقد بدأ عمله في المخابرات الداخلية قبيل الانتقال الى القيادة (كي) التابعة للقيادة العليا الأولى. وسبق أن أوفد الى بورما وبعدها الى ايران.

ولقد درجت العادة على تعيين سائقين لكل من السفير والمستشار الأول وممثل مجلس السوفيات الأعلى، أما الآخرون من الدبلوماسيين فيقودون سياراتهم بأنفسهم أو يستخدمون سائقي وزارة الخارجية خلال زياراتهم الرسمية. وكانت أغلبية سيارات الدبلوماسيين من صنع سوفياتي مثل فولغا ولادا. أما سيارة السفير فكانت من نوع «شيكا» لكنه نادراً ما استعملها مفضلاً عليها المرسيدس الحمراء.

للأسباب المذكورة آنفاً ونتيجة للأوضاع السائدة تقرر ارسال ليف بتروفيتش كوسترومين، وهو نائب رئيس القسم الثامن في القيادة العليا الأولى الى ايران لضبط الأمور.

في ٢١ حزيران / يونيو رافقت ياشينكو الى المحطة حيث غادر الى موسكو، وفي طريق العودة بدأت أشعر بالمسؤولية التي ألقيت على عاتقي.. فإما الغرق أو السباحة.

ففي الساعة الثامنة من صبيحة كل يوم كنت اتجه الى القنصلية حيث يتجمع الأفغان طلباً للتأشيرات، وكان بينهم من هم في حاجة ماسة أو على عجل، وجلهم ممن سبق لهم عبور أو زيارة الاتحاد السوفياتي وحصلوا على تأشيرات، ولكن الأمور بدأت بالتغير يوماً بعد يوم، وبما أن دوام العمل ينتهي في الحادية عشرة فقد أصبح من المتعذر تلبية جميع الطلبات، ولذا فإن عبارة «غداً في الثامنة صباحاً» غدت مقولتي اليومية أرددها وأنا أقفل عائداً بين الجموع.

في الأساس لم يكن لدي ما أفعله في المقر، إذ أن الـ كي. جي. بي. كانت تعتبر الضابط القادم حديثاً يحتاج الى ستة أشهر للتأقلم والتعرف على المدينة، ولكن في ما يختص بعملي فإن الأمر كان مختلفاً، فقد توجب علي متابعة ما كان

يقوم به سلفي، وكان المطلوب تحقيق نتائج جيدة تكون موضع رضى المسؤولين الذين يزعجهم طول الانتظار.

ولقد اعتبرت نفسي محظوظاً لعدم وجود من يرئسني في السفارة، فقد كانت الأوامر تأتيني مباشرة من القيادة العليا، وكان سبق أن اتفق على عدم التسرّع بالشروع في المهام بغرض التعرف بشكل أدق على الأوضاع في طهران.

ركز السافاك جهودهم فكثفوا مراقبتهم على جميع تحركاتنا، ونشروا عناصرهم في محيط السفارة، وكانت احدى نقاط تجمعهم منزلاً يقع على زاوية بين شارعي ستالين وتشرشل إضافة الى دكان لبيع المشروبات غير الكحولية في الشارع المقابل لمدخل السفارة. وكان هؤلاء ذوي خبرات في شؤون المجموعات السوفياتية، ولم يكن من الصعب عليهم معرفة الموفدين الرسميين الجدد والأقسام الموكلة اليهم في السفارة، وقد عملوا على التقاط الصور من داخل الدكان، وكان لديهم أجهزة إرسال للتخابر فيما بينهم. أما الدكان فكان يبدأ عمله منذ السابعة صباحاً وحتى الحادية عشرة مساءً يومياً بما في ذلك أيام العطل والأعياد. وبالرغم من معرفة السافاك اننا نشك بمراقبتهم لنا فإن الأمر لم يزعجهم، وذلك لكونهم يقومون بخدمة بلدهم. وقد ساعدنا فتح الدكان خلال فترة الأعياد الايرانية وإقفال جميع المحلات في الحصول على البيبسي كولا والسفن أب والكندا دراي، ولذلك ساهمنا في تمويل ميزانية السافاك.

أما فيما يختص بكشف هويّات ضباط الـ كي. جي. بي. ومخابرات الجيش فالخطر لم يكن من السافاك بل من تلك الجماعات من مواطنينا الذين نلتقي بهم حيثما توجهنا. فبسبب الأقسام الجغرافية عمل هؤلاء معاً في موسكو وفي السفارات في الخارج، وهم يعرفون كل شيء عن بعضهم بعضاً ويعرفون أيضاً الرتبة التي يحملها كل واحد منهم. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد كانت الثرثرة التي تجري بين السوفيات عرضة للمراقبة وقد وضعت أجهزة التنصت من قبل المخابرات المحلية.

لقد أدركنا كل هذه الأمور، ولكن كان علينا ابقاء العمليات في غاية السرية كي لا نتعرض للاعتقال، إذ ان الواجب الأول لضابط المخابرات هو التعرف على المدينة بشكل جيد، وبالتالي على ظروف العمليات، ولهذه الغاية استعنت بسيارة سلفي وهي من نوع بيجو ٥٠٤ بيضاء اللون. أما السيارات الأخرى الخاصة بالسفارة فكانت موزعة على ثلاثة أقسام: وزارة الخارجية، الـ كي.

جي . بي، ومخابرات الجيش . ولكل من هذه الأقسام سياراته وسائقوه . وتعتبر هذه السيارات من الناحية القانونية ممتلكات شخصية للموظفين الدبلوماسيين وتسجل في وزارة الخارجية في البلد المضيف على هذا الأساس، وهي معفاة من الضرائب، غير أن قيادتها كانت وقفاً على السفير ورئيس الـ كي . جي . بي . ورئيس مخابرات الجيش . أما سيارات الـ كي . جي . بي . ومخابرات الجيش فكانت مختلفة ولم تكن من صنع سوفياتي، فكان هناك ثلاث سيارات من نوع مرسيدس في مقر الـ كي . جي . بي، واحدة فضية اللون (٣٨٠) خاصة بالرئيس، واثنتان (٢٣٠ اس) وواحدة BMW520 ، وأربع سيارات بيجو (٥٠٤) واثنتان من نوع تويوتا، وغيرها . وقد استعملت الـ كي . جي . بي السيارات الأجنبية للتمويه خلال القيام بالعمليات إذ تعتبر هذه السيارات أفضل من الناحية التقنية، خلافاً لما يعتقد بعض الغربيين بأن السبب يعود الى وفرة الأموال لدى الـ كي . جي . بي .

لقد كان من حسن الحظ وجود سيارات فاخرة تابعة للسفارة في وقت كانت الضرائب على السيارات المستوردة تصل الى ٢٠٠٪ . أما الدبلوماسيون فكانوا معفين من ذفع الضرائب، وأجاز القانون لهؤلاء بيع سياراتهم بعد أربع سنوات بالسعر المتداول في السوق، وهو يبلغ ضعفي ثمن سيارة جديدة معفاة من الضرائب . وبهذه الطريقة تمكن الدبلوماسيون من جني ربح إضافي يخولهم شراء سيارة أخرى جديدة، ولم تعترض القيادة العليا على هذه الأمور طالما أنها ضمن إطارها المحدد، فهي على الأقل تتيح الفرصة لشراء سيارات جديدة دون طلب أموال إضافية .

وتحت غطاء العمل بصفة سائق فقد خصص لكل رئيس في المقر شخصان كل منهما برتبة ضابط، وهما في الأصل من القيادة العليا السابعة للـ كي . جي . بي . وهذه الأخيرة تقدم ضباطها في العادة الى القيادة العليا الأولى للعمل في الخارج مع منظمة المراقبة الخارجية . ويكون دورهم التعرف على المنطقة والتأكد من عدم وجود المراقبة خلال العمليات ولا سيما فيما يختص بعمليات اللاشرعيين والعملاء المهمين . وفي العادة يحافظ هؤلاء على علاقة ودية مع سائر السائقين في وزارة الخارجية .

في ما يختص بالـ كي . جي . بي فقد كان هناك سائقان هما ميخائيل تيتكن وايفان يكوروفيتش شينوف، الأول خبير في الملاحقة والمراقبة إضافة الى كونه

على معرفة تامة بشوارع المدينة ، أما الثـاني فكـان عـديم الفـائدة قليل الخبرة . ولكن كلا منهما يمتلك الصفة المميزة التي يعرف بها السائقون السوفيات وهي السكر في أغلب الأحيان .

كان التعرّف على مسالك الطرق في ايران من الأمـور السهلـة . فما على المرء في حال عدم معرفته للموقع سوى النظر باتجاه الجبال المحيطة ليدرك أن الاتجاه هو الى الشمال . أما في طهران العاصمة حيث تكثر الشوارع وتتفرع الطـرقـات فعلى المرء أن يستعين بالتلال المحيطة أو السير باتجاه الشوارع الرئيسية .

ولذا فإنه منذ اقتنائي سيارة البيجو ٥٠٤ البيضـاء وأنـا أطـوف في شـوارع طهران بعد انتهاء فترة العمل في القنصليـة ، وذلك لمدة ثـلاث سـاعـات ، ثم أعود لأصعد الى الطابق السادس حيث كيريشنكو عامل الاتصـال والخبير في شؤون طهران . وبما أنني كنت أقيم في مقر السفارة الصيفي فقـد اتفق على أن أسلك طرقاً مختلفة كل يـومين أو ثـلاثـة ، وبهذه الطـريقـة أتعـرف أكثـر على المدينة ، وبالتالي أتأكد من عدم مـلاحقتي ، ولأجل ذلك نصحني كيريشنكـو بعدم القيادة في الشوارع الرئيسية ، بل اللجوء الى الطرقـات الفـرعيـة الضيقـة لاختصار المسافـة حتى تتـاح لي مشـاهـدة الملاحقين . لقـد سبب لي الشعـور بالملاحقة تشنجاً عصبياً نتيجة لتنبهي الدائم ، فقد كنت متأكـداً من حـدوث ذلك رغم أني لم ألاحظه إطلاقاً . ولكن مثل هـذه المخـاوف سرعـان مـا تـزول عندما ينهمك المرء في المشاغل اليومية فتغدو من الأمور العادية التي يقتضيهـا واقع العمل .

هذا مع الاشارة الى أن السافاك لم تكن تكثف مراقبتها على الدبلـومـاسيين الجدد إلا بعد مرور تسعة أشهر على وجودهم في البلاد . وهم خلال هذه المدة ينكبون على دراسة ملفات هـؤلاء للتأكـد من أنـه لا عـلاقـة لهم بـالعمل مع المخابرات السوفياتية وانهم دبلوماسيون بالفعل . والقاعدة العامة التي تتبعهـا السـافـاك تـركـزت على مـلاحقـة ضبـاط المخـابـرات مستثنيـة من ذلك الدبلوماسيين . وكان من الطبيعي أن أكون مـوضع مـراقبـة الايـرانيين ، فبعـد ستة أشهر من قدومي أصبح لي مرافقين دائمين ، وقد لاحظت ذلك أول مرة في المرآة الجانبية لسيارتي حين كانت سيارة BMW زرقاء تابعة للسافاك تلاحقني من مسافة غير بعيدة . وكان ذلك لي الدرس الأول كي أكون أكثر انتباهاً .

لقد كان دوام العمل في السفارة ينتهي عند الساعة الثانيـة والنصف ظهـراً

ويغادر جميع العاملين بعد ذلك الى حيث يشاؤون، ولكن حرص المسؤولين في الحزب والنقابات التجارية على ابعاد الموظفين وعائلاتهم عن التأثر بالمظاهر البورجوازية في البلاد عملوا على إقامة أنشطة خاصة تمثلت بالدعوات الى قاعات السينما والمطاعم إضافة الى إتاحة الفرصة للاطلاع على المجلات والصحف السوفياتية في النادي الذي يقع في شارع ستالين مقابل مقر السفارة، وكان هذا النادي مؤلفاً من طابقين يشتمل على دار عرض سينمائية وقاعات لتقديم عروض موسيقية، كما أن النادي لم يكن حكراً على العاملين في السفارة وعائلاتهم بل سمح بارتياده لجميع المواطنين السوفيات الذين كانوا يعملون في البلاد، وكان ممنوعاً فقط على غيرهم من الايرانيين.

وهناك أيضاً المكتبة التي احتوت على كتب جيدة من الأدب الروسي، ولذا فإنها شهدت روّاداً كثيرين، ومرد ذلك الى أن هذه الكتب كان وجودها نادراً داخل الاتحاد السوفياتي، إذ أن السلطات هناك لم تعمل على اصدار هذا النوع من الكتب بكميات كافية بحجة عدم توفر مادة الورق في البلاد، في الوقت الذي كان ذلك ممكناً لإصدار ملفات وكتب عن مقالات وخطب بريجينيف التافهة والتي قيل إنها صدرت عن المعهد الماركسي اللينيني. وكان من الطبيعي أن يعزف الناس عن شراء مثل هذا النوع من الكتب والنشرات، وقد اضطر المسؤولون الى سحب تلك الأنواع من الأسواق، وأشاعوا بعد ذلك أنها نفدت نتيجة الطلب عليها. أما كتب المشهورين أمثال بوشكين وبولفاكوف وبيلوف وبيكول وراسبوتين وغيرهم فقد عمل على إصدار كميات ضئيلة منها بحيث لم تتجاوز المئة ألف نسخة، في حين كانت الاصدارات الأخرى لبريجينيف تصل الى زهاء مئتين وسبعين مليوناً. أما طريقة تسويق هذه الكتب فقد تمت وفقاً للائحة ضمت اسماء أعضاء الحزب الحاكم ومؤسساته، كما أرسلت كميات أخرى الى الخارج حيث بيعت للمواطنين السوفيات بالعملة الاجنبية عن طريق اللوائح الرسمية أيضاً، وكانت ترسل الى السفير وممثل مجلس السوفيات الأعلى ورئيس البعثة التجارية والمستشارين بمن فيهم رؤساء الـ كي. جي. بي. ومخابرات الجيش. أما الدبلوماسيون الآخرون فقد عملوا على التقرب وإقامة صداقات مع الفتيات العاملات في المحل للحصول على الكتب الجديدة.

لقد كانت كافيتريا النادي ملتقى الرجال الذين غادرتهم نساؤهم عائدات الى الاتحاد السوفياتي، وكانت تدار من قبل مجموعة من الأرمن تقدم المشروبات الكحولية والبيرة الى جانب وجبات طعام جيدة. وكان الزبائن الكثيرون في

معظمهم من دبلوماسيي وموظفي السفارة ومن الخبراء الذين غالباً ما كانوا يبدأون سهرتهم في الكافتيريا لينتقلوا بعد ذلك الى المقاهي القريبة من مقر السفارة حيث يتابعون مقارعة الشراب الى ما بعد منتصف الليل، وحتى ينتهي بهم الأمر الى إحدى الشقق، ومن هناك يتوجهون الى عملهم في الصباح وأثر السكر ما زال يدور في رؤوسهم.

ولكن الدبلوماسيين الكبار فضلوا الابتعاد عن ارتياد الكافتيريا حفاظاً على سمعتهم، غير أن هذا لا يعني عدم تناولهم الكحول. بل كانت لهم سهراتهم الخاصة بعيداً عن الأنظار، ولذا فقد بدت السفارة من ناحية العمل الجاد وكأنها غارقة في نعيم السلطة الدائمة، وهذا الواقع انعكس سلباً في جانبه الأخلاقي على الجالية السوفياتية التي راجت فيها الأقاويل والهمسات عن السكرتيرات الصغيرات وعلاقاتهن الجنسية بالدبلوماسيين. وقد جرى ذلك تحت نظر الـ كي. جي. بي. وبمعرفة الرؤساء الحزبيين، غير أن الطرفين تغاضيا عن ذلك متأثرين بتعليمات مجلس السوفيات الأعلى بترك هؤلاء يفعلون ما يحلو لهم طالما أن الأمور تحدث خلف الجدران ولا تتسبب بظهور فضائح، ومما اقتضى إبقاء تلك العلاقات في إطارها السوفياتي وعدم التورط مع المحليين. هذه الفلسفة لاقت استحساناً من الجميع وأعطت إذناً بإباحة العلاقات الجنسية.

وكان حراس السفارة من ضباط وحدات الـ كي. جي. بي. يعملون بنظام المناوبة، وبحلول الحادية عشرة مساءاً يستعين هؤلاء بمجموعة من كلاب مدربة للحراسة جيء بها خصيصاً من المراكز الأمامية في جنوبي الاتحاد السوفياتي، وهذا النوع يتميز بالشراسة وبمهاجمة أي متسلل، ولذا كان علينا إطلاع الحراس على وقت عودتنا الى السفارة ليلاً، وكان هؤلاء على علم بما يجري داخل المبنى السكني وكانوا يشاهدون ما يجري هناك من خلال فرجات الأبواب، ولكن معلوماتهم بقيت من الأسرار التي يتبادلونها فيما بينهم، وعلى أية حال فإن الشكوى ما كانت لتبدل شيئاً من واقع الحال.

وكان لسفيرنا عضو مجلس السوفيات الأعلى طبيبة تدليك، وهي في الحقيقة عشيقته، ترافقه الى كل بلد يذهب اليه، واسمها سكفورتسوف وتسكن في شقة منفصلة عن السفارة وغير بعيدة عن سكن السفير، وقد شاهدها الحراس مرات عديدة تتجه الى منزله ليلاً أثناء غياب زوجته التي غالباً ما تكون في

موسكو. وكان يعمل في منزل السفير خادم خاص مع زوجته الطباخة وهي ابنة أخت زوجة السفير.

مثل هذا التقليد لم يكن متبعاً من الناحية الرسمية في وزارة الخارجية السوفياتية، ولكن الطبيبة والخادم وزوجته أُلحقوا بالعمل بصفة حراس، مما دفع الحراس الآخرين الى الاعتراض على عدم المساواة، وهددوا بإفلات الكلاب على «المدلكة» عند خروجها ليلاً، وكان التهديد على سبيل النكتة، والواقع أن الوضع كان مثيراً لسخطهم، ولكن ذلك لم يكن بسبب كون السفير أتخذ لنفسه عشيقة وطباخة وخادماً، بل لكون هؤلاء مسجلين باعتبارهم حراساً، إذ اعتبروا ذلك خرقاً للقوانين السوفياتية الأساسية «عِشْ ودَعْ غيرك يعيش».

الفصل الثامن

الوعاء الذهبي ـ الطارقون ـ جيراننا الأقرباء GRU (مخابرات الجيش)

كـان المسـؤول الثـاني في الخط (إن) الموكلة إليـه حمايـة الـلاشرعيين يعمل متخفياً بصفة نائب المدير الاداري في المستشفى السوفياتي. ولم يكن يتقن لغـة أخرى سوى الدانماركية، وكان يتسلّم التقارير التي يرسلها اللاشرعيون ثلاث مرات في الأسبوع وهو في طـريقـه الى المستشفى من السفـارة. وأبلغني الـرجل واسمه سيرجي بافلوفيتش كارلشكن بالترتيبات التي اتخذها.

أنشيء المستشفى السوفياتي في طهران نتيجة اتفاقية تعـاون اقتصـادي بين الاتحاد السوفياتي وإيران في بداية الستينيات، وكان الإيرانيون يتلقون بمـوجب تلك الاتفاقيـة المسـاعـدات الـلازمـة للمشروعـات المتفق عليهـا مثل مصنع الصلب، والمنـاجم، والمستشفى، وكـان من ضمن تلك المسـاعــدات إدارة المستشفى من الناحية التجارية، وذلك بهدف تغطية تكـاليف العمل، وذلك باستيفاء مبلغ رمزي من الزائر المريض لا يتعدى الثـلاثـة دولارات، إذ كـانت غالبية المرضى من الفئات الفقيرة. وقد عمل الأطباء الروس الى جانب الأطباء الايرانيين وقدموا خدمـات جلّى. واقتضى الأمـر تعيين مترجمين خـلال اجـراء العمليـات الجراحيـة فكـان المترجمون في معظمهم من الأرمـن والإيـزورس والاذربيجانيين ومن الجيلين الثاني والثالث من الروس البيض.

لقد أخبرني كارلشكن أن جماعتنا هناك يجمعون أموالاً طائلة. فعندما يقوم الطبيب السوفياتي بمعاينـة المريض ويـرى أن الأمـر يحتـاج الى إجـراء عمليـة جراحية في الأعصاب، على سبيل المثال، يرتب الطبيب السوفياتي أمر إرسـال المريض الى طبيب إختصـاصي إيـراني بحجـة عـدم أهليـة المستشفى لإجــراء العملية. مقابل ذلك يحصل الطبيب السوفياتي على نصف المبلغ الذي يدفعـه المريض الى الطبيب الإيراني. قد يبدو هذا الأمر طبيعياً قياساً لما هو عليه الحال

في كل مكان ولا سيما في الغرب. ولكن مثل هذا الأمر يتعدى كونه تعاوناً مهنياً أو منهجاً للمناصفة التجارية، فالمبلغ الذي يدفعه الطبيب الإيراني لا يدخل في أرباح المستشفى ولا في سجل حساباتها، وبمجرد تسلم المال يقوم الطبيب السوفياتي بدفع نصفه الى مدير المستشفى المسؤول «اشوركو» الذي يحتفظ به لنفسه، وهو الذي يتولى اقناع الأطباء السوفيات الجدد عند وصولهم بسلوك هذا المنحى وبطبيعة العمل في المستشفى، وفي حالة ما إذا رفض أحدهم هذا الابتزاز اللاخلقي في الطب فإنه يُعاد بهدوء الى موسكو نتيجة لتقرير شخصي سلبي. «ولكن، أين كانت الـ كي. جي. بي. ؟».

هذا السؤال ربما يطرحه البعض. والجواب أن الأخيرة كانت على علم بكل ما يجري ولكن المستشفى كان في عهدة السفير وممثل مجلس السوفيات الأعلى، إضافة الى أن أكثرية الأطباء السوفيات هم من القيادة العليا الرابعة في وزارة الصحة أو ما يسمى بـ «مستشفى الكرملين»، وهؤلاء كانوا على علاقة وثيقة بقياديي الحزب.

كانت الـ كي. جي. بي. بصفة دائمة ترفع الى القيادة العليا في موسكو التقارير عن وضع المستشفى في طهران، ولكن بمجرد وصول تلك التقارير الى مجلس السوفيات الأعلى فإن القضية تُطْوى وأحياناً يصار الى الاتصال بالسفير أو بممثليهم مباشرة للاستفسار عن حقيقة ما ورد في تقارير الـ كي. جي. بي.، وكان من الطبيعي أن تلقى تلك الاستفسارات الأجوبة ذاتها، وذلك بحكم العلاقة الوطيدة التي تربط بين مدير المستشفى وبين كل من ممثلي مجلس السوفيات الأعلى وبالتالي السفير. وهؤلاء جميعاً كانت خراطيمهم داخل الجرن الذهبي، فمدير المستشفى كان يملك المال وممثلو الحزب وراءهم السلطة، وكان ذلك نموذجاً صارخاً لحالة الفساد التي سادت الحزب في عهد بريجينيف.

لقد كنا السباقين في معرفة الحالة التي آل اليها الوضع في المستشفى، وكان أحد الضباط وهو ضابط في الـ كي. جي. بي. ـ المخابرات السياسية ـ قد عُيّن بسبب احتمال قدوم بعض الشخصيات الهامة الى المستشفى. وقد كان الأمر هناك نسخة مطابقة لما يجري في أماكن أخرى، وكان الأطباء يعلمون أن كلاً من الدكتور فولوديا كوزمين ونائب المدير الاداري كارلشكن من الـ كي. جي. بي. وان نائب مدير وحدة المعالجة من مخابرات الجيش، وكان الأطباء

يلجأون الى إبلاغ هؤلاء بما يدبره مدير المستشفى من مكائد، وذلك على أمل أن تقوم الـ كي . جي . بي . بتدبير أمر إرجاعه الى موسكو للمحاكمة والسجن، وحين خاب أملهم لم يجدوا مناصاً من الانصياع.

في هذا الوقت راح مدير المستشفى يوسع دائرة أعماله، فشرع باستبدال العملة الإيرانية بدولارات، واستثمر أمواله في المتاجرة بالذهب والألماس، كما راح يفصح علناً عن نيته أنه بصدد شراء منصب نائب وزير الصحة لنفسه، وان الـ كي . جي . بي . لن تكون قادرة على منعه من تحقيق ذلك، وكان يردد دوماً: «الى الجحيم كي . جي . بي . فهي لا تملك القوة الكافية».

وكان في ذلك محقاً، لأنه كان يعرف عن طريق أصدقائه في الحزب واقع الـ كي . جي . بي . ووضعها الداخلي.

لقد اعتقد الكثيرون الذين عرفوا مدير المستشفى في طهران أن المسؤولين في جهاز الـ كي . جي . بي . لن يتخذوا أي إجراء بحقه لظنهم أنه عميل للجهاز. وفي خلال الشهرين الأخيرين من وجوده في طهران اختلس أشوركو جميع أرباح المستشفى، وقد أثار هذا التصرف سخط واشمئزاز العاملين الإيرانيين والسوفياتيين على السواء، فأرسلوا عرائض شجب خطية الى السفارة والقنصلية، كما اتصلوا بنا مباشرة لإعلامنا بالأمر، ولكن كل ذلك لم يجد نفعاً.

غير أن تلك الأموال التي جمعت لم يكن نقلها الى داخل الاتحاد السوفياتي من الأمور السهلة، وجميع الأطباء الذين عملوا في ايران بمن فيهم مدير المستشفى يحملون جوازات سفر عادية، مما يعني عدم تمتعهم بأية حصانة، وهذا يجعلهم عرضة للتفتيش عند الحدود الإيرانية السوفياتية. غير أن رجال «أعمالنا» وجدوا ضالتهم بالمسؤولين إذ في وسع هؤلاء حمل حقائب الأصدقاء في المستشفى لكونهم حائزين على جوازات سفر ديلوماسية كغيرهم من الـ كي . جي . بي . وفيما يخصني فقد رأيت أن ليس ثمة أحد أفضل من الآخر، وقد كان لي أيضاً أصدقاء في المستشفى، فلم أجد غضاضة من نقل حقائبهم بنفسي، وفي واقع الأمر اردت الابقاء على علاقة طيبة بهؤلاء الأطباء، فالمحافظة على صحة كل منا من أهم الأمور. وقد لا يكون ذلك مصدر قلق في مرحلة الشباب ولكنه يغدو هاجساً مقلقاً مع تقدمنا في السن. ولكون هؤلاء من مستشفى الكرملين فإن من الأفضل ـ على الطريقة السوفياتية ـ إقامة علاقات طيبة معهم من منطلق النفع المتبادل.

هذا الجانب من الفساد في السلوك العام لم يعد موضع اهتمام خاص لـدى الـ كي . جي . بي . ولا سيما في ظل أوضـاع بـدت عـاديـة في واقع المجتمع السوفياتي . ولكن هذا لم يمنع الـ كي . جي . بي . من وضع تقرير عن موضوع خاص يهم الأمن القومي . فالإيرانيون العاملون في المستشفى كانوا في أكثريتهم من جهاز الشرطة السرية ، وكانت السافاك متعـاونـة مع الـ سي . آي . إي . وكـذلك مع المخـابـرات البريطـانيـة والموسـاد «الاسرائيليـة» . وكـان الاتحاد السوفياتي العدو اللدود لكل هـؤلاء ، وكـان الإيـرانيـون على علم تـام بنشـاط السوفيـات داخل المستشفى وذلك بحكم عـلاقـاتهم بـالمترجمات اللـواتي كنّ مقربات من الأطباء ، ولذا فمن الطبيعي أن تكون لدى المخابـرات الغـربيـة ـ وبمعرفة الإيرانيين ـ كل المعلومات عن حقيقة الوضع داخل المستشفى .

من الناحية العملية كان تفكيرنا يتجه الى إمكانية قيام المخابـرات الغـربيـة بتجنيد بعض الأطباء في المستشفى بمن فيهم المدير بصورة خاصة ، وقـد كـان لدى الغربيين الوسائل الممكنة ، كما كـانت لـديهم المعلـومـات الـلازمـة عن استقطاب المجند ، وبما أن كلاً من السفير وممثل مجلس السوفيـات الأعلى هـو صديق لمدير المستشفى فقد أُخذ الأمر على أساس كونه يشكل خـرقـاً متـوقعـاً لأرفع منصب في السلطة في الاتحاد السوفياتي .

لقد أرسلت التقارير في هذا الشأن الى القيادة العليا في موسكو ، وجاء الرد بالسؤال عن الأدلة الحسيـة التي تـدل على وجـود المخـابـرات الغـربيـة داخل المستشفى وإلا فلا أمل بطرح القضية للبحث في المجلس الأعلى ـ مع الإشـارة الى أن عدداً من أعضاء الحزب كان متورطاً في عملية الفساد ـ

ولكن الـ كي . جي . بي . لم يكن لديها الدليل الظاهر ، وسرى الاعتقاد أنه من غير المعقول أن لا تكون المخابرات الغربية قد استفادت من الظروف المؤاتية في ظل الوضع القائم من الفوضى . ولا بد أنها حـاولت مثـلاً تجنيـد عـدد من الأطباء ، وقد حصلنا على تقارير عن عـدة أطبـاء بـدوا من خـلالها منهـارين وخائفين دونما سبب ملموس .

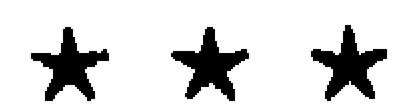
في هذا الوقت كانت فترة خدمة مدير المستشفى قد انتهت ، وعاد بعـدهـا بهدوء الى الاتحاد السـوفيـاتي . ولكن الـــ كي . جي . بي . على الأقل قـامت وضمن صلاحيـاتها ومن دون التعـرض للمعـاقبـة من المجلس الأعلى بتـدبير إخضاع أشوركو الى تفتيش دقيق من قبل الأمن العام ، ولكن لم يعثر معـه على

أشياء ممنوعة، إذ انه كان سبق وأرسل ما جمعه من ذهب وألماس ودولارات مع صديقه أمانغليف ممثل المجلس الأعلى والذي كان يتمتع بالحصانة الدبلوماسية، إضافة الى كونه من الشخصيات الهامة التي يسمح لها بعبور بوابة الأمن العام الى الاتحاد السوفياتي دون تفتيش. ومنذ ذلك الحين لم أعد أعلم شيئاً من أخبار أشوركو بعد عودته الى الاتحاد السوفياتي، ولكنه استطاع دون ريب أن يشتري لنفسه منصباً هاماً في المجال الطبي هناك.

أما المدير الجديد للمستشفى فكان يدعى سيراك، ولم يكن هذا القادم حديثاً أفضل من سلفه، بل فاقه في درجة السوء.

لم يكن المستشفى المسؤولية الوحيدة لممثل المجلس الأعلى للحزب، بل كلف أيضاً بمراقبة الأوضاع الخلقية والسياسية السائدة في المنظمات السوفياتية على جميع الأراضي الايرانية. وكان هذا التكليف أشبه بالطلب من العنزة مراقبة الملفوف.

وبمجرد وصول رؤساء هذه المنظمات الى طهران يرسلون تقاريرهم الى أمانغليف وليس الى الـ كي. جي. بي. وأحياناً يسلمون السكرتيرة علبة صغيرة كتب عليها ـ «الى ابراهيم اريفتش» ـ (خاص) ـ وكنا نعلم أن في داخلها أموالاً وأشياء أخرى قيمة.



كان لانيا لوزينكو يعمل مع مجموعة من علماء الهيدروجين في طهران بصفة مترجم للغة الانجليزية، وهو في الأصل من منطقة شاكتي في مقاطعة اوكرانيا، وكان أكمل دراسته في معهد العلاقات الدولية في موسكو، ومن بين جميع العاملين في المستشفى فإنه كان من أقرب المقربين لـ: أمانغليف، وقد شوهدا معاً عدة مرات.

وعند انتهاء خدمته هو الآخر وعودته الى الاتحاد السوفياتي علمنا أن لانيا لوزبانكو قد ترك في عهدة زميل له مبلغاً يوازي اثني عشر ألف دولار أميركي، وطلب منه أن يجد له طريقة لابتياع قطع ذهبية من الروبل السوفياتي، ولم يكن

الزميل يتوقع تورط لانيا في أعمال الفساد وهو الذي كان يتشدق بالروح الوطنية ويتغنى بالأناشيد الحماسية عن بلاده. وكان لانيا ألمح قبل مغادرته الى أنه فور عودته الى موسكو سيتسلم عملاً في المجلس الأعلى للحزب، ومحذّراً إياه بأنه سيعمل على تحطيمه إن هو تخلى عنه. ولكن الزميل، وكان إنساناً شريفاً، وقد فكر مطولاً قبل إطلاعنا على حقيقة الأمر.

في هذا الوقت كان لانيا قد تسلم عمله الجديد، واتخذ له مسكناً في شقة جميلة في موسكو، وخصصت له سيارة ووضع سائق بتصرفه، وبمعنى آخر كان واضحاً أنه فوق القانون ويستحيل المساس به. وبعد إجراء تدقيق غير رسمي تبين أن أمانغليف هو من أوحى بتعيين لانيا لوزبنكو في المجلس الأعلى.

وفي أحد الأيام دخل مكتبي ايرانيان من مقاطعة خراسان التي تقع شمال شرقي ايران، ولم يطلبا، بل أمرا منحهما تأشيرتين لزيارة أحد أقاربهما في كازاخستان السوفياتية. وحسب الاجراءات سألتهما عما إذا كانت بحوزتهما دعوة بهذا الشأن من أقاربهما.

«لسنا في حاجة الى دعوة. . اعطنا التأشيرات وإلا ستخسر عملك»، قال أحدهما متوعداً. فشعرت بثورة غضب جامحة، ولكنني تمالكت نفسي وشرحت لهما أنه يجب أن يكتبا رسالة الى أقاربهما يطلبان منهم إرسال دعوة رسمية.

قال: «الرسالة معنا هنا». وأبرز رسالة تنص على تقديم طلبهما الى السفارة حيث يساعدهما قريب لهما بالحصول على التأشيرة. وعندما سألتهما: «من هو قريبكما في السفارة؟». أجابا: «إنه المسؤول الأعلى هنا، وعليك أن تقف متأهباً عندما تتكلم مع أقاربه».

عدت أسألهما: «هل تقصدان أن قريبكما هو السفير السوفياتي؟»، وراحت الأمور تأخذ منحىً مشوقاً.

قال أكبرهما: «ومن يكون السفير. . السفير هنا يعمل عند ابن أخينا، فهو المسؤول الأهم. . ألا تفهم؟».

كنت بدأت أشك في صحة عقليهما، وقلت: «حسناً. . ولكن لا بد أن له اسماً».

وكان الجواب: «طبعاً. . اسمه ابراهيم أمانغليف».

هكذا إذاً. . لم يعد الأمر ممتعاً، فاقترحت على الرجلين العودة في اليوم التالي. وبالرغم من اعتراضهما فقد أخرجا من القنصلية. بعد ذلك توجهت مباشرة الى السفارة وقدمت تقريري الى رئيس الـ كي. جي. بي. الذي كاد يبتلع لسانه عند سماعه الخبر، إذ حيثما يكون لك أقارب في الخارج ولا تبلغ عن ذلك فإن ذلك يعتبر مخالفة جنائية حسب القوانين السوفياتية، لأن مثل هذا الموضوع يُتَحرّى عنه قبل إرسال الشخص الى الخارج وذلك تجنباً للاشكالات واحتمالات التجنيد المعاكس.

أمرني كوسترومين إبقاء الأمر سراً وعمل على إبلاغ أمانغليف بشكل عاجل، ومن ثمَّ توجها معاً لمقابلة السفير. وبعودة كوسترومين كانت الابتسامة بادية على وجهه. قال: «كان عليك أن ترى وجه رئيس حزبنا عندما علم بأمر عَمَّيْه». ولكن الرواية الرسمية حددت على النحو التالي:

«ليس هناك من أقارب، والأمر لا يعدو كونه مجرد استفزاز من قبل الموساد. غداً أعطهما جوازي سفرهما بدون تأشيرة، وأرسلهما الى المنزل. . وابقِ فمك مغلقاً، والا فستكون نهايتك».

لم يكن لدي أدنى شك بحدوث ذلك ففعلت ما طلب مني. أما الإيرانيان فقد بدا الغضب على وجهيهما وطلبا مقابلة امانغليف، ولكنهما أفهما أنه لا يرغب برؤيتهما وهما ليسا من أقربائه، فثارا وأخذا يهددان ويتوعدان ناعتين امانغليف بأنه عار على عائلتهما وسيثأران لشرفهما بقتل غريمهما في أول فرصة تسنح لهما. ولم يقتصر الأمر على ذلك وحسب، فقد أحاطت جموع بمدخل السفارة على مدى يومين بهدف القبض على القريب، ولكن ما لبث أن هدأت موجة الغضب وتواريا بعد ذلك. وفي هذا الوقت كان أمانغليف مشدوهاً حيال ما يجري ولم يغادر مكتبه طيلة اسبوع، الأمر الذي زاد في التأكيد على صلته بهذه الجماعة مما جعل الـ كي. جي. بي. تشعر بالرضى مؤملة وضع حد لذلك المحتال. إلا أن القضية مرّت دون إجراء تحقيق رسمي.

ولكن ذلك الوضع من الفساد والفوضى لم يكن مقتصراً على ممثل المجلس الأعلى للحزب، فالسفير فلاديمير ميخايلوفيتش فينوغرادوف حظي بالحصة الأكبر. وفي حين كان يمضي صيفه الأول في مقر السفارة في زارقند قرر عدم مشاطرة الموظفين الآخرين له في المبنى محتفظاً لنفسه بحرية إدخال من يشاء،

وأمر بعدم الإزعاج وإبقاء الجو هادئاً، فقد كـان السفير ينـزعج من الضجيج ومن صراخ الأطفال، فعمت موجة السخط الجالية السوفيـاتيـة، إذ لم يحدث لسفير سابق أن أقدم على مثل هذا التصرف المطلق.

كذلك ما لبث السفير أن أبدى اعتراضاً لكون فيلته المخصصة لسكنه غير مناسبة، بحجة أن غرفة الطعام لا تتيح الاطلال على منظر جميل. وهنا أصبح الأمر واضحاً. . وكما هو معروف في الاتحاد السـوفيـاتي أنـه إذا أراد المرء سرقـة الحكومة فما عليه سوى اللجوء الى مشاريع البنـاء. وكـان سفيرنـا يـدرك ذلك جيداً ولا سيما أنه سبق له العمل في وزارة التجارة الخارجيـة حيث تـدرّج حتى أصبح رئيس البعثة التجارية في بـاريس، ثم انتقل الى وزارة الخارجيـة ليصبح عضواً في مجلس السوفيات الأعلى، وأرسل بعد ذلك سفيراً الى اليابان أولاً ومن بعدُ الى مصر.

استعان السفير بأناتولي كزاكوف بصفته مديراً مسؤولاً للإشراف على سكن الموظفين في السفارة. وكان سبق لـلأخير أن عمل معـه وهـو يعـرف أسلـوب تفكيره. أما بتراكوف المسؤول السـابق فأعيـد الى مـوسكـو قبل انقضـاء مـدة خدمته.

وتجدر الاشارة هنا الى أن سرقة أموال الدولة في الاتحاد السـوفيـاتي أضحت أمراً عادياً غير مفاجىء لأحد، بل تعتبر دهاءاً ودليـلاً على الـذكـاء، في حين وصف الشرفاء المتمسكين بالمبادىء بأنهم الأكثـر غبـاءاً. ولـذا لم يعـد ممكنـاً لأجهزة الدولة الاعتماد على الناس الطيبين لخدمتها بعد أن عُمل على إحباطهم وأخذ كل شيء منهم، بما في ذلك اندفـاعهم في العمل. وثمـة قـول مشهـور انتشر في ذلك الحين: «روسيا دولة غنيـة جـداً، والجميع كبـاراً وصغـاراً منـذ ١٩١٧ يتسـابقـون لنهبهـا. . وبـالـرغم من ذلك فما زال هنـاك الكثير بـاقيـاً للسرقة».

انصرف السفير الى العمل والتحرك بسرعة، فاتفق مع شركة ايرانية للبدء في تشييد المبنى الجديد. وقد استعان بمترجم خلال اجتماعاتـه بـالمتعهـد لأنـه لم يكن يتكلم الفارسية ولا الانجليزية بشكل جيـد، ولكنـه استغنى عن المترجم عندما بدأ التفاوض حول الأمور المالية.

وهنا يبرز سؤال وهو: كيف يتأتى لكزاكوف الحصـول على حصتـه في مثل هذه الحال؟.

ذلك أمر تدبيره سهل. فالسفارة تطلب من شركة البناء تقديم عرض بالكلفة فيقوم المتعهد بتحضيره ويقدمه للموافقة، وهنا يقترح ممثل السفارة ـ الذي هو صديق لكزاكوف بالطبع ـ إضافة مبلغ زائد على الكلفة الحقيقية المقدمة، ويتم إفهام المتعهد بأن من مصلحته الموافقة على زيادة قيمة الكلفة، فتتم الموافقة على العرض بعد تعديله.

أما السفير فيتنصل من الأمر ويعطي كزاكوف حرية مطلقة في التصرف. وخلال فترة البناء، وكما هي العادة، يتأخر المتعهد عن الموعد المحدد لإنهاء البناء، وهنا تبدأ المماطلة وتبدأ بالتالي عملية استيفاء المبلغ الاضافي، وكوسيلة للابتزاز بهدف استخلاص المال من المتعهد يُعتمد ـ بتوجيه من السفير ـ تقديم طلبات إضافية كبناء بركة سباحة خاصة الى جانب الفيلاّ.

هل كانت الـ كي. جي. على علم بهذه الأمور؟

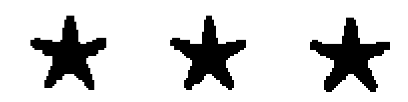
والجواب نعم، ولكن محاولة اتخاذ اجراءات لوضع حد لمثل هذه الأمور ما كانت إلا غرساً في الفراغ، إذ كانت كل المستندات معدة ومرتبة بما لا يدع مجالاً للشك في صحتها.

وأكثر من ذلك، فقد كانت الـ كي. جي. بي. على علم بأمور أخرى لفساد الوضع. لقد كان أحد الضباط في القنصلية مكلفاً بقضايا الأرمن، وقد أطلق عليه السوفيات والإيرانيون لقب «القنصل الأرمني» وذلك بحكم منحه التأشيرات للإيرانيين من الأرمن لزيارة أقاربهم في أرمينيا السوفياتية وبالتالي العمل على إعادتهم الى بلادهم ـ قارب عدد المهاجرين من ايران الى ارمينيا الألفي شخص شهرياً في أواخر السبعينيات ـ كما أن «القنصل الأرمني» كان ضابطاً في القسم الأرمني في الـ كي. جي. بي. وممثلاً لمجلس عودة اللاجئين.

كان هؤلاء المهاجرون في معظمهم من الفقراء الذين قرروا العودة نظراً لصعوبة العيش التي كانوا يواجهونها في ايران من ناحية، وبدافع حسهم الوطني من ناحية أخرى. وقد ساعدهم أغنياء الأرمن هناك بإقامة صندوق دعم وضع بتصرف «القنصل الأرمني». لكن السفير فينوغرادوف لم تعجبه الفكرة فأمر بإلغاء الصندوق وتحويل جميع الأموال الى حساب السفارة. غير أن «القنصل الأرمني» الكسان اوفسيبيان رفض الانصياع للأمر قائلاً: «ليس من شأني إذا سرق ذلك المحتال مال الحكومة فهو صاحب السلطة، ولكن لن

تطال مخالبه أموال المواطنين الأرمن».

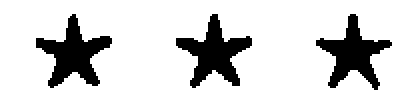
ولكن السفير لم تعوزه الوسيلة فلجأ الى الضغط على زميله كزانكن الذي بدوره أخذ يضغط على «القنصل الإرمني»، ولكن هذا الأخير رفض الخضوع وهدد بإفشاء الأمر الى الأرمن، غير أن الأمر لم يصل الى هذا الحد، إذ تم الاتفاق أخيراً على ايداع المال في حساب السفارة شرط استعماله لغرضه الأساسي بإشراف «القنصل الأرمني». ولكن ذلك كان مجرد وعد، إذ بدأت التقارير تصل إلينا عن تسلل أصابع السفير الى المال حيث تم استعمال قسم منه لشراء آلة تصوير «زيروكس» وخصص القسم الباقي لعملية تشييد مسكن السفير.



كان للاتحاد السوفياتي بنية سياسية ذات مستوى أدنى سميت منظمة الحزب الابتدائية، وكانت حاضرة في جميع المؤسسات في البلاد، وكان أعضاؤها من أفراد الحزب عديمي الخبرة، وقد كانت حاضرة أيضاً في السفارة ويتولى شؤونها المكتب الحزبي برئاسة سكرتير منظمة الحزب. وفي كل سنة كان يجري انتخاب افرادها من بين المسؤولين في السفارة. أما دور مكتب الحزب فكان يلي ممثل مجلس السوفيات الأعلى. ومهمته تنظيم الاجتماعات الحزبية في نهاية الشهر، وكذلك تدبير الخطباء الذين ينبغي أن لا يقل عددهم عن ستة، وهو ما يعتبر أمره صعباً، إذ غالباً ما يرفض الكثيرون الخطابة، وذلك لعدم جرأتهم على قول الحقيقة. ولكن سكرتير المنظمة كان يلجأ الى ممارسة الضغوط على الأشخاص ولا سيما أولئك الذين لم تتح لهم فرصة الخطابة من قبل، وبرغم ذلك كان يطلب تقديم نص الخطاب للاطلاع على مضمونه. وكان حضور الاجتماعات إلزامياً وإلا ترتب على الممتنعين مواجهة مشاكل في العمل. ومن أجل ضمان حضور كثيف فقد عُمد الى عقد الاجتماعات خلال ساعات الدوام.

وكان السفير فينوغرادوف عضواً في منظمة الحزب في السفارة. ووفقاً للقانون ينبغي عليه حضور كل الاجتماعات، ولكن هذا لم يحدث، وفي حال

حدوثه فإن حضوره ما كان يزيد على ثلاث مرات في السنة أو عندما يريد الاعلان عن أمر ما. وبالرغم من ذلك فاسمه مدون في جميع مستندات الحضور بصفة دائمة، وكذلك الوضع بالنسبة لممثل مجلس السوفيات الأعلى. إضافة الى هذا فقد طغت ارادة السفير على مبدأ الأفضلية وبالتالي على كل اعتبار، فكان ينفرد بمشاهدة الأفلام في سينما السفارة ليأتي دور الآخرين بعد ذلك، وفي إحدى المرات وبعد مشاهدته فيلم «اغوم» برفقة ممثل المجلس الأعلى قرر منع عرضه على الآخرين، ويعتبر باكورة الأفلام التي تطرقت الى مظاهر الفوضى والفساد لدى القياديين، ذلك بالرغم من موافقة مسؤولي مراقبة المطبوعات السوفياتية على السماح بعرضه.



في الفصول السابقة ترددت عبارة: «اننا عرفنا من معلومات وردتنا..»، وربما تساءل القارىء عن مصدر تلك المعلومات المتعلقة بما كان يجري بين أفراد الجالية السوفيانية. والجواب على ذلك أنه كان للـ كي. جي. بي. عملاء ينـدسون بين المواطنين السوفيات، وهؤلاء يُطلق عليهم اسم «الطارقين». هذه التسمية متأتية من كونهم يطرقون باب ضابط الـ كي. جي. بي. لإبلاغه خبراً، أما في أوساط الجهاز فيعرفون بـ «المقلَّمين» وذلك لأن أسماءهم في ملفاتهم المحفوظة في موسكو وضعت تحتها خطوط حمراء. وهم بوجه عام يُعْتَبرون في عداد المخبرين.

وعلى مر التاريخ كان هناك جهاز مخبرين خاص بكل دولة، ولكنه لم يكن على المستوى الذي بلغه في عهد ستالين لا من حيث ضخامته ولا من ناحية الصلاحيات التي كان يتمتع بها، وذلك بحكم النظرة إليه كونه القوة الرئيسة لبقاء الحكم الستاليني على قيد الحياة. ولكن بموت ستالين وتسلّم الحزب منعت الـ كي. جي. بي. من تجنيد أفراد الحزب مخبرين بما في ذلك العمال وعائلاتهم.

هذا ما كانت عليه الأوضاع في أواخر السبعينيات، ولا زلت أذكر ما قاله لي مسؤول في وزارة الخارجية قبيل التخرج من الجامعة، ولم يكن على علم بأني

سأعمل في الـ كي. جي. بي.:

«عندما تـذهب الى الخارج، وربما قبل ذلك ستطلب الـ كي. جي. بي. منك التعاون معها، فلا ترفض، لأن باستطاعتها تدمير مستقبلك وحياتك. إنما فقط وافق فتضمن حياة هادئة، وما ينبغي لك أن تكون نشطاً، بل اجلس وانتظر، وعندما يطلبون شيئاً تظاهر بعدم المعرفة. للتعاون فوائد، وإذا وقعت في المتاعب فسيعملون على إنقاذك ومساعدتك».

هذه الفلسفة عرفتها لاحقاً في السفارة وقد تـرجمهـا عملياً العـديـدون من مسؤولي وزارة الخارجية.

في سنة ١٩٧٨ كان للـ كي. جي. بي. ثلاثة وعشرون مخبراً في السفـارة في طهران، ثلاثـة من هـؤلاء هـم: السفير فينـوغـرادوف عضـو المجلس الأعلى، وأمانغليف ممثل المجلس الأعلى، وفينوبتوف السكـرتير الثـاني وهـو زوج ابنـة عضو مجلس السوفيات الأعلى.

أما المسؤولون عن المخبرين فهم ضباط المخابرات الثقافيـة وضـابط الأمن في السفارة، وفي حال توقف أحد المخبرين عن التعاون فلا تتخذ أية إجراءات بحقه. فعندما كان بريزكوف السكرتير الثـالث في السفـارة يعمل بصفـة مخبر اختلف مع دنيزوف رئيس المخابرات الثقافية ورفض التعاون معـه، ولما حـاول الأخير ممارسة ضغط عليه هدده برفع تقـريـره الى السفير والاحتجـاج على الـ كي. جي. بي. فلم يكن أمام دنيزوف غير الرضوخ تحسباً لما قد يجره ذلك من مشاكل، لأنه كان يعلم مدى الكره الذي يكنه السفير للـ كي. جي. بي.

لقـد كـان الشك يخامـر المجنـدين فيما يختص بنظـرة الـ كي. جي. بي. اليهم، فقد كانت نظرة سلبية مفعمة بالازدراء وخـاصـة للمتحمسين منهم. ومتى كان المجندون موضع احترام؟ وأين؟ وممن؟.. غير أنه لتحقيق الأهداف التي وضعها الحزب فقد كان لا بد من الاستعانة بهم.

إذن، فقد كان الشك تجاه الـ كي. جي. بي. هو المسيطر على الجميع من مواطنين عاديين ودبلومـاسيين سـوفيـات، إذ اعتقـدوا أن دورهـا مـلاحقتهم ومراقبة كل حركة يقـدمـون بها، إضـافـة الى التنصت على مكـالماتهم الهاتفيـة ووضع الأجهزة في شققهم والاستعانة بعملاء أجانب لهذه الغاية.

كذلك ارتـاب دبلـومـاسيـو سفـارتنـا في طهـران بـالغـرفتين المخصصتين

للمـراقبـة والتنصت واعتبروهما أداة الـــ كي . جي . بي . للتجسس عليهم ، ولكن ارتيابهم هذا لم يكن في محلـه . وتم اللجـوء الى ذلك في حين كـان هنـاك مخبرون يطلعوننا على كل شيء عنهم . فقد كانت الـ كي . جي . بي . على علم كامل بكل ما يقـال : من اشترى وبـاع ، من ينـام مع مَن ، من سَرَق ، وبماذا يفكر السفير، وماذا يرسل الى موسكو في بريده السري .

من أصل خمسين دبلوماسياً في السفـارة كـان هنـالك ثـلاثـة وعشرون هم دبلومـاسيـون أصيلـون وخمسـة عشر من الـــ كي . جي . بي . واثنـا عشر من مخابرات الجيش التي تهتم بجمع المعلومات العسكرية من سياسية واقتصاديـة وتكنولوجية ، وقد كتب الكثير في الغـرب عن مخابـرات الجيش من قبل محللين وضباط سابقين . . لقد تمتع كل اعضاء السفارة بسرية بـالغـة وتنظيم فـائق ، إضافة الى نجاح عملياتهم في جميع انحاء العالم ، وكان معظمهم من المتطوعين المؤمنين بالقضية الشيوعية ، وقـد كـرسـوا حيـاتهم لخدمـة المبـادىء الـوطنيـة وخضعوا لتدريب عسكري خاص .

وخلال خمس سنـوات من العمل في السفـارة الى جـانب ضبـاط مخابـرات الجيش لم ألحظ في هؤلاء أية مزايا غير عادية ، وهم لم يختلفوا في مواصفاتهم عن المواطنين السوفيات الآخرين ، فقد عمّت مقرهم مظـاهـر الفـوضى والسكـر واللامسؤولية ، وكانت عـداوة الجيش للـــ كي . جي . بي . واضحـة ، غير أن الثانية كانت تتحمل تصرفات الأولى ولم تضمر لها النوايـا السيئـة ، بل اعتبرتها الأخ الأصغر الذي ينقصـه الكثير حتى يصل الى مستـوى الفهم ، إضـافـة الى ذلك منع الحزب كلاً من الـ كي . جي . بي . ومخابرات الجيش من التدخل في شؤون الآخر . وقد أفهم المسؤولون في مجلس السوفيات الأعلى في موسكو ضباط مخابرات الجيش أن ليس للـ كي . جي . بي . صلاحية التدخل بشؤونهم ، فهي غير مخولة بتوقيفهم أو إجراء تحقيق معهم ، وفي حـال حـدوث أمـر مثل ذلك عليهم رفع تقرير الى قادتهم الذين يتولون إحالة القضية الى المجلس الأعلى .

من ناحية أخرى أصدر الحزب قـراراً قضى بمنع الجيش من إنشـاء جهـاز أمن خاص به ، على أساس أن القيادة العليا الثالثـة للـــ كي . جي . بي . هي المسؤولة عن الشأن الأمني . كذلك منعت مخابرات الجيش من تجنيد عملاء من أفراد الشعب السوفيـاتي ، بينما سمح للـــ كي . جي . بي . بتجنيـد مخبرين من ضباط مخابرات الجيش .

وفي مطلق الأحوال ظلت الـ كي. جي. بي. تدين بالولاء للحزب، وكانت دائماً ملتزمة بقراراته، ففي أواخر الخمسينيات عندما أراد خروتشوف تحسين العلاقات مع الصين وأمر بالافصاح عن جميع عملائها هناك وتقديم أسمائهم الى السلطات الصينية لم تتأخر بتنفيذ الأمر. وحدث مثل ذلك في منتصف السبعينيات عندما أمر بريجينيف الـ كي. جي. بي. بالابتعاد عن الميليشيا وكذلك بعدم التدخل في شؤون وزارة الداخلية، بينما لم يوجِّه الأوامر ذاتها ـ لسبب ما ـ الى مخابرات الجيش. وقد استفاد مجلس السوفيات الأعلى لكون الأخيرة تحت المراقبة، وفي المقابل وجه بريجينيف اللوم الى الـ كي. جي. بي.

كان مقر مخابرات الجيش في الطابق السادس من السفارة في طهران، وهو يحتل الجزء الأكبر منه باستثناء غرفتي الراديو والاتصالات التابعتين للـ كي. جي. بي. هذا الوضع جعل مخابرات الجيش ترتاب بتجسسنا عليها. وكان الحديث بين أفرادها يدور همساً والبحث جارٍ للعثور على أجهزة التنصت. وفي أحد الأيام دخل علينا فلاديمير بلاكتين رئيس مخابرات الجيش مهتاجاً وراح يتهمنا بالتنصت على هاتفه لعثوره على كبسولة صغيرة داخل الجهاز معتبراً ذلك مطبقاً على الهواتف الأخرى، وهدد برفع القضية الى موسكو. إلا ان رئيسنا وعده بالتحقيق في الموضوع، وطلب من خبرائنا المختصين شرحاً لما يجري، وقد تبين أن جميع أجهزة الهاتف الداخلية تردنا من موسكو مباشرة وقد ركبت في داخلها كبسولات كتلك التي كانت محل ريبة ونتيجة تصميم أجهزة حديثة. ضحك رئيسنا للأمر ودعا رئيس مخابرات الجيش الى مكتبه حيث شرح له الوضع، الأمر الذي سبب له حرجاً واضحاً.

لم يكن هنالك ما يدعو الى التنصت، فنشاط مخابرات الجيش كان صفراً، ولكن النوايا السيئة وإلقاء التهم جزافاً على الـ كي. جي. بي. كان الهدف.

وعلى أية حال كانت الـ كي. جي. بي. على علم بكل ما يجري في مقر مخابرات الجيش، وذلك عن طريق المخبرين في صفوفهم والذين كانوا متعاونين مع الـ كي. جي. بي. علماً أن هؤلاء كانوا معدودين.

وذات مرة تمكنا من الحصول على مستندات سرية خاصة بهم. فالـ كي. جي. بي. تجند عملاءها قبل انتسابهم الى مخابرات الجيش، وذلك خلال خدمتهم العسكرية في موسكو، وكذلك يتم تجنيد الآخرين في مراكزهم في

الخارج. وكان الواقع للتعاون هو الاعتقاد بقدرة الـ كي. جي. بي. على منع هؤلاء - إذا شاءت - من السفر الى الخارج.

كان ممثل الخطوط الجوية السوفياتية «ايروفلوت» يعمل بتصرف رئيس مخابرات الجيش في طهران نيكولاي دوميدينكو القادم من اوكرانيا، وكان للمرة الثالثة يقوم بجولة عمل في ايران، ولكنه في الواقع لم يقم بأي دور يذكر، وكان ينبغي معاقبته على أمور كثيرة فعلها.

عملت الايروفلوت مع الخطوط الإيرانية وكان للأخيرة متدربان يعملان في مكتب الايروفلوت لبيع بطاقات السفر. في ذلك الوقت كان العديد من الاوروبيين والاميركيين العاملين في ايران يفضلون السفر عن طريق الخطوط السوفياتية بسبب تدني سعر بطاقة السفر عن سائر الخطوط الأخرى، وبالتالي اغتنام فرصة السفر عبر الاتحاد السوفياتي ومشاهدة معالم ذلك البلد العجيب. كان ثمن البطاقة في اوروبا مئتين وخمسين دولاراً، بينما كان على الخطوط الغربية سبعمئة وخمسين دولاراً، فاغتنمت الايروفلوت الفرصة وحددت ثمن البطاقة لغير المواطنين السوفيات بخمسمئة دولار محققة بذلك قيمة إضافية قدرها مئتين وخمسين دولاراً في البطاقة، إضافة الى أن الدفع كان يتم بالعملة الصعبة.

تلك الارباح اقتسمت بين الايرانيين ودوميدينكو، علماً أنه كان يعمل مع الأخير في الايروفلوت مواطنان حاولا جاهدين اقناعه بالاقلاع عن ذلك، إلا أنه هددهما بالانتقام إن هما حاولا إفشاء الخبر.

كذلك استغل دوميدينكو تزوير المصاريف الخاصة، وقد شهدت هذا ذات مرة عندما كنت في مطار مهرباد أقوم بعمل خاص، وكان إقلاع الطائرة قد تأخر عن موعده فاشترى دوميدينكو المشروبات لبعض الركاب من مشرب المطار، وعندما قدمت اليه الفاتورة لتوقيعها زاد رقم (٣) على المجموع المدون وهو (٣٥) دولاراً ليصبح (٣٣٥) دولاراً. وهذه الواقعة تبقى بسيطة أمام أمور أخرى غيرها كانت تحدث. فالناس الطيبون الشرفاء كانوا يخافون دوميدينكو ظناً منهم أنه من الـ كي. جي. بي.، وقد تبين أنه هو من اختلق هذه الرواية. ولكن في الوقت نفسه لم يكن الأمر بعيداً عن الحقيقة، فقد كان عميلاً (مخبراً) للـ كي. جي. بي. خلال عمله مع مخابرات الجيش.

أخيراً تمكنت الـ كي. جي. بي. من الحصول على مستندات تثبت تورطه

في التزوير المالي، وأبلغت المركز في موسكو بذلك، ولكن لم يصـدر من هنـاك أي رد فعل، لأن مدخوله كان قادراً على إيجاد الدعم له في المجلس الأعلى.

عندما لاحظ الناس الشرفاء أن دوميدينكـو لم يُعـاقب أصبحـوا يـرفضـون الكلام معنا، وقد برهنت استنتاجاتنا أن الايرانيين الاثنين اللـذين عمـلا معـه كانا من السافاك.

ولكن دوميدينكو لم يكن مثالاً مختلفاً عن غيره في مخابرات الجيش.

الفصل التاسع

الخط (ان) ـ التقدم بالأعراف ـ الجنرال مغربي

لعل من حسن الحظ أني لم أكن على علاقة مع أيٍّ من أولئك المخبرين المنتشرين بين أفراد الجالية السوفياتية في إيران، مما هيّأ لي التفرغ للقيام بالعمل الحقيقي للمخابرات، وقد ركزت نشاطي على دبلوماسيي الدول الرأسمالية في طهران محاولاً تجنيد البعض منهم، كما رحت أخطط لبناء علاقة وثيقة مع «رام» عميلي الوحيد قنصل السفارة الأفغانية.

ولم يكن التأقلم مع السلك الدبلوماسي بالأمر السهل علينا نحن السوفيات، وذلك مردّه الى جهلنا المطبق في التصرف الرسمي واتباع الأصول الاجتماعية لكونها نوعاً من التقاليد الرأسمالية من وجهة نظر المخططين السوفيات، وقد سبب لنا ذلك حرجاً اضطررنا إزاءه الى تجنب المشاركة في الأنشطة الدبلوماسية، وذلك إضافة الى عائق آخر يتمثل في مسار المحادثات، وذلك بالرغم من إجادة دبلوماسيينا وضباط مخابراتنا اللغات الأجنبية التي يتكلمونها ببراعة، فالسوفيات لم يعتادوا التعبير عن أفكارهم صراحة وبطريقة مباشرة، وهذا يعود الى تركيبة النظام السوفياتي الذي يجعل المواطن يفكر في أمر ويقول شيئاً مختلفاً عنه تماماً. إذ عند الحديث في المواضيع السياسية يتجنب الدبلوماسي السوفياتي إعطاء رأيه في موضوع ما خشية أن يكون الأمر مدبّراً فيشكوه أحد الحاضرين الى السفير لاحقاً.

أما فيما يختص بالـ كي. جي. بي. فكان هذا الأمر مختلفاً. فعلى الأقل لم نكن نأبه إن شكى أجنبي أمرنا حول حديث ما الى قيادتنا أو الى السفير. أما في المجال الاجتماعي والبروتوكولي فكان كل منا يدبر أمره بنفسه، ومثل هذه المواضيع لم نتعلمها في مدرسة المخابرات.

خلال الشهرين الأولين تعرفت على تسعة عشر دبلوماسياً، وكما هو متبع

فقد جرت دراسة شاملة لملفات الدبلوماسيين الأجانب الذين تعرفنا عليهم، وذلك بالتنسيق مع القيادة العامة في موسكو. وعادةً ما يصار الى جمع المعلومات الموجودة في القيادة (تي) لترسل بعد ذلك الى المقر في السفارة. وكانت هذه المعلومات تستغرق وقتاً طويلاً بسبب عدم توفر نظام الكمبيوتر ولعدم جدية الضابط المختص، فكانت تلك المعاملات تأتينا بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع. وبوصولها تعاد دراسة ملفات أولئك الدبلوماسيين من قبل الجهاز (إن) المختص بأمور اللاشرعيين، ويجري اختيار المرشحين الذين يتمتعون بالصفات المناسبة للتجنيد، وفي العادة يقع الاختيار على اثنين أو ثلاثة منهم.

لقد كان تدبير الاجتماع مع «رام» صعباً، ويجري الاعداد له من قبل ضابط المخابرات قبل يوم واحد من الموعد المحدد.

مخطط ترتيب الاجتماع مع العمل «رام»

١ ـ تاريخ الاجتماع: ٣١ تموز / يوليو ١٩٧٧

٢ ـ وقت الاجتماع: الساعة ١٢,٣٠ ـ ١٤,٣٠

٣ ـ مكان الاجتماع: مطعم مكسيم، شارع زهر

٤ ـ نوع السيارة: بيجو ٥٠٤

٥ ـ اسم السائق: الرفيق سيدوف

٦ ـ مواصفات تقنية: مكتب التنصت: جهاز راديو للإرسال ـ جهاز لاسلكي.

٧ ـ اشارة تحذير: . ــ ــ ــ نظام «مورس». يستخدم لتوحيد الرسائل.

٨ ـ رواية مختلقة: زيارة المكتبة.

٩ ـ وجهة السير: يغادر الرفيق سيدوف السفارة الساعة ٩,٣٠ سالكاً الطرق التالية: (تذكر بالتفصيل اسماء الشوارع وأماكن التوقف، الخ..)

١٠ ـ في حال الملاحقة قبل الوصول الى مكان الاجتماع على الضابط المسؤول تنفيذ الرواية المختلقة والعودة بعد ذلك الى السفارة.

١١ ـ العودة الى السفارة في الساعة ١٥,٣٠ (بعدها تتخذ تدابير ويبدأ

البحث عن المفقود).

١٢ ـ نقطة التفتيش: مراقبة ضابط المخابرات وهو في طريقه للاجتماع للتأكد من سلامة الوضع.

وبعد الانتهاء من التخطيط للاجتماع يجري التنسيق والتداول بالأمر مع مكتب التنصت والارسال، وكان كيريشنكو حذراً ودقيقاً، وغالباً ما كان يغير في الخطط بناءاً على ما كان يسمعه عبر الأجهزة اللاقطة.

ومن ثم يلتقي ضابط المخابرات الخبير التقني ليصار الى تحضير المعدات اللازمة لجهاز البث والارسال وآلة التسجيل، وهي أمور يفضل الاستغناء عنها بالنظر لكونها اثباتات تدينه في حال تعرضه للتوقيف.

بعد ذلك يأتي دور المراقب في نقطة التفتيش ليوافق على المخطط. وهذا الأخير يجب أن يكون خبيراً بشوارع المدينة.

كذلك يصار الى إعادة درس المخطط مع رئيس القسم المسؤول عن إدارة العملية، فيجري البحث بكل تفصيلاته.

أما رئيس المخابرات الثقافية وهو المسؤول عن أمن جميع العمليات فكان المحطة التالية، ولكنه لم يكن على دراية كافية بالشؤون الايرانية، وهو لا يتكلم الفارسية، كما انه لم يكن مطلعاً على التقاليد والظروف المحلية، ولذا فإن المراجعة التي يقوم بها كانت عديمة الجدوى، بل ومتعبة، ومع ذلك كانت تنتهي بتوقيعه على المخطط.

وهذه الاجراءات المذكورة كانت تستغرق نصف يوم عمل بالتمام، وليس ثمة مفر لتجنبها، فالتوقيعات ضرورية للاحاطة بالأمور في حال فشل العملية.

وفي اليوم المحدد للعملية على ضابط المخابرات مراجعة مكتب التنصت والارسال لمعرفة المستجدات، إذ من الممكن تأجيل العملية في حال اكتشاف تحركات مشبوهة في منطقة الاجتماع. فالمخاطرة غير ضرورية في مثل تلك الظروف، ومن الأفضل التضحية ببعض المعلومات بدلاً من خسارة المصدر ذاته.

وصلت الى مكان الاجتماع بدون متاعب، وتركت سيارتي بعيداً لأن رقم

اللوحة يدل على أن السيارة تابعة للسفارة السوفياتية. كانت اعصابي متوترة بعض الشيء، فالمنازل منتشرة على جانبي الطريق، وخيّل إلي أن المارة يرمقونني بنظرات مشبوهة.

لم يظهر «رام» في الوقت المحدد، ولا خلال العشر دقائق الاضافية المفروض على ضابط المخابرات إعطاؤها بعد الموعد المحدد، وترددت في الرحيل سريعاً، وبقيت في المكان أربعين دقيقة إضافية، ولم يظهر لرام من أثر. شعرت بالخيبة لتبديد الوقت والحماس، ولكن مثل هذه الأمور متوقعة أغلب الأحيان في عمل المخابرات.

ثم إن رام لم يظهر في الاجتماع الطارىء بعد اسبوع ولا في الاجتماع الطارىء الثاني، وقد علمت من بعض المسافرين الأفغان أنه لا يزال على قيد الحياة وأنه بخير. لذلك قررت مقابلته في السفارة على المستوى الدبلوماسي.

كان الضغط المتواصل ابتداءاً من تحضير مخطط الاجتماع حتى نهايته مصدراً لحالة تعب وتوتر شديدين، وسبق أن قيل لنا في المدرسة إن خير علاج لهذه الحالات هي الراحة إضافة الى الفودكا والويسكي، ولكن دون التنبيه للحدّ من هذه العادة الأخيرة، فغدت المشروبات الكحولية أمراً طبيعياً وعادياً إثر كل عملية، فكان كل من الضابط المسؤول والضابط المناوب وعامل التنصت والارسال والسائق إضافة الى رؤساء الأقسام يتجه الى الكاراج الخاص بالـكي. جي. بي. حيث الغرفة الخلفية المغلقة والمخصصة لحفظ الكحول في السفارة، وكانت المشروبات تحفظ لاستعمالها خلال العمليات كهدايا للعملاء، ولكنها بمرور الوقت أصبحت تحت تصرف الموظفين يرضون بها نزواتهم.

مثل هذه الأمور جعلت الكثيرين يعتقدون أن ضباط الـ كي. جي. بي. يتقاضون الرواتب المرتفعة ويعيشون بطريقة مرفهة، ولكني لا أشاطرهم اعتقادهم، والحقيقة أن ضباط الـ كي. جي. بي. خارج الاتحاد السوفياتي يتقاضون رواتبهم بالعملة الأجنبية تبعاً لرتبهم الدبلوماسية، وبما أن هذه الرتب في العادة هي الأدنى فقد وضع ترتيب لتعويض ضباط الـ كي. جي. بي. عن هذا التدني. فالضابط برتبة ملحق تجاري يتساوى في الراتب مع السكرتير الثاني ويحصل على الفرق المالي من ادارة الحسابات في السفارة وهذا الاجراء اعتبر منصفاً في ظل عدم وجود ترقيات.

أما المواطنون السوفيات في الخارج فكانوا يقبضون ستين بالمئة من مدخولهم بالعملة السوفياتية ويتم تحويلها الى موسكو لتوضع في حساباتهم، وكان دخل ضابط الـ كي . جي . بي . يوازي ضعف ما يتقاضاه المسؤولون في وزارة الخارجية، غير أن هذا لم يكن يعني بالضرورة أن وضعه المالي أفضل، ولا سيما في ظل نظام المصاريف المعمول به في مقر الـ كي . جي . بي . في الخارج . وقد يتعين على ضباط الـ كي . جي . بي . مرة في الشهر طلب ما يلزمهم من مال لإدارة عملياتهم وتقديم ايصالات بذلك .

في سنة ١٩٧٧ كثرت العمليات وتنوعت . فمن اجتماعات مع العملاء والعمل على التجنيد، الى العمليات لمصلحة القيادة العامة في موسكو، ومن ضمنها كتابة رسائل الى القادة الايرانيين (وهي بالطبع غير رسمية) توضع بالفارسية من قبل القسم (اس) في القيادة العليا الأولى، وترسل خفية الى أعضاء الحكومة الايرانية والى الشاه والسافاك وكانت تتضمن معلومات لتشويه صورة الولايات المتحدة الأميركية في ايران، وخلق حالة عدم استقرار لحكم الشاه، وكذلك الكشف عن أعمال السافاك وغير ذلك .

وقد أوكلت كتابة الرسائل الى ضباط الـ كي . جي . بي . ليصار الى وضعها في مراكز البريد، واضطر هؤلاء الى وضع القفازات لتجنب ترك أية بصمات . وتضمن العمل الخطط الروتينية من ملاحقة ومراقبة واجراءات أمنية أخرى كاختيار مراكز البريد في أنحاء المدينة، وبعدم وضع أكثر من رسالة واحدة في كل مركز، وقد عمل على تلك العمليات بعناية فائقة حالت دون الشك بأنها من أعمال السوفيات .

في أيلول / سبتمبر ١٩٧٧ اشتركت في ثلاث عمليات نظمتها المخابرات السياسية، وكانت مهمتي في غرفة التنصت والارسال التي أنشأناها في زارقند تحسباً للعمليات في شمال طهران، وكان برفقتي فيكتور كزاكوف وهو ضابط في المخابرات السياسية، وكنا نتنصت على الموجات التي تستعملها السافاك، وقد بدا الأمر طبيعياً في الأيام الأولى . وفي الليلة المقررة للعملية ارتفع فجأة صوت عبر راديو السافاك خلال حديث دار بين اثنين من المسؤولين، وكان حول الصعوبات التي يعانيانها في العمل وضآلة المبالغ الموظفة، وعن الشكاوى الصادرة من المستشار الأميركي ويدعى لونغ الى رؤسائهما، الأمر الذي كان يعرضهما للمتاعب، وقد استمر الحديث زهاء ثلاثين دقيقة غمرنا

فيها الفرح لما سمعناه والتقطناه من تذمر في صفوف السافاك.

لم يخطرنا أحد بانتهاء العملية، ولبثنا ننتظر اتصالاً من السفارة طال حتى الحادية والنصف ليلاً. وعند عودتنا الى المكتب كان كزانكن رئيس المخابرات السياسية مجتمعاً الى دنيزوف رئيس المخابرات الثقافية وقد غطى دخان السجائر الكثيف الغرفة، وكانت الأجواء تشير الى حدث ما.

قال كزانكن حانقاً: «ألقي القبض على بوريس كبنوف والعميل «مان» خلال العملية من قبل السافاك. وذهب رسدين الى وزارة الخارجية لاسترجاع كبنوف، فالسلطات الايرانية لا تستطيع ادانته لكونه يحمل صفة دبلوماسية».

لقد كان كبنوف ضابطاً في المخابرات السياسية تحت غطاء رئيس القسم القنصلي في السفارة، وكان محبوباً من الجميع لما يتمتع به من خصال حميدة وروح مرحة، إضافة الى أنه كان من أكفأ العاملين في السفارة، ولكن يبدو أن الاعتقال لا يطال أياً كان وانما الأفضل، فالذين لا يقومون بأي عمل ينجون.

عند عودة كبنوف ورسدين من وزارة الخارجية بدا الأرهاق على وجه الأخير كما بدت بقع من الدم على قميصه. واتضحت صورة ما جرى بعد ذلك. فقد تم الاتصال بالعميل «مان» عبر جهاز راديو على الموجة المتوسطة التي يستعملها خبراء الـ كي. جي. بي. للالتقاط والارسال، وتم التقاط اتصال مستعجل من «مان» قبل يومين يدعو فيه الى اجتماع طارىء. لبّى كبنوف الدعوة لكن «مان» لم يحضر. غير أن البث للدعوة الى الاجتماع ظل مستمراً، وقد سمعت بنفسي كبنوف ينبّه كزانكن الى انه يشتم رائحة جرذ (دلالة على شكه بما يجري)، ولكن الأخير اعتبر الأمر مجرد عطل تقني وانصرف مسرعاً الى حفلة الاستقبال في السفارة.

رافق «تتكن» سائق العمليات «كبنوف» الى مكان الاجتماع، وفيما كان الأخير يشغل راديو الارسال علّه يسمع شيئاً من «مان» اندفعت سيارة باتجاههما وصدمت مقدمة سيارتهما وانطلقت اخرى وصدمت جنب المرسيدس واغلقت الطريق عليهما سيارة ثالثة للسافاك من اليسار، ووقعوا في طوق محكم.

وقفز رجال السافاك بمسدساتهم وأحاطوا بسيارة تتكن وكبنوف وأمروهما

بالخروج ، فما كان من الأخير إلا أن فتح النافذة مبرزاً بطاقته الدبلوماسية ، غير أن هذا لم يكن كافياً لـردع الإيـرانيين فسـارع أحـدهم وركل الـزجـاج الجانبي فحطمه وفتح الباب ، مما أدى الى إصابة كبنوف بجروح . ومن دون أية مقاومـة أجبر ضابطانا على الصعود في سيارة السافاك واقتيدا الى وزارة الخارجية الايرانية حيث اتصل المسؤولون هناك بالسفارة السوفيـاتيـة طـالبين حضـور من يقـوم بتسلم الضابطين .

وهكـذا اتهم «كبنـوف» و«تتكن» بـالتجسس وطلب منهما مغـادرة البـلاد خلال ثمانٍ وأربعين ساعة .

وأعقب ذلك حدث آخر بارز في العلاقات الإيـرانيـة السـوفيـاتيـة ، فقـد اقـدمت السلطــات الإيــرانيــة وتحت تأثير من الأميركيين على نشر الخبر في الصحف . وقد سبق هذا الحادث إلقاء القبض على ضباط من الـ كي . جي . بي . ومخابرات الجيش ، وقد كانت هذه الأمـور في الماضي تأخـذ منحى هـادئاً وسرياً ، وكان إبعاد المتورطين في عمليات التجسس يتم دون ضجيج ، أما هذه المرة فكان الـوضع مختلفـاً ، وتصـدرت العنـاوين المثيرة الصحف الإيـرانيـة : «إكتشاف شبكة تجسس للـ كي . جي . بي . في ايران» ، «الــ كي . جي . بي . داخل الأراضي الإيرانية» .

لقد طلب من جميع الضباط في السفارة التكتم على ما حـدث ، وفي اليـوم التالي كان جميع العاملين في السفارة على علم بكل التفاصيل ، وراحوا ينظـرون إلينا بطريقة تنم عن السخرية فيما علت وجوه ضباط مخابرات الجيش ابتسامـة عريضة . وتبيّن فيما بعد أن الخبر تسرّب عبر زوجات الضباط اللواتي نقلنـه الى صديقاتهن ، وهؤلاء بدورهن أشعنَ الخبر على من لم يسمع بـه . أمـا بـالنسبـة لضباط السفارة فإن ما حدث كان خسارة لأفضل عميل لديهم ، وقـد عـرفنـا هويته بعد نشر الخبر في الصحف .

لقد كان «مان» يشغل منصب بريغادير جنرال في الجيش الإيراني ويـدعى «مغربي» ، وكان عميلاً للـ كي . جي . بي . منذ ثلاثين سنـة ، وقـد جنّد عـام ١٩٤٧ ، ويعتبر من أفضل العملاء وسبق له أن قدم معلومات سرية في غايـة الأهمية للاتحاد السوفياتي . وقـد رُقّي في السنـوات الأخيرة وأصبح مسـؤولاً عن مشتريات الأسلحة من الولايات المتحدة الأميركية ومن الدول الغربية الأخرى ، إضافة الى كونه شخصية مرموقة في المجتمع الإيراني ، وكانت له مكانته المعروفة

في مجالس الشاه والحكومة والسافاك، ولذا فقد كانت خسارته لا تعوَّض، وكذلك لم يكن ثمة بديل آخر بإمكانه تقديم معلومات هامة عن النشاط الأميركي في ايران، ولا سيما أنه كان على معرفة تامة بكل ضباط المخابرات السياسية.

نتيجة لما حدث جاءت ردة الفعل من موسكو بوقف جميع نشاطات المخابرات في السفارة مع الطلب بتقديم تقدير حجم الخسائر الناتجة، وأعطي الضباط فترة لالتقاط الانفاس، فللفشل ردة فعل عكسية تؤثر على الموظفين.

شغلت قضية «مغربي» حيزاً ضخماً في وسائل الاعلام على المستوى الدولي، وغدت مثاراً للتشهير في كل مكان في العالم الغربي، وبالأخص في مجلتي تايم والنيوزويك الاسبوعيتين. واتخذت الضجة الاعلامية طابعاً مختلفاً، ولكنها في الوقت نفسه كانت ذات أبعاد مفيدة. فقد أعطت للـ كي. جي. بي. حجماً أكبر ودوراً أعظم، وذلك على اعتبار أن الـ كي. جي. بي. ركزت على تجنيد عملاء كبار من جنرالات وأعضاء في الحكومات وضباط ذوي رتب عالية في المخابرات الغربية، وكذلك لدأبها على إنقاذ عملائها في حال القبض عليهم أو فشلهم وانكشاف أمرهم، وكدلالة على ذلك ذكر الضابطين في المخابرات البريطانية كيم فيلبي وجورج بلايك وكذلك اسم الكولونيل آبل اللاشرعي السوفياتي الذي رفض الكشف عن أسماء مئات العملاء بعد القبض عليه في الولايات المتحدة الأميركية.

ما كنا لنتمنى أفضل من هذا، وإذا كان هناك من متردد حتى الآن في التعامل مع الـ كي. جي. بي. فإن هذه الوقائع سوف تشجعه على اتخاذ القرار، فكل ما يطلبه المرء موجود، من المال الكثير، الى الحماية الكاملة، الى انقاذه في حالة القبض عليه. لقد أعطى الاعلام الغربي القضية حجماً كبيراً فعمل من «الحبة قبة». فأمثال فيلبي ومغربي ينتميان الى جيل الحرب العالمية الثانية، وفي ذلك الحين كان الغرب يعتبر الاتحاد السوفياتي حليفاً له في الصراع ضد النازية، وكانت الشيوعية في أوجها، ولذلك كان إخلاء سبيل العملاء بدعة.

أما في الواقع فإن الـ كي. جي. بي. تتخلى عن عميلها بمجرد القبض عليه، وهي لا تعمل على إنقاذه إذ هو من الناحية القانونية أجنبي لا علاقة للاتحاد السوفياتي به، وبالتالي لا يحق المطالبة بإخلاء سبيله، مع العلم أن

وعوداً من هذا النوع كانت تعطى للعملاء خلال تعـاونهم مع الـــ كي . جي . بي .

ولكن عندمـا يتعلق الأمـر بـالـلاشرعيين فإن الأمـر يختلف ، إذ أن هـؤلاء مواطنون سوفيات ، وفي هذه الحال فإن جهوداً قصوى تبذل لاسترجاعهم .

وبالعودة الى قضية «مغربي» ، فبعد جدل ونقاش طويلين حـول الأسبـاب التي أدت الى هذه النهاية أجمع المسؤولـون على أن الـرجل قـد «أُحـرق» بسبب الجهد الإضافي الـذي كـان يطلب منـه كل أسبـوعين ، وكـان ذلك منـاقضـاً للاجراءات المتبعة مع العملاء ، غير أن طلبات القيادة العليا في موسكو كانت فوق الاحتمال ، وقد أصرّ «مغربي» على أن تتم جميع الأعمال في منـزلـه ، وكـان هذا يعني ذهاب سيارة تحمل لوحة السفارة السوفياتية الى منـزل «مغـربي» كل أسبوعين . فكانت تلك أسباب كافية لافتضاح قضيته .

بعد ستة أشهر أحيل «مغربي» الى المحاكمة وصـدر الأمـر بإعـدامـه رميـاً بالرصاص . نفذ الحكم في كانون الأول / ديسمبر ١٩٧٨ قبل شهرين من قيام الثورة في ايران ، ورفضت موسكو اقتراح السفارة بمسـاعـدة عـائلـة الضحيـة معتبرة الأمر في غاية الخطورة .

على اثر قضية «مغربي» تفاقم الأمر ، وعلت الأصوات في الصحف الإيرانية والعالمية منـددة بأعمال الـــ كي . جي . بي . التجسسيـة ، وركـز الاعـلام على الضرر الذي ألحقة «رباني» المسؤول الرسمي في وزارة التعليم والذي قبض عليه في ايار / مايو ١٩٧٧ ، وقد أشرت سابقاً الى هـذا العميل ، وجلّ مـا يمكنني إضافته في هذا المجال هو أن الاعلام استمر بانتهاج الاسلوب المنفعل ذاته وقد ترافق مع هستيريا حول مدى نجاح وتأثير الـ كي . جي . بي . غير أننا كنا قد تعودنا التآلف مع مثل هذه الحالات .

الفصل العاشر

الموت للشاه ـ نمو المعارضة ـ فاديكن ومخطط اغتيال الشاه

في خريف ١٩٧٧ وصل الى طهران فريق خاص من المهندسين السوفيات للإشراف على ترميم مبنى السفارة السوفياتية، وعلى الأخص مقر الـ كي. جي. بي. ومكتبي السفير ونائبه ومقر مخابرات الجيش. وكان عليهم التأكد خلال عملية الترميم من عدم وجود أجهزة للتنصت وتركيب الوسائل اللازمة لتوفير الحماية. لم تشمل هذه الإجراءات الشقق السكنية التي يسكنها الموظفون السوفيات، رغم أن معلومات الـ كي. جي. بي. أكدت وجود أجهزة التنصت فيها، وقد منع منعاً باتاً التفتيش عليها، ولكن في حال اكتشافها ينبغي ابلاغ المسؤولين لاتخاذ التدابير اللازمة، وعلى الأرجح لتسريب معلومات مشوشة ووهمية للعدو.

ولكون فريق الهندسة تابعاً للقيادة التقنية في الـ كي. جي. بي. فإن من الطبيعي البدء في مقرنا، ونتيجة للتخطيط الجديد أزيلت الغرفة العامة وأعطي كل قسم غرفة خاصة لرئيسه وأخرى للضباط التابعين له، وجهزت جميع الغرف بعوازل لموجات الصوت تمنع استراق السمع.

وباندلاع الحرب الأهلية في لبنان انتقل مقر اللاشرعيين في المنطقة من بيروت الى طهران، ونتيجة لذلك ازداد عدد الضباط في القسم (ان) الى ثلاثة، كما انتقل فلاديمير غولوفانوف رئيس القسم الذي سبق أن شغل منصباً في ايران اعتباراً من سنة ١٩٦٨ حتى ١٩٧٣، وهو من الضباط الموصوفين بالجدية ويتكلم الفارسية، وقد لاءمني هذا الوضع كثيراً لتفضيلي العمل مع ضابط ذي خبرة.

غير أن انتقال المقر الى ايران لم يكن يعني بالضرورة احتمال قدوم اللاشرعيين في المستقبل من مختلف البلدان، ولكن المعارضة كانت بدأت بالتصاعد في

طهران، وراحت الصور والتعليقات «الموت للشاه» تظهر على الجدران، وكان وراءها المجاهدون ومنظمات الفدائيين السرية. وقد برز هؤلاء أواخر الخمسينيات إبان موجة الماركسية الاسلامية التي عرفت في الشرق الأدنى في ذلك الحين بدعم من الصين وسوريا وليبيا، والتي كانت سفاراتهم تنادي ضد الأميركيين و «اسرائيل»، وكان الهدف إزاحة الشاه واقتلاع ايران من نير النفوذ الأميركي. وقد ترافق ذلك مع سياسة السوفيات الخارجية في المنطقة، إلا أن السوفيات لم يكونوا على اتصال مباشر مع المجاهدين أو المنظمات الفدائية لسببين رئيسيين.

الأول هو أن الاتحاد السوفياتي لا يدعم أية منظمات سياسية ما لم يتوقع أملاً لنجاحها في المستقبل، وقد رأت السلطات السوفياتية حكم الشاه مستقراً نتيجة دعم الولايات المتحدة الأميركية، وبالتالي فإن المنظمات المناوئة لم تكن لتشكل أي تهديد يذكر، ولا سيما أن جل عناصرها من الطلاب، وهم معدودون. يضاف الى ذلك أن عملاء كثيرين للسافاك اندسوا بين تلك المجموعات وتعرفوا على أعمالها وأنشطتها، وقد بدا ذلك واضحاً في حملة الاعتقالات ومحاكمة قادة المنظمتين في طهران سنة ١٩٧٣ عندما راحوا يعدون لعميات إرهابية في ايران.

والثاني تمثل في التحذير الذي أطلقه الشاه للبلدان التي قد تتعاطف أو تتعامل مع المعارضة الإيرانية في الداخل أو الخارج بقطع العلاقات الدبلوماسية معها، وكان ذلك موجهاً بالدرجة الأولى الى الاتحاد السوفياتي وحلفائه. وقد نفذ الشاه تهديداته فقطع العلاقات مع كوبا بعدما التقى فيدل كاسترو ايراج اسكندري السكرتير العام لحزب الشعب الايراني (توده) وهو الحزب الشيوعي الايراني في موسكو خلال المؤتمر السادس والعشرين للحزب الشيوعي في شباط / فبراير ١٩٧٦، كما أن كاسترو لم يكن على وئام مع الشاه بسبب وجود قوات كوبية في انغولا واثيوبيا.

والواقع أنه لم يكن لحزب توده وجود فاعل داخل ايران بعد أن منعته السلطات الايرانية من ممارسة نشاطه في سنة ١٩٤٠، فلجأ الكثيرون من أفراده الى موسكو وبرلين الشرقية، أما من بقي في ايران فقد أودعوا السجون.

إزاء وضع سياسي على هذا النحو من الحدة أيقن السوفيات أن الشاه قد يلجأ الى قطع العلاقات الدبلوماسية معهم إذا ما قاموا بالاتصال بمعارضيه

من المجاهدين والفدائيين، وقد سبق للشاه أن أقدم على ذلك مع كوبا لمجرد لقاء تم بين كاسترو ومعارض في حزب صغير في الخارج. ولذا فقد أعطيت تعليمات صارمة الى جميع السوفيات في الخارج والى الـ كي. جي. بي. بعدم إجراء أي اتصال مع تلك المنظمات، وقد قوبلت محاولات إقامة علاقات من قبل هؤلاء حتى منتصف السبعينيات بكثير من السلبية.

لم يشأ السوفيات تعكير العلاقات مع الايرانيين تحسباً لردة فعلهم التي قد تؤدي الى تزايد علاقاتهم مع الأميركيين.

وكما هو معلوم فإن للاتحاد السوفياتي حدوداً مشتركة مع ايران تمتد الى ما يناهز المئتين وخمسين كيلو متراً، وحرصاً على إبقاء علاقات توازن مع الاتحاد السوفياتي من جهة والولايات المتحدة من جهة أخرى أبقى الشاه قوات محدودة على الحدود الايرانية السوفياتية، وهذه القوات لا تضم مستشارين عسكريين أميركيين. وبذلك ضمن الشاه تلقي المساعدات الاقتصادية من كلتا الدولتين الكبريين. فقد حصل على معظم الأسلحة من الولايات المتحدة وفي الوقت نفسه حصل على عدة أنواع من أسلحة أخرى من الاتحاد السوفياتي. ولكن الأميركيين باعوا ايران أسلحة حديثة ومتطورة مما استدعى بالضرورة الاستعانة بخبراء أميركيين لتدريب الايرانيين على كيفية استخدامها، الأمر الذي دفع بالاتحاد السوفياتي الى اعتبار ذلك تكديساً للسلاح في منطقة استراتيجية، وبالتالي الاعتقاد باحتمال استخدامها من قبل الأميركيين في حال نشوب حرب ضده.

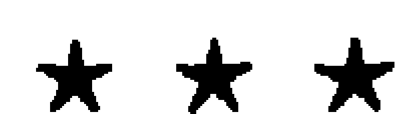
لقد كان بَدَهياً أن تأمل الولايات المتحدة بقطع العلاقات الدبلوماسية بين ايران والاتحاد السوفياتي، وهذا ما حرص السوفيات على تجنبه.

وكانت الحملات الاعلامية مستمرة على الاتحاد السوفياتي من قبل الغرب، وقد اتهمت الـ كي. جي. بي. أنها وراء المجموعات الارهابية المنتشرة في العالم. . والواقع أن الأمر لم يكن كذلك، فالاتحاد السوفياتي دعم وما زال يدعم ما يسمى منظمات التحرير الوطنية، ومن وجهة نظر السوفيات فإن هذه المنظمات إنما تكافح للقضاء على الوجود الامبريالي في بلادها، وبمعنى آخر فإن الهدف من كفاحها إزاحة الحكومات الموالية للأمريكيين واستبدالها بأخرى مؤيدة للسوفيات، ومرجعية القرار بتأييد هذه الحركات الثورية يعود الى موسكو. فإذا رأت القيادة السوفياتية أن تلك المجموعات مؤيدة بالفعل

للسوفيات قدمت لها الدعم السياسي والمادي، وأفضل مثال على ذلك هو ما انتهجته السياسة السوفياتية تجاه الأكراد في العراق، فقد قُدِّم لهؤلاء الدعم والمساعدات على مدى عدة سنوات ولكن بمجيء حزب البعث المؤيد للسوفيات الى الحكم في سنة ١٩٦٣ توقفت عن مساعدة الأكراد، ولم يحرك السوفيات ساكناً حيال ما فعله حزب البعث بالحركة الكردية.

ولكن فيما يتعلق بالمجموعات الارهابية الصغيرة في اوروبا مثل الألوية الحمراء وحركة العمل المباشر فلم يكن للاتحاد السوفياتي أية صلة بها، ولكنه غض النظر عن بعض أفراد المنظمات التي تتلقى تدريبات وأسلحة من عدة بلدان مؤيدة للسوفيات في الشرق الأدنى. ومن الناحية العملية لم يكن للـ كي. جي. بي. أي دور في هذا الشأن. أما مهمة الإبقاء على علاقات قربى مع حركات التحرير الوطنية فهي من اختصاص الدائرة الدولية لمجلس السوفيات الأعلى، وتتم الاجتماعات مع قادة هذه المجموعات في بلدان العالم الثالث، ولهؤلاء يعود اتخاذ قرار الاختيار بين الاستعانة بالـ كي. جي. ب. أو مخابرات الجيش، وهذه الأخيرة هي التي تتولى تسليم الأسلحة بما في ذلك السرية منها. كما يتولى الجيش تدريب رجال المنظمات. وقد تم تدريب العرب في مخيمات خاصة في صحارى آسيا الوسطى، كما تدربوا على التدريب تحت الماء في المخيمات بالقرب من أوديسا.

ولقد كان من السهل اللجوء الى الـ كي. جي. بي. للقيام بالمهمة لو أن قادة المجلس الأعلى ارتأوا ضرورة لذلك. ولنأخذ مثلاً على هذا أن بعثة كبيرة من منظمة التحرير الفلسطينية حضرت الى موسكو سنة ١٩٧٦، ومن جملة ما طلب تدريب بعض العناصر على كيفية تزوير المستندات والأدوات التي تستعمل في عملية التزوير، وكانت الأدوات موضبة في حقيبة يد صغيرة يسهل نقلها الى مسرح العمليات التي قد تكون في غرفة فندق أو في مطار، أعطت الدائرة الدولية للمجلس الأعلى تعليمات الى دائرة المستندات في الـ كي. جي. بي. في القيادة (اس) لاستقبال الفنيين الفلسطينيين بكل احترام وترحيب، ولكن دون اعطائهم مساعدة خاصة أو الإفصاح عن أية أسرار.



تتعدد وتختلف الأساليب والستراتيجيات بين جهاز مخابرات وآخر في

الدول، غير أن محور الاهتمام الرئيسي فيها يبقى حول كيفية مواجهة أجهزة الأمن المحلية. ففي الولايات المتحدة يواجه ضباط المخابرات السوفياتية الـ أف. بي. آي والـ سي. آي. اي. وفي الاتحاد السوفياتي يواجه ضباط المخابرات الأميركية الـ كي. جي. بي. أما في ايران فكنا في مواجهة السافاك. وربما يستهزىء القراء بالأمر ظناً منهم أن السافاك منظمة بسيطة، ولكنني أخالفهم الرأي.

فالسافاك أو «ساذمان ـ اي امنيبات ـ فا إتيلا أت ـ اي كيشفار» وهي منظمة الأمن والمخابرات في ايران أسسها الأميركيون سنة ١٩٥٦، ولقد تعاظم دورها في الحقبة الزمنية التالية.

فبعد نشوب الحرب العالمية الثانية ازداد نفوذ ألمانيا النازية في ايران، فأرسل الاتحاد السوفياتي وبريطانيا قواتهما الى هناك في ٢٥ آب / أغسطس ١٩٤١ لصدّ الألمان، فدخلت القوات البريطانية من الجنوب والسوفيات من الشمال، ووقعت طهران تحت السيطرة السوفياتية. وبعد انتهاء الحرب ونتيجة لعدة محاولات فاشلة لإقامة حكم مؤيد للسوفيات في الشمال اضطر السوفيات الى سحب قواتهم سنة ١٩٤٦، وذلك على اثر الضغوط التي تعرضوا لها من قبل الحلفاء وكذلك نتيجة لامتلاك الولايات المتحدة السلاح النووي الذي لن تتورع عن استعماله في حال تعرض مصالحها للخطر، ولا سيما أن السوفيات لم يكونوا قد امتلكوا بعد القنبلة الذرية إلا في عام ١٩٤٩. وبانسحاب السوفيات من ايران قضي على الحزب الشيوعي الإيراني (توده) ورحل أعضاؤه الى مختلف المهاجر.

في هذه الفترة كان مصدق قائد الجبهة الوطنية الإيرانية من أشد المعارضين لنفوذ بريطانيا الاقتصادي في ايران، وعندما أصبح رئيساً للوزراء عام ١٩٥١ سارع الى تأميم النفط الذي كان تحت سيطرة البريطانيين، والتزمت الولايات المتحدة في بداية الأزمة جانب الحياد خشية أن يعمل مصدق على التقرب من السوفيات. وفي عام ١٩٥٣ دبرت انقلاباً عسكرياً أدى الى إقالة مصدق وإعادة الشاه وحلّ جميع الحركات اليسارية والديموقراطية. وبذلك تمكن الأميركيون من فرض الشاه ديكتاتوراً قوياً في مجابهة السياسة السوفياتية، ومما مكن شركات النفط الأميركية من وضع يدها على صناعة النفط الإيرانية، وتلقى البريطانيون ضربة موجعة.

أما الشاه فكان محتاجاً الى الدعم لممارسة سلطته المطلقة، وكان الجيش الإيراني في ذلك الحين ما زال خاضعاً للنفوذ اليساري القوي ووجد الشاه غايته في جهاز السافاك الذي كان تحت سيطرة الولايات المتحدة، لذا فقد أسند لهذا الجهاز الدور لتقديم الدعم لنظام الشاه ولقمع المعارضة وعلى الأخص اليسارية منها. وانضم السافاك الى المجموعة الدولية واسمها الحركي «تريدنت» التي تضم في عضويتها كُلاً من الـ سي. آي. اي والموساد (المخابرات الاسرائيلية). وكانت «تريدنت» في مواجهة الاتحاد السوفياتي وحلفائه في المنطقة. وهذه هي المجموعة التي اقتضى على الـ كي. جي. بي. التعامل معها.

ويتكون جهاز السافاك من ثماني قيادات ذات أدوار مختلفة. وكان القسم الثامن موكلاً بمكافحة التجسس ومراقبة الأجانب، وقد أحاط أفراده بالسفارة السوفياتية من كل الجهات، ففرضوا مراقبة مشددة على الداخلين والخارجين، وكانوا يقومون بالتقاط الصور الفوتوغرافية.

أما فرق الملاحقة في السافاك، وجميع عناصرها من المحترفين في عمليات المطاردة، فكانت سياراتهم مرابطة على الدوام حول السفارة، وفي العادة كان ثمة رجلان في كل منها. وكان من يتولون المراقبة في حالة تربص مُبْقين على مسافة معينة غير مرئية، غير أن ضابط المخابرات في الـ كي. جي. بي. كان دائماً سباقاً الى توقع الخطوات التالية في حال ملاحقته، الأمر الذي يؤدي الى اكتشاف الملاحقين. فالسيارات عادة ما تكون مجهزة براديو التقاط خاص يسمح بسماع ما يقوله الملاحقون وبشكل لا يثير انتباه هؤلاء، فالوسائل التقنية لا يعوّل عليها كثيراً حيال هذه الأساليب. كذلك لم تكن اجراءات السافاك حيالنا دفاعية، بمعنى انتظار ارتكابنا مخالفة ما تكون مبرراً للقبض علينا، بل اتسمت بأسلوب عدائي وهجومي في آنٍ معاً. وكانت التعليمات الصادرة الى العناصر تقضي بجعل حياتنا مستحيلة. وقد تعرض بعض الموظفين السوفيات في شققهم في طهران لضغوط جمة، من مثل وضع أجهزة للتنصت وزيارات سرية.

بعد إقامتي بعدة شهور في المقر الصيفي للسفارة السوفياتية في زارقند قررت الانتقال الى شقة خاصة لاعتقادي أن ذلك سيكون أفضل نظراً لطبيعة عملي، فعثرت على شقة مفروشة ومريحة في الطرف الشمالي من طهران، واتفقت مع

المكتب المكلف لترتيب اجراءات استئجارها. وفي اليوم التالي فوجئت بأحدهم يبلغني أسفه لحدوث خطأ في الموضوع، وقد تعلل بأن الشقة سبق تأجيرها لشخص آخر. في البداية اعتقدت أن مثل هذه الإشكالات عادة ما تقع، ولكن بعد محاولات مماثلة لست عشرة شقة كانت النتيجة ذاتها، الى أن عرفت أن السافاك علمت بأمر بحثي عن شقة، ولكوني سوفياتياً فقد لجأت الى تصعيب الأمر بما يتيح دفعي الى الزاوية التي يريدونني فيها، إذ رسا الأمر أخيراً وبعد جهدٍ مضنٍ في العثور على شقة في شارع غزالي المقابل للسفارة وذلك حتى تبقيني السافاك تحت المراقبة وحيث لا تضطر الى توزيع عناصرها في مواقع أخرى.

وبانتقالي الى الشقة بدأت المضايقات تطالني خلال فترة عملي بعيداً عن الشقة. ثيابي دائماً مبعثرة بطريقة متعمدة.. اعقاب السجائر ملقاة هنا وهناك على الأرض.. كتب ممزقة.. حركات غير عادية خلف الأبواب.. اتصالات هاتفية مشبوهة في ساعات الليل. لقد كان الأمر حقاً مزعجاً وصعباً أول الأمر. غير أن قبول الوضع والتأقلم معه كانا ضروريين.

كذلك لم تستثن السافاك دوائرنا الرسمية، فالقسم القنصلي كان هدفاً لهم هو الآخر، فكان يأتينا بعض الأفراد بقصد الاحراج، وكان أحدهم من المعتوهين.. استمر يزورنا بشكل متواصل، وكان من الصعب معرفة مدى صحة ما ذكره مرة في غرفة الانتظار: «لقد ذبحت الكثير من الناس.. ربما خمسة آلاف شخص.. ولم يكفني هذا العدد.. والآن أريد أن أعيش في روسيا.. وإن لم تعطوني تأشيرة فسوف أذبحك أنت أيضاً».

حاول حراسنا طرده أول الأمر عن طريق الاتصال بالشرطة الإيرانية، ولكن ذلك لم يُجْدِ فقد استمر بالمجيء. وعرفنا بعد ذلك الجهة التي تدفعه، وقررنا التروّي، فراح الحراس يقدمون له الشاي والبسكويت كلما أتى، فيجلس هادئاً، ولكنه لا يلبث أن يثور مهدداً متوعداً. وذات مرة اندفع نحوي وامسك بكتفي وهو يهددني بالقتل، استدرت ودفعته الى الحائط بقوة جعلته يرتعش من الخوف.

بعد هذه الحادثة راح يظهر على فترات متباعدة، ولكن ما إن يَرَني حتى يهدأ ويظل صامتاً لاينطق بكلمة. لم يكن معتوهاً كما حاول أن يبدو لدرجة المخاطرة بحياته.

كذلك عمد السافاك الى إرسال أشخاص تحت شعار التعاون معنا . فكانوا يلجأون الى عرض رسوم وتصاميم لـدبـابـات أميركيـة وغير ذلك من طـائرات وغواصات ، الخ . . لكني لم أكن لأقع في الشرك ، فانتهجت حيال ذلك مبدأ ثابتاً هو: «لا تنجذب الى أمر مـا مهما كـان صـوتـه مقنعـاً ، فمن الأفضل أن تضيّع من تلاحق على أن تمشي الى الفخ . . فكل ما أنا بحـاجـة اليـه سأجـده بنفسي» .

لقد كانت سمعة السافاك السيئة معروفة لدى الناس في جميع أنحاء العالم ، وقد شاعت الأخبار عن استخدامها لوسائل التعذيب التي اعتمـدهـا أنصـار الشاه ومن سبقهم في العصور الهمجية ، من مثل نهش كعاب الأقـدام ووضع الأجسام عارية على لوحات بيضاء بالغة الحرارة ، وكان التعذيب بالكـابـلات الكهـربـائيـة واستخـدام المواد الكيميـائيـة التي تسبب الشلل وغير ذلك من الأساليب التي لم تتورع السافاك عن استخدامها ضد ضحاياها .

غير أنه لكي تكون تلك حقيقة دامغة فقد كان يعوزها الدليل ، ولم يكن للـ كي . جي . بي . عميل واحد داخل السافاك منذ تأسيسها سنـة ١٩٥٦ حتى سنة ١٩٧٩ ، والتقارير التي وردت إلينا كانت إمـا عبر راديـو الارسـال أو من مصادر غير مباشرة ، وظل ايجاد منفذ الى داخل السافاك أمراً مستعصياً علينا . أما أولئك الذين التقينا بهم مصادفة فقـد شعـرنـا بكـرههم لنـا ، حتى إنهم لم يتيحوا لنا مجالاً لإقامة علاقة ما معهم . ولم نتمكن من معرفـة أسبـاب الخوف والكراهية لديهم .

وقد استمر الجمود في الأنشطة والعمليات بعد الفشل الذي منيت بـه الــ كي . جـي . بي . في طهــران ، ولم يتعَدَّ العمـل القسـم (ان) المولـج بحمايـة اللاشرعيين ، إضافة الى الدبلوماسيين الأصليين الذي انصرفوا الى مزاولة أعمالهم اليومية .

ومن جهتي تـابعت العمل مع العميـل «رام» فحضّرت لعمليــة تمديـد جوازات السفر الأجنبية التابعـة لـرجلنـا الـلاشرعي«بـدوين» المسجل بصفـة مواطن أفغاني . كانت الأمور تجري على ما يرام الى أن عرفت من مسافر أفغـاني عن طريق الصدفة أن القنصل الأفغاني «رام» موشك على إنهاء خـدمتـه وأنـه سيعود الى كابول بعد أسبوعين .

بعد يومين ، وخلال لقائي بـ «رام» سألته عن تاريخ نهاية خـدمتـه ، ودون

أن يرف له جفن أجابني: «بعد ثلاثة أو أربعة أشهر» واقترح علي تمديد جواز السفر الخاص باللاشرعي بعد شهر.

احتطت للأمر، وأعلمت رئيسي في السفارة، وبعد إجراء تحقيق حول خبر رحيل «رام» تناول أكثر من مصدر تأكد فعلاً أنه يستعد للرحيل بعد أسبوعين.

وبدا واضحاً أن «رام» مزمع الذهاب دون القيام بما هو مطلوب منه. ولم نجد بداً من اللجوء الى أسلوب المفاجأة معه، وكان أنْ التقيته صباحاً وهو في طريقه الى السفارة وأعلمته أنه يجب العمل على تمديد الجواز حالاً، وعندما حاول التنصل والتهرب دفعت بالجواز اليه لأعود وأتسلمه منه مجدداً بعد نصف ساعة في السفارة الأفغانية.

وبمغادرة «رام» الأراضي الايرانية ملأني الشعور بالارتياح وأحسست أن الحمل انزاح عن كتفي نسبياً.

في هذا الوقت كان الدور الرئيسي للقسم (ان) هو العمل مع «كونارد» و«ايفي» اللذين كانا يستعملان مستندات ألمانية غربية، وكان الاتصال بهما يتم كل ستة أسابيع بواسطة رسالة تُخَبّأ في مكان سبق تحديده لهما، ومن الممكن أن تكون مدسوسة في جدار أو خلف أنبوب مياه، وفي كل مرة كان ثمة طريقة مستحدثة للاتصال باللاشرعيين فلا يستخدم المخبأ إلا لمرة واحدة لا يُرْجَع اليه بعدها. ولذا كان ايجاد مخابىء مغايرة عملاً متواصلاً. وكانت العملية تتم على النحو التالي:

في حال الاتصال العادي عبر الراديو يطلب المركز من العميل اللاشرعي أن يعدّ الرسالة ويرسلها الى السفارة عبر المخبأ المعتمد في الوقت المحدد.

وكان «كونارد» يفضل استعمال عبوة معجون الأسنان بعد تفريغها لوضع رسالته فيها.

وبعد تسلُّم السفارة للرسالة يُبْرَق على الفور الى المركز للإبلاغ عن انتهاء العملية وعن الطريقة التي سيتم بها الارسال الى هناك، أي عبر القناة «فولغا» أو «ديف». و«فولغا» هي الوسيلة الأسرع لإرسال معومات ما من الخارج الى مركز الـ كي. جي. بي. فبعد تسلّم العبوة من اللاشرعي تغلّف دون أن تفتح ويعهد بها الى مسؤول في السفارة ـ وفي هذه الحالة أكون أنا ـ ليتولى ارسالها في

أول رحلة للخطوط السوفياتية (ايروفلوت) في ذلك اليوم، إذ يقوم بنقلها الطيار الثاني في الرحلة الذي يعرف لمن يجب تسليم العبوة، وهو في العادة موضع ثقة الـ كي. جي. بي. أما العنوان فهو دائماً ذلك الذي تعنون به الرسائل المماثلة الى الـ كي. جي. بي. «الى فاسيلي ايفانوفيتش ١٠١».

وعند وصول الطائرة موسكو يسلم الطيار العبوة الى قائد المفرزة، وهذا بدوره يسلمها الى ضابط القيادة (اس) الذي يكون منتظراً في المطار.

غير أنه نتيجة للجمود السائد فقد تدنى معدل توارد المعلومات من ايران، وراجت شائعات وصلتنا من موسكو أن اللوم يقع على جنادي كزانكن، ونتيجة لذلك ارسل الملازم جنرال ايفان انيسيموفيتش فاديكن، وهو شخصية بارزة في الـ كي. جي. بي. الى طهران بصفة رئيس للمقر، وذلك في محاولة لإعادة تنظيم الجهاز. وكان وصوله في آذار / مارس ١٩٧٨ تحت اسمه الأول المستعار «فاديف»، كان في الستين من عمره، طويل القامة، ذا شعر أسود متماسك، وعينين بارزتين حادتيّ النظرات، وبشكل عام بدا عليه مظهر الضابط الصارم.

ولد فاديكن في موسكو وأنهى دراسته في معهد الصحافة في جامعتها، وقد قبل للعمل في المخابرات قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية، وخلال الحرب كان نائب قائد إحدى وحدات الانصار في بيلوروسيا، وقد تابع عمله مع المخابرات فَرُقِّي الى رتبة ضابط ومن ثمَّ الى قائد للقسم (اف). وكانت مهمته العمل المباشر (التخريب وتصفية أعداء النظام السوفياتي).

بعد الانقلاب الذي دبرته الـ سي. آي. اي في ايران وازدياد النفوذ الأميركي هناك وظهور الشاه دكتاتوراً رأى السوفيات في خضم هذه الحرب الباردة أنه في حال نشوب الحرب مع الولايات المتحدة الأميركية فان ايران ستكون الرمح في خاصرة الاتحاد السوفياتي في الجنوب، ولذلك وبعد موت ستالين حاول السوفيات تحسين العلاقات مع ايران، ولكنهم فشلوا بسبب العداوة التي يكنها الشاه نحوهم، فهو لن ينسى إهانة ستالين له خلال الحرب العالمية الثانية حين أرغمه على الحضور الى السفارة السوفياتية في طهران لإجراء المحادثات معه. فإهانة مثل هذه ليس من السهل غفرانها.

هذه السلبيات دفعت القادة السوفيات الى اتخاذ قرار إنهاء الشاه الذي لم يكن له وريث حتى ذلك الوقت. وساد الاعتقاد أنه بموت الشاه فإن الحكومة

الموالية للغـرب التي من الممكن أن تتشكل سيكـون التعـامل معهـا أسهل من التعامل مع الديكتاتور الأبله والمعادي للسوفيات .

على هذا حسم موضوع الشاه .

وكسائر العمليات التي من هذا النـوع أعطيت التعليمات من قبل اللجنـة التنفيذية للحزب الشيوعي ، فكلف القسم (إن) برئاسـة فـاديكن بـالتخطيط والاعداد للعملية التي باشر بدراستها من مركزه في موسكـو. وفي سنـة ١٩٦١ انتقل الى السفارة السوفياتية في طهران تحت صفة دبلوماسية وبيـده صـلاحيـة مطلقة لطلب المساعدة من أي كان لانجاز مهمته .

استعـان فـاديكن بعميل لاشرعي من الـ كي . جي . بي . وبضـابط من السفارة بدا شبيهاً بالايرانيين من حيث مظهره وطريقة حديثه .

في هذا الوقت بالذات كان حدث مهم يجري في فينا ، إذ اجتمع خروتشوف القائد السوفياتي الى جون كينيدي رئيس الولايات المتحدة . تطـرق الاجتماع الى بحث مشاكل المنطقة وبخاصة الوضع في ايـران . . وقـد هـزىء خـروتشـوف صراحة بالشاه ، وقال : «إن ايران ثمرة عفنة وسوف تسقط قـريبـاً عنـد أقـدام الاتحاد السوفياتي ، وستعم الفوضى قريبـاً في البـلاد» ، ثم أردف : «لن يكـون للاتحاد السـوفيـاتي أيـة عـلاقـة بهذه الأحـداث كما ليس في نيتنـا التـدخل في أمورهم» .

لم أدر كيف كانت ردة فعل كينيدي إزاء هذا الهجـوم الصريح . لا بـد أنـه اعتبره تصريحاً عادياً فرض على القائد السوفياتي ، علماً أن خروتشوف كان يدرك ما يقوله . فالمخطط الذي وضعه فاديكن نال موافقة خروتشوف بـالتشـاور مع أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي .

كان مخطط العملية عاديـاً ومضمـونـاً في آنٍ معـاً ، وقـد استعـان فـاديكن بمعلومات العميل اللاشرعي لمعرفة الطريق الذي تسلكه سيارة الشـاه عـادة ، وذلك بهدف اختيار المكان لوضع سيارة مفخخة يجري تفجيرها لاسلكياً عنـد مرور موكب الشاه . كان هذا كل ما في الأمر.

استغرق التخطيط مدة سنة كاملة ، واختيرت للعملية سيـارة فـولسفـاكن (بيتل) اشتراها طرف ثالث .

بدأت دراسة الطريق التي يسلكها الشاه عادةً وهو في طريقه الى مقر البرلمان الايراني، وارسلت المتفجرات في الحقيبة الدبلوماسية الى السفارة حيث تسلمها الرجل اللاشرعي من ضباط الـ كي. جي. بي. وكان هذان يلجآن الى الغرف السفلية للتمرن على إطلاق النار، وذلك بهدف التدخل والاجهاز على الشاه ومن معه في حال نجاتهم من عملية الانفجار، وكان من المفترض أن تكون تلك مهمة اللاشرعي وحده.

حدد موعد العملية في شباط / فبراير ١٩٦٢، واوقفت سيارة الفولسفاكن المليئة بالمتفجرات في الشارع الممتد بين المجلس وقصر نيفوران، بينما استعد اللاشرعي وبيده جهاز التفجير اللاسلكي. أخيراً ظهر موكب الشاه، ومر قريباً من السيارة المفخخة، فضغط اللاشرعي على زر التفجير، ولكن الانفجار لم يحدث، ومرّ الموكب متابعاً طريقه.

لم يخاطر اللاشرعي بالاقتراب من السيارة، وإنما اتجه حالاً للقاء ضابط الـ كي. جي. بي. وأعلمه بفشل العملية وعدم حدوث الانفجار، ثم سلمه جهاز اللاسلكي واختفى بين الجموع في الشارع. وعاد الضابط وأطلع فاديكن على ما حدث، وراحت الأحداث تتسارع وتأخذ منحىً خطراً، فالشاه ما زال على قيد الحياة وشحنة المتفجرات ما زالت في السيارة وهي عرضة للانفجار، وعندها سيتضح للجميع من كان مقصوداً في العملية، ولا يعلم أحد حينذاك، ما سيطرأ جرّاء افتضاح الأمر.

إذ ذاك قرر فاديكن بصفته رئيساً إبطال مفعول شحنة التفجير في السيارة. وبسبب اختفاء اللاشرعي لم يعد من مهرب سوى تكليف ضابط الـ كي. جي. بي. بمهمة فك فتيل التفجير. ويصعب وصف ما اعترى ذلك الضابط من المخاوف اثناء قيامه بتعطيل صاعق التفجير.

عاد فاديكن وضابط الـ كي. جي. بي. الى موسكو على متن أول رحلة للأيروفلوت، وتم إرسال جهاز التفجير اللاسلكي الى المركز ليصار الى الكشف عليه من قبل الخبراء. وجاءت النتيجة انه كان يجب على اللاشرعي عند ضغطه زر التفجير أن يبقي ذلك لثلاث ثوانٍ، ولكنه لم يفعل. إذ ما كاد يضغط حتى تركه على الفور فلم تصل الاشارة الى كبسولة التفجير داخل العبوة.

وهكذا أنقذ خطأ تقني بسيط حياة الشاه وآخرين في دائرة تقارب مساحتها

الخمسمئة متر بما فيها موقع اللاشرعي المشرف على موضع السيارة. ذلك كـان نموذجاً للعمليات التي أوكلت الى إيفان فاديكن في ايران الذي لم يؤثر الفشل على دوره المستقبلي. ومن يمكنه إلقاء التبعة على شخص نتيجـة خلل تقني لا حيلة له فيه؟!

في أواخر الستينيات عين فاديكن قائداً للــ كي. جي. بي. بـرتبـة مـلازم جنــرال في كــارلشــورست شرقي بــرلين للتنسيق بين الـــ كي. جي. بي. والمخابرات الألمانية الشرقية، فتقسيم المانيا بعد الحرب العالمية الثانية جعل منها مصدراً حيوياً لمستندات اللاشرعيين.

عمل فاديكن على اتباع نظـام صـارم في جهـازه فمنع بيع مشروب البيرة في الكافيتريا العامة. وفي عام ١٩٧٤ عين قائداً للقيادة العليا الأولى في الـ كي. جي. بي. ومسؤولاً عن المخابرات كافة.

قبيل توجهه الى موسكو تحدث فاديكن أمام مجمـوعـة في المقـر الـرئيسي في كارلشورست، وتحت تأثير القليل من المشروب القـوي أطلق العنـان للسـانـه فتكلم عن الخدمـات التي قـدمهـا للــ كي. جي. بي. وذكـر اسم سميـون تسفيغن، وكان الأخير نائباً أول لرئيس الـ كي. جي. بي. وقال انه كان يعمل تحت إمرته في وحدة الأنصار وانه لم تكن لديه مؤهلات علمية.

وعند عودته الى موسكو فوجىء بخيبة أمل، إذ ألغي قرار تعيينه في منصب قائد المخابرات وأقيل من منصبـه في الــ كي. جي. بي. وعين نـائبـاً لـوزيـر الأشغال ـ الاسم المستعار للصناعة النووية في الاتحاد السوفياتي ـ ومسؤولاً عن الأمن في هذا الجنـاح. وقـد تبين لاحقـاً أن تقـريـراً رفع الى تسفيغن عما قـالـه فاديكن، وكان الأول متزوجاً من شقيقه زوجـة بـريجينيف، وكـان من السهل عليه إقناع اندروبوف رئيس الـ كي. جي. بي. وهو أيضاً أحد أقربـاء زوجـة بريجينيف بمعاقبة فاديكن. ولكنه لم يتمكن من تحطيمه كلياً، لأن الأخير كان عضواً في مؤسسة الحزب. وكما يقول الشاعر الـروسي: «الغـراب لا ينقـر عين غراب».

وكان أن رقّي فاديكن الى منصب رسمي في مؤسسة الحكم وتقـاضى راتبـاً كبيراً مع تخصيصه بسيارة وسائق. ولكن نزعة الرجل المحترف في داخله الـذي خاض حرب الانصار وتولى رئاسـة القسم (ان) حيث أشرف على ادارة المئـات من اللاشرعيين في ألمانيا الشرقية، تلك النزعة دفعته الى التقدم من اندروبـوف

طالباً العودة الى عمل المخابرات .

وبدافع الشفقة تم تعيينه في طهران ، وكانت تلك صفعة على وجهه ، ولكنه تقبلها راضياً لرغبته في العودة الى ممارسة عمله السابق ، ولأجل هذا عاد الى طهران يرافقه ليف بتروفيتش كوسترومين ، وكان ذلك في آذار / مارس ١٩٧٨ .

بعد وصوله بعدة أيام ، وفي وضح النهار تقدم رجل من البوابة الرئيسية للسفارة ورمى كرة من الورق الى داخل حرم السفارة . وقد رآه الحارس المناوب ولكنه تمهل لبعض الوقت قبل أن يرسل زميله لالتقاطها دون أن يلفت انتباه مركز مراقبة السافاك في الجهة المقابلة . عند فَضّ الأوراق وجد مغلف مختوم ، وقد قمت بتسليمه الى رئيس المقر . وعند فتحه وجدنا ملاحظة مدونة بالفارسية وهي عبارة عن طلب للاجتماع تحدد الوقت والتاريخ ، ولكن دون ذكر المكان ، وقد حملت توقيع حرب «د» .

أطلعت فاديكن وكوسترومين على الأمر ، ولكن أيّاً منهما لم يستطع الجزم إذا كان الغرض من ذلك تحرّشاً من قبل السافاك أم أن الرجل الذي ألقى بالكرة هو مجرد مجنون عابر . غير أن كوسترومين صاح قائلاً : «بالطبع ، «د» هو عميلنا وهو يوقع ملاحظته دائماً بهذا الحرف» .

لم يسأل أحد عن هوية «د» ، وهذا أمر طبيعي في عمل المخابرات ، ولكن الآراء تفاوتت حول الذهاب الى الاجتماع ، وكان مصدر القلق أن تكون السافاك قد لاحظت ما حدث وربما علمت بالأمر ، وفي كلتا الحالتين يكون خطر المداهمة وارداً . وأخيراً قرر فاديكن : «سنذهب الى الاجتماع في اليوم المحدد ، وسوف نجتمع بعد ساعتين للتحضير للعملية» . ولكنه لم يترك مجالاً لمناقشة الوضع ، وكذلك لم يقدم أية ايضاحات تسند قراره الاعتباطي .

واقتضت الخطة الموضوعة إيفاد فيكتور كزاكوف ضابط المخابرات السياسية الى الاجتماع في سيارة تخص شاميروف وهو ضابط في الـ كي . جي . بي . وكان يعمل في إحدى الشركات السوفياتية الايرانية . وكان على هذا الأخير أن يترك سيارته في مكان تمّ الاتفاق عليه ويذهب الى السينما خلال فترة العملية ، ويذهب بعدها ايغور مينن ، سائق السيارة ، ويأتي بها ويقود كزاكوف الى المكان المعين بعد التأكد من عدم الملاحقة .

كان على كزاكوف الوصول قبل خمس عشرة دقيقة من الموعد بقصد تفقد المكان، ومن ثم يبلغ كوسترومين القابع منتظراً في سيارة على مسافة قريبة. بعد ذلك يصار الى اتخاذ القرار بالاجتماع أو بإلغائه.

كان الاجتماع بالعميل «د» يتم عادة في مكان قريب من منزله لكونه رجلاً كهلاً، إذ كان يناهز الثمانين من العمر.

بوصول كزاكوف ومينن الى الشارع القريب من مكان الاجتماع لاحظا وجود حفرة لأعمال الاصلاحات تعوق حركة السير، كما لاحظا توقف سيارة بطريقة مشبوهة في الجوار بدت شبيهة بسيارات المراقبة التابعة للسافاك. وحينما أبلغا كوسترومين بها لاحظاه نعتهما بالجبن وأمرهما بمتابعة العملية.

خلال الاجتماع مع العميل «د» لم يذكر هذا أية معلومات ذات قيمة، وكانت يداه ترتعشان ورأسه يهتز، وكان يسأل عن كينوف طيلة الوقت. وبعد أن لاحظ كزاكوف أن ليس بحوزة «د» أي جديد مهم صعد الى السيارة وانطلق مع مينن. وما إن مرا بالقرب من منزل «د» حتى لمحا شاباً ايرانيا يخرج من البوابة وهو نظر الى السيارة وسجل رقم اللوحة.

لقد خامرنا اعتقاد بأن ما جرى لا يدعو الى الاطمئنان. فقد بدأ الأمر بترتيب اجتماع بطريقة غير مألوفة، ثم ما بدا على الرجل العجوز من الاضطراب، ومن بعد فقد ظهر ذلك الشاب الذي سجل رقم لوحة السيارة، كل هذا أدى الى تراكم الأفكار المقلقة. بعد مضي ثلاثة أيام على الاجتماع طلعت الصحف مبرزة فضيحة ضخمة تحت عناوين صارخة: «اكتشاف شبكة تجسس أخرى للـ كي. جي. بي. في ايران»، «اعتقال الجنرال درشاني الذي عمل ثلاثين عاماً مع الـ كي. جي. بي.»، «المخابرات السوفياتية لا تتعامل الا مع الجنرالات».

وعرف الجميع أن «د» كان الجنرال درشاني، وكانت المخابرات السوفياتية جنّدته خلال الحرب العالمية الثانية، والخدمة الوحيدة التي أدّاها للاتحاد السوفياتي كانت في سنة ١٩٤٧ خلال الحرب الأهلية الايرانية عندما كان قائداً عسكرياً لموقع تبريز، فقد أعلن استسلامه الى قوات حزب الشعب الديموقراطي في اذربيجان.

في ذلك الحين كان الجنرال في الخمسين من عمره، وقد تقاعد ولم يقدم

شيئاً بعد ذلك للمخابرات. إلا أن الـ كي. جي. بي. لاحقته وراحت تغدق عليه الأموال، الى أن ألقي القبض على كبنوف فتوقف دفع الأموال لـدرشـاني، وما الملاحظة التي رماهـا على بـوابـة السفـارة سـوى الـدعـوة لاجتماع غـايتـه الاستفسار عن سبب انقطاع المال عنه.

أما المضحك في هذه المأساة فهو في كون الصحف الايرانية وجهت أصـابع الاتهام الى الضابط شاميروف الذي كـان في السينما عنـدمـا جـرت العمليـة. فصدر قرار من وزارة الخارجية الايرانية بطرده من البلاد، مما أثار غضبه وجعله يقول: «انهم يطـردونني من غير سبب، فـلا دخل لي بـالعمليـة»، واستطـرد مستنكراً وموجهاً اتهاماته الى المسؤولين في السفارة: «هؤلاء الأغبياء لم يـدعـوني أقترب من المكان».

لقد قال ذلك بعد تأكده أن ليس لـديـه مـا يخسره، وأردف: «لقـد دمـروا حياتي من دون سبب، هؤلاء الخنازير، والآن لم يعد أمامي سوى الـذهـاب الى البلدان الاشتراكية. . ومن يريد الذهاب الى هناك؟!».

«حسناً سميردوف. .» قال له الضبـاط الآخـرون، وتـابعـوا: «إنـه لشيء معيب أن يطردوك، ولكن قل لنا هل كان الفيلم جيداً؟».

أما درشاني فقد جـرى اعتقـالـه، ولكن لم يعلن عن أيـة محاكمـة. وبعـد انقضاء مدة على اعتقاله اوردت الصحف أنه فارق الحياة نتيجة إصابته بذبحة قلبية خلال قيام السلطات باستجوابه. أما الحقيقة فإنه عذب حتى الموت.

★ ★ ★

كان التعامل صعباً مع فاديكن، وكـان الاجتماع بـه يقتضي الحصـول على موعد سابق بالهاتف. وفي حال طلبك الاجتماع به يكون رده على النحو التالي: «سأراك بعـد ثـلاث دقـائق ونصف»، أو: «ابقَ قــرب الهاتف وسأتصل بك عندما أتمكن من ذلك».

وبالرغم من تعوده على أسلوب العمل في طهران فقد كان دائم التبرّم نادبـاً حظه لقيامه بعمل دون مستواه، وكان يـردد: «اللعنـة على هـذا المقـر، فليس

هناك سوى عميل ونصف».

كما أن فاديكن كان سريع الانفعال، وفي أحد الأيام قدمت له برقية ليوقع عليها، وبعد أن قرأها بسرعة رمى بها جانباً وطلب أن أكتب غيرهـا مصراً على عدم التوقيع على أمور سخيفة، فعدت الى مكتبي ورحت أعيد قـراءة مـا سبق وكتبته، ولم أجد ما يبرر رفضه. عدت اليه ثانية بعد ساعتين وقدمت لـه نفس البرقية. فنظر اليها ثم قال: «هذا شيء مختلف تماماً» ووقع عليها.

الى جانب سيئاته الكثيرة كان فاديكن يتمتع بفضيلة واحدة قيمة، إذ كـان يكره الفساد وعدم الصدق، وهو بذلك يختلف عن فينوغـرادوف سفيرنـا ذي اليدين الوسختين.

لقد كان فاديكن والسفير في ذات الرتبة، فكل منهما كـان بـدرجـة نـائب رئيس وزراء، ولذا لم يكن بمستطاع السفير الضغط على رئيس الـ كي. جي. بي. الجديد كما كان عليه الحال سابقاً. ولم نعد نسمع رئيسنـا يقـول: «السفير لن يسمح بذلك»، «السفير لن يحب ذلك»، «السفير يطالب»، الخ.. فقد وُضع حد لكل تحرشات فينوغرادوف السابقة، وكذلك توقف عن التـدخل في الأمور الخاصة التي كان يتدخل فيها. فمثلاً في حال حصول تبادل في السكن بين عائلتين من ضباط الـ كي. جي. بي. بناءاً لقرار من فاديكن كان السفير يتصل مستفسراً عن عدم استشارته في الأمر. فيرد فاديكن: «لأنني لا أظن أن الأمر يعنيك». ويقفل الخط.

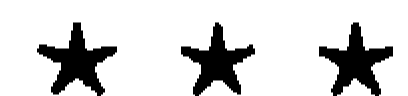
في التاسعة صباحاً من كل خميس كان يعقد اجتماع لجميع الدبلـومـاسيين في مكتب السفير، وفي هذه الاجتماعات يتلو أحد الحضور تقريراً لمحضر معـدّ سابقاً، ويصار الى مناقشته. كان الأمر مجرد نشاط عادي لم يستحوذ اهتمام الـ كي. جي. بي. ومخابـرات الجيش. وفي أحـد الاجتماعـات أعلن أن السفير سيتلو تقريراً عن فترة خدمته في مصر خـلال الاجتماع المقبل. وقـد بـدا ذلك مشوقاً، ولكنني لم أعلم إذا ما كان الدبلوماسيون الحقيقيون يعرفون حقيقـة دور الأخير في مصر كما كنا نعرفه في الـ كي. جي. بي. وفي مخابرات الجيش.

في ذلك الاجتماع امتلأت الغرفة بالحضور، فقد أراد الجميع سماع التفاصيل عما حدث هناك مع فينـوغـرادوف الـذي بـدأ بتـلاوة تقـريـره الممل، ثم راح يتحدث عن اجتماعاته مع السادات ليُكْبِر من شأنه. وعندما استرسل في ذلك راح فاديكن يكيل له الأسئلة من مثل: هل بإمكان السفير أن يخبرنا مـاذا حل

بهذا السياسي المصري بعد انسحاب الخبراء السوفيات؟ وعندما أغفل فينوغرادوف الرد عليه كان فاديكن يضيف معلناً أسماء السياسيين المؤيدين للسوفيات في تلك الفترة وكيف قضى السادات عليهم بعد رحيل الخبراء، واستفحل الأمر حتى انفجر السفير فرمى بقلمه على الطاولة وراح يصرخ بشكل هستيري انه غير قادر على متابعة تلاوة تقريره في هذه الأجواء.

«هكذا إذن. . وأي تقرير هو هذا؟» تساءل فاديكن «الأمر بلغ حد السخافة ويجب أن تخجل من نفسك يا فلاديمير ميخايلوفيتش بدل التبجح بأمر انت نفسك خربته»، قال فينوغرادوف محتداً.

كانت تلك الواقعة بداية الحرب المعلنة بين كل منهما. . . وأصبح الاثنان من الدّ الأعداء.



في أحد الأيام وجدنا نسخة من كتاب الكسندر سولزنيتسن ملقاة في غرفة الانتظار في القسم القنصلي، ولم يدر أحد ما إذا كان أحد الخبراء السوفيات قد نسيها، أو أن أحداً قد وضعها خصيصاً. . فرحنا نتناقل النسخة فيما بيننا لقراءتها، وعندما قدم أحد الضباط لتسليمي النسخة بدا حزيناً وسألني: «هل من الممكن أن يكون كل هذا حقيقياً؟» وقرأ علي بعض المقاطع لفلاديمير فيسوتسكي: «إذا كان ما يقولونه حقيقة وليس كذباً حتى الثلث منه فهناك أمر واحد يجب عمله، وهو الاستلقاء جانباً. . والموت».

في الكتاب ذكر سولزينتسن الرعب والتعذيب والمآسي والقسوة والموت وأجواء المخيمات كاشفاً عن أسماء الجماعات التي أبيدت. وقد ترك ذلك أثراً عميقاً على الجميع إذ كان كل شخص سوفياتي يعرف بالأمور المرعبة التي حصلت في سجون ومخيمات ستالين. ولم يقتصر الأمر على هذا الأخير فحسب، بل على كل قادة الحزب الشيوعي السوفياتي ومفوضية الشؤون الداخلية.

لقد عادت بي الذاكرة الى أيام الطفولة وذكرى اندريه ديمتريفتش «الجزار»،

وهو من مفوضية الشؤون الداخلية والذي عاش في المبنى ذاته الذي كنت فيه، والذي كان بإمكانه قضم رقبة رجل بضربة من يده. الناس الذين هم على شاكلته كانوا أحياءاً وكان العديدون منهم يعملون مع الـ كي. جي. بي. وهأنذا معهم. لم يقنعني عقلي أن «الأيام قد تغيرت الآن» وان «المذنب قد عوقب»، فمن يضمن عدم ظهور حاكم جديد من جورجيا غداً ليعيد الأمور جميعها الى ما كانت عليه في السابق؟ . . وما الذي يحدث بعد ذلك؟! فالفساد المستشري داخل الحزب بلغ مرحلة أصبح فيها شراء منصب السكرتير العام من الأمور الممكنة.

لقد أزعجتني هذه الأفكار لفترة طويلة، ولكن لا شيء يدوم. فالدولة التي كنت فيها لم تدم أيضاً، غير أنها لم تختف كلياً. . ورحت أغوص في أعماق ضميري وأعود فأعوم. وفي كل مرة كنت أجد نفسي في مواجهة الفساد والفوضى.

الفصل الحادي عشر

العطلة في موسكو وليفاديا

لكل ضابط كي. جي. بي. في السفارة الحق في إجازة سنوية، ويفضل الجميع الحصول عليها في فصل الصيف لتمضيتها في الاتحاد السوفياتي، غير أن الموافقة على موعدها تتم بالتنسيق مع المركز في موسكو.

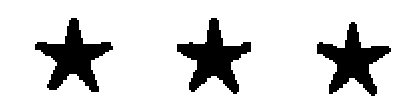
وقد حدد موعد حصولي للإجازة في شهر تموز / يوليو، وكان علي إنهاء بعض الأعمال، من بينها اعداد التقرير حول ما قمت به من نشاط طيلة العام. ولم يكن هذا بالعمل الصعب مثلما هو عليه الحال لضباط المخابرات الثقافية الذين لم يقوموا بأي نشاط يذكر ولا بأي عملٍ ذي شأن. في صيف ١٩٧٥ كان لدي عدة احتمالات تجنيد سبق أن قطَعَتْ شوطاً وقاربت على مراحلها النهائية. ولكن لن أجيز لنفسي ذكر أية أسماء أو أشير الى أية تفاصيل عن اتصالاتي، لأن ذلك من شأنه تعريض أولئك الأشخاص للمتاعب.

وكان يتعين إرسال التقرير الى المركز في موسكو قبيل شهر من وصول الضابط الى هناك في إجازة ليتسنى الاجتماع به ومناقشة ما رود في تقريره. وما إن يَحِنْ موعد الإجازة حتى يندفع الأصدقاء كل يطلب نقل صندوق صغير له الى موسكو، وهم في أغلبيتهم من الضباط ومسؤولي السفارة الذين لا يحملون الجوازات الدبلوماسية، وبالتالي لا يحق لهم عبور الجمارك دون تفتيش.

أما الدبلوماسيون فكانوا ينقلون البضائع الايرانية التي تدر عليهم أرباحاً ضخمة عند بيعها في الاتحاد السوفياتي. فالأقمشة ذات الألوان المميزة التي تنتجها مصانع النسيج في ايران رخيصة الثمن، إذ لا يتجاوز ثمن المتر الواحد أكثر من روبل واحد بينما كان يباع في محلات موسكو بخمسة وثلاثين روبلاً، وهذا يعود بربح صافٍ لا تقل نسبته عن ثلاثة آلاف وخمسمئة بالمئة.

لقد كانت الأقمشة تشترى بمئات الأمتار لتوضع في صناديق الويسكي

وترسل مع الأصدقاء وكان الصندوق الواحد يسع حوالي الخمسين متراً. فإذا أخذ صندوقان كان الربح الناتج ثلاثة آلاف وخمسمئة روبل، في حين أن كلفتها الحقيقية لا تجاوز المئة روبل. وبذلك يمكن للشخص شراء شقة خلال سنة إذا استمر في إرسال الأقمشة بشكل متواصل. ولم يكن ثمة عائق لتصريف هذه البضاعة هناك، إذ كانت تعرض للبيع بطريقة قانونية في واجهات المحال. ولذا فقد نَعُم سكان موسكو في ارتداء الملابس الأنيقة في وقت كانت فيه الملابس الغربية هناك شبه معدومة. والفضل في ذلك يعود الى أولئك الدبلوماسيين وأفراد الجالية السوفياتية في إيران.



بعد غياب ناهز السنة بدت الأمور لي في موسكو مختلفة عما كانت عليه. فالناس بعُدوا عن بعضهم البعض، وكانت المحال شبه فارغة، وبعد أن كانت النقانق الفرنكفورتية يكتظ بها الدكان القريب من سكني لم يعد لها وجود على الإطلاق، وأصبح الناس ينتظمون طوابير بانتظار وضع اللحوم والنقانق على الأرفف.

وخلال مدة إجازتي في موسكو قمت بزيارات للقيادات في المركز وهي لم تستغرق طويل وقت، إذ لم تكن ثمة مشاكل تستدعي اجتماعات مطولة، فقد كان تقريري الذي قدمته جلياً لا يحتاج الى مزيد من الشرح. وتقديراً لما قمت به من إنجاز، فقد عُمِل على مساعدتي بتوفير مكان لإقامتي في منتجع ليفاديا على شاطىء البحر الأسود في كريميا والذي يعتبر امتيازاً يمنح للضباط الكبار.

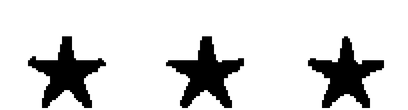
لقد سألني العديد من الناس من القسم الذي أعمل فيه ومن القسم الثامن للقيادة العليا الأولى عن الأوضاع السياسية التي بدأت تهز ايران، فأجبتهم أن علينا أخذ الأمور بجدية، ولكن ردهم كان أن نظام الشاه قوي ولن يسمح بأي تغيير في ايران.

والتقيت أصدقاءاً من مختلف الأقسام وتبادلنا وجهات النظر حول العديد من البلدان. وقد تبين لي أن الفساد بين أفراد الجالية السوفياتية في ايران لم يكن

له مثيل في أي مكان آخر. ففي كل البلدان كان سفراؤنا وقـادة الحزب والمدراء المحليون غارقين حتى آذانهم في الفساد. كانت الأخبار مختلفة ومتنوعة، ولكن النتـائج كـانت هي ذاتها: المرور دون عقـاب. فغـالبيـة الضبـاط تجمـدوا في مواقعهم وامتنعوا عن القيـام بأي نشـاط قـد يعـرضهم الى الطـرد من البـلاد، «لأجل مَن ولأي سبب؟ ألهذه المافيا؟ . . لا. . شكراً».

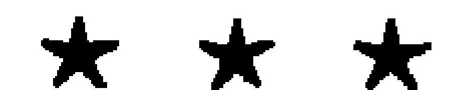
وانتقلت هذه العـدوى فطـالت الـــ كي. جي. بي. وكـان من العـادات المتبعة جلب هدايا رمزية للزملاء عند العودة. وكان ذلك على سبيل التقـديـر أو التودد ولم يكن نوعاً من الفسـاد. غير أن تلك الهدايـا لم تقـدم الى القـادة، وهي في الغالب أدوات مكتبية من صنع غربي، من مثل حاملة أقلام ومحايات مطاطية ومواد للتصحيح عند استعمال الآلة الكاتبة. أما الأصدقـاء المقـربـون فكانت هداياهم زجاجات من الويسكي أو الكونياك الفرنسي.

وخـــلال تغيبي في إجـــازتي علمت بأن رئيس القسم الأميركـي في القسـم (اس) سأل أحد الضباط إثر عودته من إجازته عن هداياه، وعنـدمـا أجـابـه الضابط إجـابـة سلبيـة هـدده بأن ذلك سيكـون لـه تأثير سيء على عملـه في المستقبل. فما كان من الضابط إلا أن سارع بتقديم تقرير عما حدث الى قيـادة الحزب، الأمر الذي ترتب عليه إقالة رئيس القسم الأميركي من منصبـه في الـــ كي. جي. بي. وهو ما اعتبر إنجازاً على طريق العدالة على الأقل.



كان قسمي في المركز يقع في الطابق السادس في غرفة مقابلة للسلّم في نهاية الممر. وعندما توجهت الى هنـاك بعـد عـودتي من الإجـازة لاحظت أن السلم الذي يصل بين الدورين الخامس والسادس قـد أغلق بصفـائح حـديـديـة، وكذلك السلم بين الدور الرابع والخامس. وعندمـا سألت عن السبب قيل لي انه منذ عدة أشهر في فصل الشتاء عُقد اجتماع في الدور الرابع في مكتب يوري اندروبوف رئيس الـ كي. جي. بي. حضره مسؤولـون من مجلس السـوفيـات الأعلى وممثلون من عدة وزارات، وعند انتهاء الاجتماع توجه الضيـوف لارتـداء معاطفهم وقبعاتهم، ولكن تبين أن ست قبعات من الفرو الغـاليـة الثمن قـد

فقـدت، وقـد سبب الأمـر إحـراجـاً لأنـدروبـوف. إذ كيف يجوز سرقـة الشخصيات الرفيعة في الحزب الحاكم في أكثر الأماكن حماية ومن غرفة الانتظار لرئيس الـ كي. جي. بي. نفسه.



كذلك سمعت خلال إجازتي في موسكو تفاصيل الانقلاب العسكـري في أفغانستان الـذي حـدث في ٢٧ نيسـان / أبـريل ١٩٧٨ إذ أقيلت حكـومـة الرئيس داود من قبل وحدات الطيران والمدرعات في الجيش الأفغـاني وشكلت حكومة شيوعية مكانها. في فصل لاحق سأتحدث عن التدخل السـوفيـاتي في أفغانستان. وهنا أود التنويه الى أن أحـداً في الـ كي. جي. بي. في طهـران لم يكن على علم بسيـاسـة بـلادنـا المستقبليـة تجاه الشعب الايـراني على الحدود الشرقية.

كانت ردود فعلنا على الانقلاب بعـد أن نقلتـه وسـائل الاعـلام الايـرانيـة مختلفة. فالجميع كانوا يدركون أن أفغانستان تدخل ضمن النفوذ السوفيـاتي. علماً أنها كانت تعتبر من دول عدم الانحياز، كما أن العلاقات بين الحكـومتين كانت متينة. فالخبراء السوفيات موجودون بكثرة في الجيش الأفغـاني، ولكننـا رأينا الانقلاب من منظار آخـر: «فم جـائع آخـر أضيف الى مجمـوعـة الـدول الاشتراكية التي تعيش من الاقتصاد السـوفيـاتي». كـان الأمـر مجرد دليل على مدى غباء سياسة القادة بريجينيف ـ سوسلوف.

وبالنسبة لي فقد كنت مهتماً أكثـر بما كـان يحدث في إيـران، حيث كـانت الأحداث تتطور بشكل مأساوي.

الجزء الثالث

الخميني قائدنا

الفصل الثاني عشر

سلالة بهلوي الحاكمة ـ قيامة الخميني ـ المجزرة في ساحة جلى
سقوط فاديكن ـ الحرب المفتوحة ـ الجمهورية الاسلامية

في أيلول / سبتمبر ١٩٧٨ وعلى اثر انتهاء إجازتي عدت الى إيران، ففوجئت بالتغيرات الإيرانية التي استجدّت خلال الأسابيع الستة التي غبتها. فقد غاب الهدوء والسلام عن طهران، وعمت المظاهرات يومياً وراحت تشتدّ. ومنذ بداية الاضطرابات في كانون الأول / ديسمبر ١٩٧٧ بدا حكم الشاه على المحكّ، وقد أدّت المعالجة السياسية التي انتهجها الأميركيون بشكل عام والرئيس كارتر بشكل خاص تجاه الدفاع عن الحقوق الانسانية، وكذلك عدم إقدام الشاه على اتخاذ الاجراءات الرادعة لكونه لم يكن ميّالاً الى سياسة القمع، الى تفاقم حدة المعارضة التي زادت من نشاطها. وأعلن العمال الاضراب العام في جميع أنحاء البلاد الذي طال عمال مصانع تكرير النفط، وبدأ النقص يظهر في المواد الغذائية والبنزين.

وفي هذا الوقت انتشرت في طهران أشرطة (كاسيتات) سجلت عليها خطب ـ لأحد آيات الله ـ الخميني يطالب فيها بقلب نظام الشاه. ولم يكن الاسم يعني شيئاً لنا أو للمسؤولين القدامى في السفارة. أما ملفات المركز في موسكو فزودتنا بما يأتي: «أدت التغيرات التي قام بها الشاه عام ١٩٦٢ الى بروز تيار مناهض ضم رجال الدين الاسلامي بزعامة آية الله الخميني، ولكن سرعان ما وضع حد لذلك، ونفي الخميني الى العراق حيث عاش منذ ذلك الوقت هناك».

وفيما يتعلق بالصراع الداخلي في إيران لا بد من استقراء الوقائع تاريخياً. فالاضطرابات التي اجتاحت اوروبا في أواخر القرن التاسع عشر ومع مطلع القرن العشرين انعكست بدورها على إيران، حيث تمكنت الطبقة المتوسطة

الوطنية من إحكام سيطرتها على مقاليد الأمور، فبرزت شخصيات قوية. وكان رضا خان، والد آخر شاه لإيران، الذي تدرّج من رتبة كابتن في الفرقة القوقازية الايرانية ليصبح وزير الحرب سنة ١٩٢٤ . وفي السنة التي أعقبت توليه هذا المنصب قاد انقلاباً عسكرياً منهياً بذلك سلالة ملوك الغجر التي حكمت ايران منذ ١٧٣٧ ، ثم نَصَب نفسه حاكماً أعلى تحت اسم رضا شاه بهلوي . و«بهلوي» لفظة ترمز الى أن الشاه من سلالة ملوك «الأكامينيد» التي حكمت البلاد قديماً قبل مجيء الاسلام .

حاول الشاه الجديد أن يظهر نفسه غير متعصب للعادات الاسلامية ، وأراد العودة الى جذور فارس العظيمة المنسوبة الى - زرادشت - (الزرادشتية هي الديانة الفارسية القديمة) . فراح يطور الاقتصاد ويقوم بإحداث تغييرات اجتماعية من ضمنها منع النساء من وضع الحجاب - الشادور - فأعطاهنّ حقوقاً وحريات لم تكن مُجَازة لهن من قبل . وعندما شعر بتزايد نفوذ رجال الدين عمل على قمعهم بلا هوادة .

كانت المانيا النازية إبّان ازدهارها الاقتصادي المثل الأعلى الذي تطلع اليه رضا شاه في الثلاثينيات ، وبنشوب الحرب العالمية الثانية كان لا بد لبريطانيا والاتحاد السوفياتي من أن يرسلا قواتهما الى ايران لتجنب تشكيل حلف مع هتلر . وهكذا تم نفي رضا شاه الى جنوب افريقيا حيث توفي هناك سنة ١٩٤٤ .

نَصَب الحلفاء ابنه الأصغر محمد رضا بهلوي شاهاً على العرش . ولكن بعد الحرب واثر القضاء على المعارضة سنة ١٩٥٣ راح الشاه يجمع قواه ، وكان والده علّمه أن ينظر الى اوروبا ، واراد أن يكون لبلاده دور رائد في الاقتصاد ، فكانت وسيلته لبلوغ ذلك ما أسماه «الثورة البيضاء» - التغيير دون إراقة دماء . وكانت مبادئها ستة :

- تأميم غابات البلاد
- اشراك العمال في أرباح الشركات
- قانون انتخاب جديد
- بيع بعض الممتلكات الحكومية الى القطاع الخاص

ـ إنشاء مجلس تعليمي من العسكريين الايرانيين للاشراف على مدارس خاصة لتعليم الأدب.

ـ استصلاح وتطوير الأراضي

وكان استصلاح وتطوير الأراضي من أهم المبادىء التي اعتُمدت، إذ انتقلت ملكيتها الى الفلاحين من اجل انتاج أفضل، وقسمت الأراضي ما بين ثلاث مجموعات: عائلة الشاه، الملاكون، ورجال الدين الاسلامي.

لم يكن هناك خلاف بين المجموعتين الأوليين. فالملاكون كانوا من المؤيدين للشاه، أما رجال الدين فكانوا يكرهونه واعتبروه الابن المعادي للإسلام وذا ميول غربية. وفي المقابل اعتبرهم الشاه السبب في التخلف الوطني، وعاد فحرمهم من جزء كبير من الأراضي فوهبها للفلاحين.

وقد حل المجلس التعليمي مكان رجال الدين ففقد هؤلاء دورهم في التعليم فلجأوا الى أعمال الشغب واعتصموافي المدينة المقدسة «قم» سنة ١٩٦٢. وكان على رأسهم آية الله الخميني.

ولد «روح الله الموسوي ـ الخميني» سنة ١٩٠٢ بالقرب من «قم» ونشأ على المعتقد الشيعي الذي كان وحده سائداً في ايران. وكان منذ صغره متطرفاً لا يقبل التسويات. وكان دوماً معادياً للشاه، وسبق وألقي القبض عليه مراراً لمهاجمته الملكية، وفي كل مرة كان يعد بوقف حملاته السياسية ثم يبدأ من جديد بعد أن يُخْلى سبيله. وفي سنة ١٩٦٣ صعّد حملاته قائلاً: «انهم يرموننا في السجن ويعذبوننا ويقتلوننا من أجل اليهود والولايات المتحدة و«اسرائيل» ويقدموننا ضحايا للشيطان الأكبر».

عمت الاعتقالات طهران، وقمع الجيش والسافاك المعارضين بوحشية، فقتل عدة آلاف من الناس وقبض على الخميني وسجن دون محاكمة حتى نيسان/ أبريل ١٩٦٤، ثم أخلي سبيله.

لقد تعاملت القيادة الثالثة في السافاك بعنف مع رجال الدين الذين لجأوا الى مهادنة الوضع نسبياً بعد العام ١٩٦٣.

في هذا الوقت كانت ايران الغنية بالنفط تجذب أنظار المستثمرين الأجانب وخاصة الأميركيين الذي كان وجودهم كثيفاً في مؤسسات كثيرة هناك. وفي

سنة ١٩٦٤ وافق البرلمان الايراني على مرسوم قضى بمحاكمة الأميركيين المتهمين بجرم ما داخل ايران وفقاً لقوانين محاكمهم وعدم إخضاعهم للقوانين الايرانية، الأمر الذي دفع الخميني الى مطالبة الجيش بقلب نظام الاستعباد والهيمنة، فقُبض عليه وأبعد الى تركيا، وبعدها انتقل الى العراق حيث عاش في مدينة النجف الشيعية. ومن هناك راح يهاجم نظام الشاه ويعمل على توطيد علاقاته واتصالاته مع رجال الدين الايرانيين.

شقت ايران طريقها نحو التطور فشهدت تحولات هامة في أكثر من جانب، وتمثل ذلك في رواج الأعمال وتحسن الأوضاع على مستوى الخدمات الصحية والتربوية إضافة الى تشييد المستشفيات وازدهار الصناعة والتجارة والزراعة. وقد لقيت هذه التحولات الدعم الكامل من قبل الطبقة المتوسطة ذات الميول الأوروبية والتي كانت تشكل عشرين بالمئة من السكان. أما الفلاحون، وبرغم الاستفادة التي جنوها نتيجة تلك التغييرات، فقد ظلوا تحت نفوذ رجال الدين.

كان الخميني المعارض الأكبر، وأعلن العديد من رجال الدين في البلاد أن الشاه ومساعديه وثنيون وأبناء للشيطان، وأن التغييرات التي يُتَباهى بها معادية للاسلام.

وفي سنة ١٩٧١ احتفلت ايران بالذكرى ٢٥٠٠ لقيام دولة ما قبل الإسلام، وكذلك تأسس معهد فركنخستان الخاص بالثقافة الايرانية، وكان الهدف منه إعادة دور اللغة الفارسية الأصلية بحجة ان الايرانيين هم من الهندو ـ اوروبيين وليسوا عرباً. واعتبر رجال الدين أن الأمر قصد به التهجم على الاسلام.

وبدأت الاضطرابات مع نهاية العام ١٩٧٧ بتشجيع من رجال الدين والمنظمات اليسارية. وفي صيف ١٩٧٨ عمت البلاد موجات المظاهرات وأعمال الشغب، فتقطعت أوصال الاقتصاد وشحت كميات البنزين، مما دفع وزارة الداخلية الايرانية الى إصدار بطاقات للحصول على البنزين مخصصة للهيئات الدبلوماسية. وبالرغم من ذلك فقد كان سائقو السفارة يقضون الساعات والى وقت متأخر من الليل منتظرين في المحطات الى أن يحين دورهم. وقد لجأت السفارة الى تجهيز خزان لهذا الغرض تحسباً للطوارىء.

في صيف ١٩٧٨ كان الأغنياء الايرانيون في حالة ذعر وقلق، فاحتشد

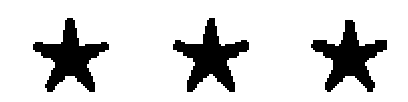
الناس في المصارف وراحوا يحولون أموالهم الى الخارج. وانتقلت مبالغ ضخمة من العملة الصعبة الى سويسرا وباريس ولندن ونيويورك وغيرها. وبناءاً على تقرير تسلمناه فإن عائلة الشاه وحدها حولت ما يقارب المليارين ونصف المليار دولار الى الخارج.

وفجأة توقفت التحويلات وأضرب موظفو البنك المركزي في ايران محتجين عل هجرة الأموال بهذه السهولة وغياب الاجراءات الرادعة.

لا بد أن نذكر أن الكثيرين من الأشخاص تمكنوا من تحويل أموالهم الى الخارج قبل ذلك بوقت طويل. فالشاه نفسه اتخذ احتياطاته مسبقاً، وقد أعلمني بالأمر طيار عائلة الشاه نفسه وهو سويسري كانت تربطني به علاقة وكان على علم بأن الأمور تسير نحو الأسوأ، فقد كان الشاه متخوفاً من تصاعد قوة المعارضة، وراح منذ العام ١٩٧٧ ينقل سراً ممتلكاته الى سويسرا، وقد شارك صديقي الطيار بعدة رحلات. وقد قال لي خلال حديثي معه: «ستبدأ المتاعب السياسية في الاتحاد السوفياتي». سألته باندهاش: «من أين عرفت ذلك؟». أجابني: «قادتكم الكبار يقومون بنقل أموالهم وممتلكاتهم القيمة الى المصارف السويسرية، ولكن بهدوء تام». سألته: «وكيف عرفت أنت بالأمر؟». أضاف: «رؤساؤك يستعملون طائرات الشركة السويسرية لهذه الغاية ولدي الكثير من الطيارين الأصدقاء».

حاولت أن أعرف منه بعض أسماء هؤلاء القادة السوفيات، غير أنه لم يكن على علم بذلك. ولكني لم أشك بما قاله لي، ذلك اني كنت أعلم حقيقة الأمر عن قادتنا. وعندما لاحظ صديقي أنه باح بالكثير راح يتوسل إلي أن لا أقدم تقريراً عن الموضوع الى السفارة، إذ يكفيه تتبع السافاك له اينما اتجه ولا يريد أن تكون الـ كي. جي. بي. الثانية في ذلك.

وبرغم كونه يجهل حقيقة أمري وبصرف النظر عن توسله ما كنت لأخبر أحداً في السفارة بالأمر، فمعلومات من هذا النوع ليس وراءها إلا المشاكل.



حافظت المظاهرات والاضطرابات على الشعارات الدينية مثل «الله أكبر» أول الأمر، ثم ما لبث أن بدأت الشعارات السياسية بالظهور، وراح اسم آية

الله الخميني كقائد للحركة يظهر تدريجياً. الله أكبر! الخميني راكبار (الخميني قائدنا). وكان للهتاف بهذه الشعارات لحن موسيقي جميل وشاعري.

ومنذ البداية كان دور المجاهدين وفدائيي المجموعات اليسارية فعالاً في تنظيم المظاهرات والاضرابات. وقد جذب ذلك الناس العاديين ومجموعات الطلبة الذين كانوا يطلقون الهتافات والشعارات المعروفة: «الله أكبر. الخميني راكبار».

لم يحرك الشاه ساكناً، وبدأ يفكر بطريقة تمكنه من وضع حد لهذه الاضطرابات بشكل سلمي. ولبلوغ هدفه اضطر أن يضحي بعددٍ من معاونيه. وكان كل من رئيس الوزراء هويدا وناصيري رئيس السافاك من الشخصيات المكروهة من قبل الشعب الايراني، فأمر الشاه باعتقالهما. ورغم هذا لم تهدأ المظاهرات بل ارتفعت الشعارات مطالبة برأس الشاه نفسه.

ولقد قيل إن ثمة سبباً شخصياً إضافة الى الأسباب السياسية وراء كره الخميني للشاه. ففي سنة ١٩٧٧ قُتِل مصطفى وهو أكبر أبناء الخميني في حادث سير، فاتهم الأخير «السافاك» بتدبير الحادث وألقى المسؤولية على الشاه باعتباره المحرض على ذلك ومن ثم راح يطالب بالثأر.

كانت نظرة الـ كي. جي. بي. الى الأحداث في إيران تسير في اتجاهين. الأول انها لم تتمكن من تجاهل التهديد الذي يتعرض له الشاه في الحكم، والثاني تمثل في عدم التخلي عن اعتقاد ساد لديها لعدة سنوات مضت وهو أن نظام الشاه بجيشه الحديث وجهاز الشرطة (السافاك) هو الأقوى في المنطقة إضافة الى ما يلقاه ذلك النظام من دعم الغرب له.

وكانت المصادر المقربة من النظام على اقتناع تام أن الشاه يعدّ للقضاء على معارضيه. ورحنا يوماً بعد يوم ننتظر ونتوقع أنه «الآن سيلقنهم الدرس» ولكنه لم يفعل شيئاً، فيما كانت المعارضة تزداد قوة.

على ضوء هذه الأحداث تقربت موسكو سراً من الخميني في العراق، وخلال اجتماع سري أعطي الخميني وعداً مبهماً بالمساندة في حال وصوله الى السلطة. ومن جهته أعطى الخميني جواباً مراوغاً، ولكنه بدا واضحاً أنه لم يكن متشوقاً الى رمي نفسه في أحضان السوفيات.

غير أن مندوبينا فوجئوا خلال زيارتهم معسكر الخميني بوجود العديد من

الايرانيين من أفراد حاشيته يعيشون في أميركا وبريطانيا. وقد عمل محللونا على دراسة هذا الواقع إضافة الى أمور أخرى لإعادة وضع نظريتهم وإجراء حسابات جديدة. ففي نظر المحللين أن الأميركيين أدركوا أن نظام الشاه شارف على نهايته، ففي السياسة الداخلية لم يكن قادراً على احتواء الاضطرابات، وفي السياسية الخارجية برزت استقلاليته الذاتية، إذ راح يتمادى في علاقاته مع الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية الأخرى، مطبقاً سياسة التوازن بين الشرق والغرب وهو بهذه الطريقة كان كمن يحلب من بقرتين.

فالولايات المتحدة التي علقت آمالها على الأهمية الاستراتيجية لإيران بحكم موقعها من الاتحاد السوفياتي لم تشأ أن تخسر نفوذها في تلك المنطقة، ولذلك عندما بدأت الاضطرابات تتصاعد في ايران وجد الأميركيون الفرصة مناسبة للتخلص من الشاه وبناء علاقات وطيدة مع النظام الجديد.

وبحسب النظرية السوفياتية فإن رجل الدين وبخاصة الايراني هو رجعي وفي خدمة رأس المال. ويصفه القول المشهور: «تحت لحية كل رجل دين هناك ختم يقول: صنع في بريطانيا العظمى».

وفي نظر الخبراء السوفيات فإن الخميني هو حليف للغرب، ولهذا السبب منع الرئيس كارتر الشاه من استخدام القوة بحجة الحقوق الانسانية، ولهذا السبب أعيد الايرانيون الموالون للخميني من اميركا بواسطة الـ سي. آي. اي. وقد بدا واضحاً أن الأميركيين يلعبون الورقة الأميركية الجديدة. وفي هذه المرحلة بدا للقيادة السوفياتية أن الخميني تحت رعاية اميركية.

في هذا الوقت كانت المظاهرات تتكثف، وبرز شعار «الموت للشاه»، وانتشر الجيش في شوارع طهران، غير أنه اكتفى بحماية المباني الحكومية وبعض السفارات الأجنبية بما فيها سفارتنا. وخلال مرور المتظاهرين من أمام السفارة السوفياتية كان هؤلاء يوجهون الاهانات الى الجنود ويبصقون عليهم. ولكن الجنود لا يردون بشيء لأن الأوامر قضت بعدم مجابهة الجموع. وقد دفع الأمر بضابط الوحدة الموكلة بحماية سفارتنا الى طلب الإذن بسحب جنوده من أمام السفارة وتوزيعهم في محيطها تجنباً للاحتكاك بالمتظاهرين. ووافق السفير بعد تردد.

وكان الجنود الايرانيون يتجنبوننا أول الأمر، ولكن سرعان ما انكسر حائط الجليد بين موظفينا وبينهم، وراح الجميع يتحدثون معاً ويلعبون بالأسلحة،

حتى أنهم لعبوا كرة القدم معاً.

ومن خلال حديثنا معهم يجيبون أن أوامرهم صارمة بعدم اعتراض المتظاهرين، وذلك بخلاف ما كان يعتقد الضباط كونهم مكلفين بضبط الأمور ولو عن طريق استخدام القوة.

راح حكم الشاه ينهار تدريجياً، الى أن نصحه محبّذو الاجراءات المشددة بعرض القوة. وفي صباح الثامن من أيلول / سبتمبر ١٩٧٨ تجمعت أعداد غفيرة من المتظاهرين في «ساحة جلى» الواقعة في شرقي طهران، فقامت قوات الجيش بتطويقهم من جميع الجهات وأمطرتهم وابلاً من نيران الأسلحة الاوتوماتيكية، فيما راحت طائرات الهليوكوبتر هي الأخرى تطلق النار عليهم. و«ساحة جلى» تبعد حوالى أربعة كيلو مترات من السفارة السوفياتية، وقد امكننا سماع اطلاق النار بوضوح، واستمر ذلك من الساعة الثانية عشرة ظهراً حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً.

ولم يكن أحد يعلم حقيقة ما يحدث، فقد أبقى الجنود حصارهم الى صبيحة اليوم التالي، بحيث تمكنوا من إزالة كل ما خلفته المعركة وثم نقل الجثث أثناء الليل، ثم جاءت سيارات الإطفاء لتغسل الساحة من الدماء، كما لم يعلم أحد عدد الذين قتلوا، ولكن شائعات سرت بأن حصيلة المذبحة كانت بالآلاف.

لكن مجزرة «ساحة جلى» لم تحقق الغاية التي توخاها محبذو العنف، ورفض الشاه أن يعقبها بخطة قمع تقضي بالقبض على القادة المعارضين، وكانت اللوائح حاضرة وجاهزة. وتحول تردد الشاه الى ورقة رابحة بيد المعارضة. ولقد أثارت إراقة الدماء حفائظ الناس، وراح رجال الدين يسمّون الذين يسقطون شهداء الله والاسلام، وأخذوا يطالبون بالثأر.

كتمت حكومة الشاه الخبر عن أحداث «ساحة جلى» ولم يشأ أحد تحمل المسؤولية عما حدث، وانتشرت الشائعات في طهران، وبدا أن الجيش كان وراءها، وقد نفت الحكومة أن يكون الجيش الايراني قد أطلق النار على المتظاهرين، فاتهم بعض الأجانب الذين ارتدوا بذلات لا تدل على هوياتهم وقيل إنهم من الكوماندوس الاسرائيلي أحضروا خصيصاً الى ايران لتنفيذ العملية بناءاً على طلب من الشاه نفسه. لقد حاول العسكريون التنصل مما حدث، ولكن مخابرات الجيش السوفياتي نفت وجود الأجانب في «ساحة جلى»

وألقت التهمة على فرقة كوماندوس ايرانية خاصة .

وكانت ردات الفعل في طهران نفسها متباينة على عكس ما تصورنا في مقر الـ كي . جي . بي . فقد اعتدنا أن نسمع إدانات بحق السلطة ، غير أن المؤيدين للشاه رحبوا بهذه الاجراءات لاعتقادهم انه كان الأولى استعمال هذه الأساليب منذ البداية حتى لو كلفت آلاف القتلى .

«فأنتم الأوروبيون لا تدرون هول الكارثة التي تنتظر ايران في حال تسلم رجال الدين السلطة ، وسيبدو أسلوب القمع الذي اتّبعه الشاه لعبة إزاءها» .

لم يشعر المعارضون بالحزن نحو رفاقهم الذين قتلوا ، فالشبان الثوريون الذين جاءوا إلينا في القنصلية مطالبين تأييد السوفيات لقضيتهم قالوا : «نريد أن نبني مجتمعنا في هذه البلاد بطريقة مشابهة للمجتمع في الاتحاد السوفياتي ، ويجب أن لا يثنينا عن ذلك ما يراق من الدم ، فكلما كثرت التضحيات ازدادت الجماهير صلابة وعجّلت بقلب نظام الشاه ، ويجب أن لا نحزن على أولئك الذين قتلوا ، فالموت في سبيل الاسلام يُحْسد عليه ، لأن من يُقتلون يدخلون الجنة» .

أردت أن أخفف من غلوّ هؤلاء وأردهم الى رشدهم وان أخبرهم عن حقيقة النظام السوفياتي ، ولكني لم أتمكن ، فقد كانوا عُماة الشيوعية والاعلام الاسلامي ، وما كانوا ليصدقونني .

وفي غمرة هذه الأحداث أصيب فاديكن بالتهاب في الكبد فأدخل المستشفى السوفياتي في طهران . وبالرغم من تأكيد الأطباء على أن بالامكان معالجة فاديكن هناك فقد طلب السفير نقله الى موسكو على الفور ، وقال : «لا يمكننا تعريض شخص مهم مثله للخطر» .

ولم يكن فاديكن قادراً على اتخاذ القرار بنفسه ، ولم يناقش أحد السفير فينوغرادوف . فأرسل فاديكن في أول طائرة متجهة الى موسكو ، وكان ذلك في العام ١٩٧٩ . وبذا يكون السفير قد تخلص من ألد خصومه .

ولكن إذا كان إرسال مسؤول الـ كي . جي . بي . الى موسكو أمراً قد حدث فإن الحؤول دون رجوعه ثانية يحتاج الى مبررات موضوعية . لذا أرسل فينوغرادوف رسالة الى يوري اندروبوف رئيس الـ كي . جي . بي . يتهم فيها فاديكن بارتكاب كل خطيئة ملفقاً عليه أقوالاً تنال من سمعة القادة في الحزب

الشيوعي السوفياتي .

أمضى فاديكن سبعة أشهر في المستشفى . وعند خروجه دعاه انـدروبـوف للحضور إليه ليكيل اليه التوبيخ وليبلغه أن دوره في الخدمة قد انتهى . ولم يقو فاديكن على مجابهة الموقف غير المنصف فانهار، وأدى ذلك الى ازدياد مرضـه . وفي كانون الأول / ديسمبر ١٩٧٩ فارق الحياة ، وأقيمت له جنازة تليق برتبته ، ودفن في النادي المركزي للـ كي . جي . بي .

وهكذا أمكن للسفير المحتال تدمير جنرال في الـــ كي . جي . بي . فكـان ذلك مثالاً صارخاً يبين مدى ما يفعله النفوذ والقوة عندما يجتمعان .



خلال غيابي عن طهران وصل فلاديمير ايفانوفتش دياتلوف الرئيس الجديد للقسم القنصلي ، وهو دبلوماسي عادي ، مع العلم أن هذا المنصب يخص الـــ كي . جي . بي . ولكن بعد طرد بوريس كبنوف ضابط المخابرات الذي تـورط في حادث القبض على الجنرال «مغربي» اتخذ المركز في مـوسكـو قـراراً للتغطيـة قضى بالتخلي عن المنصب لعدة سنوات . وهكذا ، بدلاً من إبقاء اختصـاصي محترف في الشؤون الايرانية جاء دياتلوف ، الموصوف بالغباء ، وهو ما عرفته عنه اثر عودتي من موسكو . وكان دوره استقبال القـادمين من السـوفيـات والـزوار الأجانب ومراسلة وزارة الخارجية السوفياتية ، وكذلك القيام بزيـارات الى وزارة الخارجية الايرانية للتباحث حول موضوعات مختلفة ، غير أنه لم يقم بإنجاز أي عمل ذي شأن . وكان يبرر ذلك متعللاً بأنه مـا زال في مـرحلـة البـدايـة وانـه بصدد التعرف على طبيعة الأوضاع . ولذا كان العمل الجدي من نصيبنـا نحن ضباط الـ كي . جي . بي . في القنصلية .

كذلك كان دياتلوف يمضي أوقاته في زيارة رؤساء المنظمات السوفيـاتيـة في طهـران فـارضـاً نفسـه على الـولائم! وكـان من الطبيعي أن لا يتردد أحـد في مصاحبة رئيس القسم القنصلي في السفارة الذي يمسك بزمام السلطة .

ولقد استمر الوضع على هذه الحال الى أن نفد صبر أحد ضباطنـا فسألـه :

«متى تريد أن تبدأ عملك؟»

لم يتمكن دياتلوف من تجنب السؤال المباشر كما كان يفعل من قبل، فأجاب بنبرة حادة: «ما جئت الى هنا للعمل، وانما لأعطي لك ولغيرك الأوامر، وإذا عدت الى مضايقتي فسأمرّغك في الوحل ولن يكون بمقدورك الاغتسال بعد ذلك حتى لو ساعدك رئيسك، فأنا أعرف الكثير عنك».

لقد تبين بوضوح أن دياتلوف كان مخبراً للـ كي. جي. بي. تحت اسم «الكسندروف» المستعار، وبدا مثل كل «الطارقين» فكان يعتبر نفسه ذا سلطة ونفوذ.

ولا بد من الاعتراف أنه برغم كون دياتلوف شخصاً غبياً، إلا انه في الحياة اليومية كان ماكراً ولصاً. وقد سبق له أن عمل في الحزب وتمرس في المسائل المالية.

ففي القنصلية توضع استمارات طلب التأشيرة عادةً على طاولة حراس الأمن عند المدخل، ويحق لكل شخص أخذ واحدة لملء طلبه. وفجأة اختفت الاستمارات، وكنت بحاجة الى استمارة لأحد الاشخاص لأجل زيارة سرية في الاتحاد السوفياتي. وتبين لي أن حارس الأمن أقفل على الاستمارات في خزانة وبناءاً على تعليمات من دياتلوف.

كانت الاستمارات تُرْسل برزم كل منها يحتوي على مئة استمارة، وكان دياتلوف وزوجته يرتبان الأمور في المساء إذ تُمْهَر الاستمارات ويوقع عليها ليصار الى بيعها في صباح اليوم التالي بواسطة الحارس لقاء دولارين لكل استمارة. وبما أن طلب التأشيرة يستلزم استمارتين فقد كان على الشخص دفع أربعة دولارات. وتسلّم جباية المال بعد ذلك الى دياتلوف دون ايصالات.

استغربت الأمر، وعندما سألت دياتلوف عن السبب أجابني أن القنصلية تقوم بجباية الأموال لتغطية نفقات المكتب، وان هذا الاجراء تم بناء على تعليمات السفير.

كانت شكوكي في محلها.. إذ تبين لنا بعد سنتين وعلى اثر تحقيق قام به أحد ضباطنا أن دياتلوف جمع ما يوازي خمسين ألف دولار أميركي، وهو حصيلة بيع الاستمارات وحدها.

لم يكن دياتلوف ليتورع عن الإقدام على أي عمل قد يجعله في عداد الأثرياء. وفي أحد الأيام تقدمت امرأة عجوز من الروس البيض تبلغ الثمانين من العمر بطلب تأشيرة دخول لقضاء بقية حياتها في روسيا بعد أن فقدت جميع أفراد عائلتها في ايران، لكن طلبها رفض لكونها عجوزاً ولا أقارب لها هناك. ورغم ذلك فقد دأبت على التردد على القنصلية ولكن دون أن تحقق نتيجة.

وذات يوم رأيتها تدخل مكتب دياتلوف وبقيت هناك ما يزيد الساعة. وفي الصباح التالي رأيتها في غرفة الانتظار وقد بدت على وجهها الفرحة والابتسامة، فدعوتها الى مكتبي ورحنا نتحدث. . فأخبرتني أن علاقتها منذ الآن فصاعداً ستكون مع دياتلوف، وأنه نصحها بعدم اللجوء الى أحد سواه، وهو سيدبر لها كل شيء، وأنه أرسل أوراقها الى المسؤولين الكبار في موسكو. وأضافت انها أصبحت متفائلة بالعودة الى روسيا، ولذلك سحبت مدخراتها وأخذت أغراضها القيمة من المصرف وسلمتها الى فلاديمير ايفانوفيتش: «الله يحرسه»، ليخبئهم لها في خزنته الخاصة، فقد قال لي: «إن المصارف غير أمينة بما فيه الكفاية». ثم اعتذرت لعدم تمكنها من البقاء مدة أطول بسبب موعد لها مع فلاديمير إذ ستبحث معه موضوع بيع منزلها.

اتجهت على الفور الى مكتب التسجيل ورحت أبحث في الملفات، ولكني لم أجد شيئاً بخصوص السيدة العجوز. وبدا واضحاً أن دياتلوف يحاول سرقتها وذلك بإغراقها في الوعود، وهو في ذلك يراهن على دنوّ أجلها بحكم كبرها في السن. ما أحطّه من رجل يحاول ابتزاز عجوز ضعيفة. وتمنيت في تلك اللحظة لو أن بمقدوري اقتحام مكتبه لأضربه.

ولقد رأيت ان من واجبي رفع تقرير في الموضوع الى رئيسي الذي قام بإبلاغ السفير. فما كان من الأخير إلا أن أمر دياتلوف بإرجاع كل ما أخذه من العجوز. واكتشفنا فيما بعد أنه استدرجها فأودعت لديه سبيكتين ذهبيتين إضافة الى قطع من الذهب والألماس.

ولكن أحداً لم ير دياتلوف يرجع الى السيدة ما حصل عليه منها. ولم أعلم بعد ذلك ما حدث لها إذ لم تعد تشاهد في القنصلية، واختفاؤها على هذا النحو طرح العديد من التساؤلات. فوغْدٌ على شاكلة دياتلوف بإمكانه أن يفعل الكثير.

تلك الحادثة لم تكن الوحيدة التي ارتكبها دياتلوف، فقد حدث أن ايرانياً

من أذربيجـان لـه أقـارب في الاتحاد السـوفيـاتي وأراد النـزوح الى أذربيجــان السوفياتية فسلم قضيته الى دياتلوف الذي طمأنه واعـداً إيـاه بـالحصـول على التأشيرة. ونتيجة لذلك طلق الرجل زوجتـه التي لم تشأ الـرحيل معـه. وبـاع منزله وتخلى عن عمله، وذلك على أمل المغادرة. وتبين بعد ذلك أن الـرجل لا يحق له الحصول على تأشيرة وان دياتلـوف لم يقـدم حتى أوراقـه الى مـوسكـو. وبعد ثمانية عشر شهراً بُدِّدت في اجتماعات مع دياتلوف لم يحصل الـرجل على رد واضح. وخلال وجود دياتلوف في إجازة تسلم مهام القنصلية شخص آخر وصدف أن اجتمع بالرجل الذي أبلغ بأنه لا يحق له الحصول على التأشيرة. فما كان منه الى أن قدم شكوى خطية للسفير متهماً دياتلوف بأنـه قبض منـه عشرة آلاف دولار على أمل أن يعجّل لـه في معـامـلات التأشيرة. وكـوننـا على علم بأخلاقيات دياتلوف لم نكذب ادّعـاء الـرجل. إلا أن السفير اعتبر الأمـر مجرد افتراء لا أكثر.

لقد كانت الخمرة تؤثر تأثيراً غريباً على تصرفات دياتلوف، إذ أنه بعد تناوله عدة كؤوس من الفودكا يتحول الى شخص آخر، فتزوغ عيناه وتزول ابتسـامتـه الصفراء ويشرع بإسكات الجميع، ويطلق للسانه العنان متفوهاً بعبارات بذيئة ويصرخ: «لا يمكن لأحـد هنـا أن يقـول لي مـاذا عليّ أن أفعل، لا الــ كي. جي. بي. ولا السفير، فإن لي من المعـارف والاتصـالات مـا يكفي لتـدمير العديد منكم».

ولذا لوحظ تحاشي المسؤولين في السفارة التقرب منه، ولكن دياتلوف عمل على إقامة علاقات وطيدة برؤساء الشركات الاقتصـاديـة السـوفيـاتيـة الـذين وجدوا فيه ضالتهم لما يتمتع به من نفوذ بحكم منصبه. ولقد أوجد ديـاتلـوف لنفسه مكاناً بين أعضاء السلك الدبلوماسي في طهران، وقد عرف عنه تأخـره عن مواعيد حفلات الاستقبال والعشاء فكـان لا يظهـر الا في مـوعـد تقـديم الحلوى والمشروبات ويصر على إعادة تقديم الخدمات المقررة اليه مجدداً. لقـد كان سيء السلوك تنم تصرفاته عن الغباء ولا يعرف اللياقات الاجتماعية ولكن ما حيّرنا هو تملصه من كل ما يفعل، فلو أن شخصاً آخر حذا حذوه لاستحق الطرد من طهران ومن وزارة الخارجية. لذا كان افتراضنا الوحيد حيـال وضعـه الشاذ هو أنه مدعوم من قبل شخصيات مرموقة داخل الحزب، غير أن أحـداً لم يعلم خلفية هويته.

في خريف ١٩٧٨ صعّد الخميني تحركاته في ايران من منفاه في مدينة النجف العراقية التي أصبحت مركزاً للمعارضة الايرانية، وتوافد عليه المهاجرون واللاجئون السياسيون الايرانيون.

هذا الوضع سبب إرباكاً وقلقاً للحكومة العراقية، إذ تركزت التجمعات في مناطق الشيعة الذين يشكلون الأكثرية في العراق والذين لا يتمتعون بتمثيل سياسي متوازٍ.

وتجنباً للمتاعب قررت السلطات العراقية الانصياع لاقتراح ايراني بترحيل الخميني ومؤيديه. وفي تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٨ طرد الخميني من العراق وفي الوقت نفسه لم يلق ترحيباً من بلدان عديدة ولا سيما الاسلامية منها، فقد كانت المشاكل مع المسلمين الأصوليين في تلك البلدان بالغة التأزم لا تتحمل وجود شخصية مثل الخميني. ومن المعلومات التي وصلتنا أنه كان للشاه الدور الأساسي في طرد الخميني من العراق، وقيل أنه حتى حاول اقناع الحكومة الاندونيسية في استقبال الخميني مع التعهد بدفع الأموال مقابل ابقائه هناك.

أخيراً قبلت فرنسا استقبال الخميني كسائح ومنحته تأشيرة دخول صالحة لمدة ثلاثة أشهر فقط. ولم يعترض الشاه، مفضلاً ذلك على استقباله في ليبيا أو سوريا. واستقر الخميني في قرية نيوفال لوشاتو القريبة من باريس. ومن هناك بدأ احتلاله مواقع الاعلام الدولي، حيث انصب الاهتمام على هذه الظاهرة.

وانتشر اسم الخميني في جميع انحاء العالم، فنقل الاعلام أخبار معارضته لنظام الشاه، وراحت الاذاعات الاجنبية مثل الـ بي. بي. سي. وإذاعة صوت أميركا تنقل أخبار الخميني باللغة الفارسية الى الايرانيين. فكان لذلك تأثير أكبر من توزيع الأشرطة المسجلة عليها خطبه. وقد ساعدنا ذلك على معرفة المستجدات على مستوى المعارضة دون اللجوء الى التنقيب عنها في طهران.

ولم يتسنَّ للشاه الرد إعلامياً على الاتهامات، مما جعل الرأي العام العالمي مؤيداً للمعارضة الايرانية.

أخيراً، ونتيجة لتفاقم الأوضاع حان الوقت للدخول في المرحلة الحاسمة. ففي اليوم الخامس من تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٨ وتلبيةً لأوامر الخميني

من منفاه في باريس وعلى أثر الخطب في مساجد طهران اجتاحت الجموع الشوارع فراحت تحطم المصارف والفنادق ودور السينما والمطاعم والمقاهي ومحلات بيع الخمور، ولكن لا الجيش ولا الشرطة حركا ساكناً. وكان الهدف من أعمال الشغب تدمير كل ما هو منافٍ لتقاليد الاسلام من رباً على الأموال وإجازة المسكرات ومظاهر التهتك التي تعرض على شاشات التلفزيون والسينما وتلك المطبوعة على الورق.

كان المشهد واضحاً لنا من مبنى السفارة. وكان العديد من المؤسسات المعادية للأصوليين يقع قريباً منا، وقد رأينا مجموعات من الشبان تقتحم المحلات والمقاهي لنهب علب وزجاجات البيرة وترمي بها الى الشارع، وقد قذف بها بعضهم في اتجاه السفارة حيث تسللت من بين القضبان الحديدية عدة علب من بيرة «كالسبرغ»، وسقطت إحداها على كتف أحد الضباط فالتقطها وصرخ: «الله أرسلها لي.. وقد تكون الأخيرة»، ثم راح يشرب بصحة الخميني.

في صبيحة اليوم التالي قررت مع أحد الضباط الذهاب الى المدينة لرؤية ما خلفه الشغب. كانت رائحة الخمور منتشرة في كل مكان، والابنية مغلفة بالسواد، والمطاعم والمحلات مدمرة نتيجة الحرائق، ولم تَبْقَ دار واحدة للسينما. وفي شارع لازار المعروف بكثرة المقاهي والمطاعم الصغيرة اختفت كل المعالم. وفي الجانب الآخر من الشارع وقف عدد من الأفراد والذهول بادٍ عليهم كأنهم في حالة ضياع. وبدا جلياً أنهم أصحاب المؤسسات التي أتى عليها الدمار وشوّهتها الحرائق.

كان ذلك المحطة الأولى لما سيفرزه النظام الاسلامي القادم في ايران. وتلاحق بعد ذلك مسلسل الاعتداءات. فبعد عدة أيام طالب الخميني بالثأر من الوثنيين للمجزرة في «ساحة جلّي» وأعلن الحرب على كل ما هو غربي في ايران.

وعندما بلغت الأوضاع هذه الدرجة من الخطورة توجهت بعثات من ضباط الجيش الى الشاه مطالبة بإعلان حالة الطوارىء في البلاد، فوافق الشاه. كما طالبت أن يكون الجنرال أوفيسي رئيساً للوزراء، وكان رجلاً حازماً وعلى اقتناع أن الفرصة ما زالت قائمة لقمع الاضطرابات، وذلك باعتقال قادة المعارضة. وتردد الشاه في تعيين أوفيسي، ولكنه استبدل الرئيس السابق وكلف

الجنرال «أزهري» تـولي منصب رئاسـة الـوزراء . وكـان هـذا الأخير معـارضـاً لاستعمال القوة . وافـادت المعلـومـات التي وردتنـا أن تعيينـه جـاء بنـاءاً على نصيحة المستشارين الأميركيين . أما خطته فكـانت إرضـاء رجـال الـدين عن طريق المفاوضات .

وتم إعلان حالة الطوارىء في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٨ فمنع التجول في طهران من التاسعة مسـاءً حتى الخامسـة صبـاحـاً ، ولكنـه لم يجد طـريقـه للتطبيق من الناحية العملية . فقد تُعمد إطالـة الصلـوات في المسـاجـد حتى الساعة العاشرة ليلاً ، وعند خروج جموع المصلين كانت الاشتباكات تتصـاعـد مع أفراد الجيش الذين كانوا يطلقون النار في الأغلب إرهـابـاً في الهواء فيتفـرق الناس ليعودوا الى التجمع من جديد في مكان آخر .

واستمرت هذه الحال تتكرر كل ليلة . وراح رئيس الوزراء يكثف من ظهوره على شاشة التلفزيون موجهاً إنذاراً تلو الآخر ، ولكن دون جدوى .

في ذلك الحين كنت أقيم في وسط المدينة على مقربة من مقر السفارة . كنـا نصعـد في المسـاء الى أسطح الأبنيـة لنـراقب الأحـداث ومـا يـدور في أحيـاء المدينة . كانت أصداء «الله أكبر» تتعالى بعد العاشرة ليلاً ، ويبدأ إطلاق النار ، ويصحب ذلك الصياح والصراخ . وكنـا نعـرف نـوعيـة الأسلحـة المستعملـة بمجـرد سماع الطلقـات التي غـالبـاً مـا تنطلق من بنـادق غير اوتـومـاتيكيـة يستعملها الجيش الايراني ، وكان يقطع ذلك بضع طلقـات اوتـومـاتيكيـة من رشاشات كلاشينكوف AK47 ، وهـذا النـوع لم يكن مستعمـلاً في الجيش الايراني ، وكان واضحاً أن المعارضة بدأت المقاومة المسلّحة .

وتسارعت الأحداث ، وراحت مراكز السافاك تتعرض للاعتداءات في كل أرجاء البلاد ، وأغلق مركزهـم المقابل للسفارة ، ولم نعد نرى أيـاً من العنـاصر . في هذا الوقت توقفت جميع نشاطـات الـ كي . جي . بي . وتفككت الشبكـة الصغيرة في ايران بمغادرة العملاء والمخبرين للبلاد .

وفشلت الحكومة في ضبط الأوضاع فقدم «أزهري» استقالته ، وعين الشـاه شهبور بختيار خلفاً له ، وهو ممثل حزب الجبهة الوطنية . ولكن المظـاهـرات لم تهدأ ، وظل الوضع بعيداً عن السيطـرة . فقـد كـان الهدف المطلـوب : «الموت للشاه» .

وفي التاسع من كانون الثاني / يناير ١٩٧٩ أعلن أن الشاه سيغـادر البـلاد في إجازة الى الخارج، وفي الرابع عشر من الشهر نفسه شكل مجلس للوصاية في غيابه، وفي اليوم السادس عشر منه غادر الشاه وعائلته ايـران على متن طـائرة أقلّتهم الى مصر.

أذاع راديو طهران خبر المغادرة في الساعة الثانية من بعد الظهر، فكان وقعه يفوق الوصف. إذ انطلقت السيـارات في الشـوارع وعلت زمـامير السيـارات وارتفعت الأيـدي راسمـة إشـارة النصر (V)، وراح النـاس في الشـوارع يضحكون ويغنون ويرقصون، وكان الصرخات تنادي: «حرية.. حرية».

وظهرت الصحف بعناوين كبيرة: «هرب الشاه»... ومزقت صور الشـاه واحرقت ودمرت التماثيل.

في هذا الوقت أعلن الجيش تأييده لشهبور بختيار رئيس الحكومة الجديدة. وفي محاولة لتطمين بعض الايرانيين الـديمـوقـراطيين قـدم الجيش استعـراضـاً عسكرياً في الثالث والعشرين من كانون الثاني / يناير ١٩٧٩، فاخترقت قـوة مدرعة من حرس الشاه شوارع طهران مارة بالقرب من الجموع المحتشـدة التي التزمت الهدوء. وساد الشعور أن انقلاباً عسكريـاً قـد وقع. غير أن شيئـاً من ذلك لم يحدث. فبعد استعراض القوة الذي ظهر وكأنه تعبير عن الولاء للشـاه عاد الحرس الى ثكناته، فعاد المتظاهرون من جديـد يطـالبـون بعـودة الخميني الذي كان قطع على نفسه عهداً بعدم العودة إلا بعد رحيل الشاه.

وهنا برزت مشكلة. فقـد سرت شـائعـات أن أعـداء الخميني في القـوات المسلحة الايرانية هددوا بتدمير الطائرة التي تقل الخميني في الأجواء الايرانية.

ومن الأمور البارزة التي قام بها بختيار بعد تعيينه رئيساً للوزراء إلغاء قانـون المراقبة على الصحافة. وبذلك تسنّى لنا الاعتماد على مصدر جديد للأخبـار. إذ كانت مهمتنا إرسال جميع ما نحصل عليه من معلومات من أي مصدر كان الى المركز في موسكـو. ولأجل هـذا واظب الضبـاط على جمع مختلف الصحف ومتابعة ما يبثه التلفزيون والراديو لاستخلاص الأخبار الصادقة من المزعومة.

وانتشرت الشائعات عن عودة الخميني، وحددت الصحف تاريخ وصوله الى ايران في ٢٥ كانون الثاني / يناير. وفي ٢٤ منه اتخذت التدابير الاحتيـاطيـة وأمرت السلطات العسكرية بإغلاق المطار أمام الملاحة الجوية.

لقد بدا المتظاهـرون المؤيـدون للخميني أشـد قـوة وأكثـر تماسكـاً . وأدرك بختيار مدى النفوذ الذي يتمتع به الخميني لدى أوساط الشعب . وفي محاولـة منه للتقرب من زعيم ايران العائد أبدى بختيار رغبته بالاتصال هاتفياً بالعجوز في باريس . غير أن الخميني كـان مفعماً بمشـاعـر النصر فطـالـب بـاستقـالـة حكومة بختيار كشرط أساسي لأية مفاوضات .

بالطبع لم يكن ذلك ممكناً ، فلم يحدث أي اتصال .

نشرت الصحف الايرانية هـذه الأنبـاء بتفصيل . وكـان لـرفض الحكـومـة السماح للخميني بالرجـوع أثـر سلبي . فـانـدلعت الاشتبـاكـات بين الجيش والمتظاهرين في كل أنحاء البلاد . وأخيراً فقد بختيار السيطرة على زمام الأمـور ولم يبق أمامه سوى السماح للخميني بـالعـودة . ولكن ذلك لم يكن ليبـدو إلا هزيمة . وأخيراً تُوصّل الى حلّ تسوية ، إذ سمحت السلطـات الايـرانيـة بفتح مطار طهران في ٣١ كانون الثاني / ينايـر من دون الأدلاء بأي تعليق على عـودة الخميني .

وفي ذات اليوم أعلنت الصحف خبر عودة الخميني في ١ شباط / فبراير الى ايران .

وهذا ما حدث . . ففي هذا الموعد عاد آية الله الخميني الى ايران بعد أربعة عشرة سنة قضاها في المنفى . وكانت عودته في طائرة فرنسية خاصة أقلعت بـه من باريس الى طهران . وتحسباً للخطر الذي ربما تعرض له من قبل سلاح الجو الايراني لم يشأ أن يكون سفره على متن طائرة ايرانية ، ولأن احتمال لجوء بختيـار الى إسقاط طائرة فرنسية في الأجواء الايرانية كان أمراً غير وارد .

اكتظت الشـوارع المؤديـة الى مطـار مهـربـاد بـالجماهير المحتشـدة . وقـام التلفزيون الايراني ببث وقائع وصول الخميني منـذ لحظـة هبـوط الطـائرة أرض المطار . وبعد فتح الباب شوهد الخميني ينزل السلم بمسـاعـدة طيـار فـرنسي أمسك بيده . وفي منتصف السلم أفلت أحد خفيه من قدمه وراح ينظر بـاحثـاً عنه .

اعقب ذلك لقاء بارد بممثلي السلطـات . وكـان الهدوء مخيماً . . فـلا جموع محتشدة أو حماس حول الطائرة .

في تلك اللحظة كان الكثيرون من مؤيدي الشاه لا يزالون يراهنـون على أن

الجيش سيقبض على الخميني ويصار الى إنهاء المسألة لكن شيئاً من هذا لم يحدث.

وضع مندوبو السلطة الخميني في سيارة (رانج روفر) وغادروا المطار مخترقين الحشود الزاحفة التي كانت تصرخ عالياً وقد ضاقت بها الطرقات والساحات خارج محيط المطار.

بعد عودة الخميني تسارعت التطورات. ورفض آية الله إجراء أية مفاوضات مع بختيار، بل أعلن عن تعيين «بازركان» رئيساً لحكومة الجمهورية الاسلامية، ودعا المواطنين الى عدم الانصياع لأوامر بختيار والى وضع أنفسهم تحت تصرف الحكومة الجديدة.

وظهرت في البلاد سلطة مزدوجة، ولكن الدفة مالت لصالح الخميني تحت تأثير المظاهرات العارمة، وكذلك نتيجة اعتراف العديد من الوزراء بحكومة الجمهورية الاسلامية.

وبدأت المصادمات المسلحة في ٩ شباط / فبراير ١٩٧٩ بين حرس الشاه والموظفين التقنيين في قاعدة دوشان تابي الجوية في فراهباد الواقعة في جنوب شرقي طهران، وتكبد الطرفان خسائر فادحة.

طلب التقنيون المساعدة، فاستجابت مجموعات مسلحة من المجاهدين والفدائيين، وكان معظمهم من التلامذة الذين سبق تدريبهم على السلاح استعداداً للمجابهة، وراح هؤلاء يهاجمون الجنود والشرطة في كل انحاء طهران، مما دعا حكومة بختيار الى منع التجول اعتباراً من الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر. ولم يتقيد بالقرار سوى الأجانب. وقد فضلنا البقاء في منازلنا وعدم التدخل.

لقد كنا في الـ كي. جي. بي. على علم بكل ما حدث منذ البداية. وقد عرفنا بأمور كثيرة نتيجة متابعتنا للإذاعة في طهران ومراقبتنا لأجهزة إرسال الجيش والشرطة وجهاز الاطفاء والاسعاف، فعلمنا بسقوط مراكز الشرطة الواحد تلو الآخر بيد الثوار. وكان الخوف والبلبلة قد سيطرا على أفراد الشرطة، إذ رفض الكثيرون إطلاق النار على الناس وفضلوا الوقوف الى جانبهم، وكذلك فعل الجنود الذين انضموا الى المعارضة وسلموا أسلحتهم، وعلى الأخص أولئك الذين كانوا يحرسون السفارة البريطانية. واقتحم افراد من

المجاهدين والفدائيين مخازن الأسلحة التابعة للجيش وراحوا يوزعـون السـلاح على الجميـع، كما اقتُحمـت السجـون وأُطلـق سراح المعتقلين السيـاسيين والمجرمين على السواء وحتى أولئك الذين هم من أعداء المعارضة. أما الجنرال ناصيري الرئيس السابق للسافاك الذي أودعه الشاه السجن فقـد أخلي سبيلـه أول الأمر، ولكن سرعان ما اكتشفت هـويتـه فأعيـد الى خلف القضبـان بعـد ضرب مبرح.

وبذلك أخذت المعارضة تسيطـر تـدريجيـاً على المدينـة. وفي العـاشر من شباط / فبراير من السنة نفسهـا ١٩٧٩ كـانت خـدمتي على جهـاز الارسـال وكان التشويش مسيطراً على الموجات الهوائية، إذ كانت بعض محطات الراديو لا تزال في يد السلطات بينما الأخرى في يد المعارضـة، وفجأة سمعت اتصـالاً بين مركزين للشرطة، على الطرف الأول كان شرطي حكومي وعلى الآخـر ممثل للثوار، وعندما علم كل منهما بانتماء الآخر راحا يكيلان الشتائم ويتهجمان على الشخصيات السياسية. فكان الشرطي يقـول: «أيها الثـوار، لقـد ضـاجعت أمهاتكم في أفواههن، وكـذلك الخميني ولينين ومـاركس وبـريجينيف». فيرد عليه ممثل الثوار: «آه.. الشاه وكارتر، آه» (لم يتذكر غيرهما) لقد ضاجعتهما في فاههما أيضاً».

وفيما كان الاثنان يتبادلان حديثهما البذيء هذا تدخل طرف ثالث بـدا أنـه ايراني محترم، فقال: «اوقفا هذا الكلام الفارغ فـوراً.. فأنتما ايـرانيـان وتمثـلان تاريخاً عظيماً.. ألا تعلمان أن حديثكما هذا سيسمعه العالم بأسره».

يا للغرابة!!؟ لقـد كـان لتـدخلـه وقع مهيب إذ تـوقف الاثنـان عن شتم بعضهما.. وخجلت بدوري لكوني كنت مستمتعاً لتلك المشادة.

وفي حوالى الثالثة من بعد ظهر يوم ١١ شبـاط / فبرايـر ١٩٧٩ استقـالت حكومة بختيار، وتسلمت السلطة حكومة أخرى، وانقلب من كان مع الشـاه فأصبح مع المعارضة! بهذه السهولة!

ولكن الأكثر إخلاصاً للشاه كان حرسه في الثكنات، فقد قاوم هؤلاء حتى النهاية ولم يلقوا السلاح إلا بعد أن تكبدوا خسـائر فـادحـة. وفي اليـوم نفسـه انسحب الجيش الايراني الى ثكناته تجنباً لإراقـة الـدمـاء معلنـاً حيـاده. وبـذا انتقلت السلطة بالكامل الى مؤيدي الخميني.

اختفى الجنود من الشوارع التي بدأت تجوبها السيارات والمركبات العسكرية وهي محملة بالشبان من أفراد المجاهدين والفدائيين. وتابع هؤلاء احتلال المؤسسات الحكومية وراحوا يوقفون ضباط السافاك والشرطة المعروفين. وهنا بدأ ظهور رجال الدين بأسلحتهم.

وفي الرابع عشر من شباط / فبراير ساد الهدوء طهران إلا من بضعة طلقات متفرقة كانت تسمع بين الحين والآخر. وشعرنا أن بإمكاننا حينذاك الخروج من منازلنا ومن السفارة للإطلاع على ما يجري. لم يكن للـ كي. جي. بي. أي اتصال بالمعارضة، وكان علينا لململة الشتات، وكانت الفرصة مناسبة في ظل غياب سلطة فعلية في البلاد، ولكون السافاك خارج اللعبة، إضافة الى أن الشبان من حاملي السلاح كانوا في معظمهم مؤيدين للسوفيات.

في ذلك اليوم أعطيت لنا الأوامر بالتوجه الى المدينة، فذهب معظم الضباط الى جامعة طهران حيث المقر الرئيسي للمجاهدين والفدائيين. وهاتان المنظمتان كانتا تعملان سراً أيام الشاه.

واختلفت الآراء حول الموقف السياسي الذي يجب اتخاذه حيال السلطة الجديدة والمسؤولين الممسكين بزمام الأمور. ففي حين اعتقد المجاهدون أن الخميني سيفي بوعده بالسماح للأحزاب بحرية العمل السياسي فقرروا الظهور علناً وكشفوا عن وجوههم معتمدين وضع عصابة بيضاء على رؤوسهم واعتقد الفدائيون أن الوقت ما زال مبكراً للثقة بمزايا السلطة وفضلوا التريث للتأكد من أنها ستبرّ بوعدها فيما يختص بالديموقراطية. وبدا أن رجال الدين سيسمحون أول الأمر بإطلاق حرية الاحزاب السياسية لاخراج اعضائها الى العلن وانتظار اللحظة المناسبة للانقضاض عليهم، ولذا فإن الفدائيين لم يسفروا عن وجوههم فاعتمدوا الكوفيات الفلسطينية ووضعوا النظارات الشمسية على عيونهم.

في جامعة طهران التقيت العديد من الشبان الايرانيين الذين عرفتهم عندما كنت أعمل مترجماً في ايران قبل التحاقي بالـ كي. جي. بي.، وكان هؤلاء من المتعاطفين مع المنظمتين. وقد كان هذا الوضع مناسباً لي بما يتيحه من إمكانية تجنيدهم، رغم التعليمات التي قضت بعدم تجنيد الأعضاء العاملين في أحزاب أو منظمات سياسية لأنه غالباً ما يخضع هؤلاء لمراقبة السلطة. ولكن نظراً لكوني سوفياتياً فقد ساعدني هذا على الدخول في أحاديث ودية مع هؤلاء

المتعاطفين الماركسيين على أمل اختيار من هو مناسب منهم وتجنيده لصالحنا، وكان للحظر المفروض علينا في عهد الشاه بعدم الاتصال بالايرانيين أثره في جعل التقارب ممكناً بيننا وبينهم.

وكان أن قضيت يوماً كاملاً في الجامعة أتحدث مع أعضاء من منظمتي المجاهدين والفدائيين. وقد كنت في نظر هؤلاء ممثلاً للحكومة السوفياتية، ولذا دأبوا على المطالبة بتزويدهم بالأسلحة بهدف الاستيلاء على السلطة قبل فوات الأوان. وعندما كنت أقول لهم: «ولكنكم تملكون السلاح». يجيبون: «لدينا القليل وهو لا يكفينا سوى أيام. ما نريده هو أن يكون تزويدنا بشكل متواصل». وهم في ذلك كانوا يتذكرون مرارة الماضي عندما كانوا يطلبون من السوفيات المساعدة لقلب نظام الشاه وكنا نرفض حتى الاعتراف بهم.

قال أحدهم: «أيها الرفيق العزيز.. يمكننا متابعة الطريق دون مساعدتكم».

وعند الساعة السادسة مساءً شاهدت ناقلة جند محملة بشبان يرتدون بذلات القتال الفلسطينية ويعتمرون الكوفيات وقد اتجهوا نحو المقر الرئيسي للفدائيين. لقد كانوا في غاية الاثارة. وفهمت من أحدهم أن جماعتهم المسلحة حاصرت السفارة الاميركية والدبلوماسيين داخلها.

قال أحدهم: «نريد القبض على رئيس مركز الـ سي. آي. اي. ونحصل منه على كل الأسرار وعلى أسماء العملاء الاميركيين في ايران. لكن مندوباً من السلطة يدعى يازدي طلب منا مغادرة محيط السفارة.. ولكن من أنت؟؟» سألني فجأة: «أميركي؟». أجبته: «لا، لا.. أنا سوفياتي من السفارة». قال: «آه.. حسناً.. حسناً».

وتبين لي لاحقاً أنه من أصل روسي من الجيل الثالث للروس البيض. وكان من عائلة نزحت الى ايران سنة ١٩١٧، وهو يتكلم الروسية بطلاقة وبالأسلوب الذي كان سائداً قبل الثورة. وعندما كشف لي عن وجهه بدا منظره مقبولاً وكانت عيناه زرقاوين، ثم قال: ««نحن لا نكشف عن وجوهنا لأنه لا ثقة لنا بالسلطة الجديدة.. انظر كيف كان ردهم على محاصرتنا السفارة الاميركية.. وما نريده هو اكتشاف النفق المؤدي الى مبنى السافاك الرئيسي، فهناك العديد من الانفاق للسافاك في أنحاء المدينة، وسنحاول العثور عليها».

وعلى ضوء الوقائع التي تجمعت لدي قدمت تقريري الى المسؤولين في السفارة مركزاً على الشاب الروسي الأصل ومقترحاً الاستعانة به للوصول الى قيادة الفدائيين. ولكن كوسترومين (وقد ارسل مؤخراً الى طهران لإعادة تنظيم الأمور في السفارة) قال أنه لا داعي لذلك. . لأن الاتصال سبق وقد تمّ اليوم.

واكتشفت فيما بعد أنه في الرابع عشر من شباط / فبراير ١٩٧٩، وبأمر مباشر من مجلس السوفيات الأعلى، قامت السفارة بالاتصال مع قيادة المجاهدين والفدائيين بواسطة فلاديمير فيسنكو وهو ضابط في المخابرات السياسية وخبير في الشؤون الايرانية الذي كان يبدو بشعره الأسود وعينيه البنيتين وكأنه مواطن ايراني.

لقد قدم فيسنكو نفسه شخصياً في المقر الرئيسي للمجاهدين والفدائيين بصفته مندوباً رسمياً للاتحاد السوفياتي، وأبرز لهم جواز سفره الدبلوماسي، وقد نجح في حديثه مع القادة الذين ترددوا أول الأمر تخوفاً من ردة فعل السلطات في ايران.

لقد طرح الاقتراح السوفياتي على النحو الآتي: «نريد أن نكون على اتصال معكم». وكان جواب قادة المنظمتين: «في الظروف الحالية لا. . فالسلطات ستستغل اتصالنا معكم لعرقلة أمورنا وإظهارنا أننا اليد الحمراء لموسكو».

أخيراً تم الاتفاق على أن يكون الاتصال في اوروبا. وطلب كل من المجاهدين والفدائيين تزويدهم بالسلاح فوراً. . ولكن فيسنكو اكتفى بالقول انه سيقوم بإبلاغ الطلب الى موسكو، وبناءً على ذلك أعطى المجاهدون رقم هاتف لشقة آمنة في طهران للاتصال في حال حدوث أمر جديد. أما الفدائيون ففضلوا عدم التورط.

ولقد أوحى تقريري ولا سيما خبر بحث الفدائيين عن الانفاق الخاصة بالسافاك بفكرة بارعة لكسترومين الذي اقترح علي ترتيب اجتماع مع الشاب الروسي الأبيض واخباره عن مركز السافاك المقابل لمقر سفارتنا وعن الاعتقاد بوجود نفق يمتد من المركز الى باطن السفارة بهدف التنصت على ما يجري هناك. ولم يكن مهماً ما إذا كان الأمر صحيحاً أم لا: فالهدف من الفكرة دفع الفدائيين الى تدمير مركز مراقبة عناصر السافاك الذين كنا نشعر نحوهم بالكراهية.

في اليوم التالي نشرت الصحف خبر إعدام أول شخصية في نظام الشاه، وهو الجنرال ناصيري رئيس السافاك. وكذلك نشرت صور آخرين تم اعدامهم في ١٥ شباط / فبراير باعتبارهم من رموز النظام السابق مثل: كوسروداد، رحيمي، وناجي. وكانت تلك البداية.

وعودة الى ما أثاره كوسترومين حين اراد دفع الفدائيين الى تدمير مركز المراقبة فقد اتصلت بالشاب الروسي وأطلعته على موقع المركز موهماً إياه بوجود نفق هناك. فأبدى حماسه للفكرة وطمأنني وهو في غاية الانشراح أنه سيصار الى تدمير المكان ليلاً.

وقبعنا ننتظر في السفارة والفرحة تغمرنا حتى بدونا مثل الأطفال وهم ينتظرون الهدايا.

غير أن شيئاً لم يحدث.. وحين أقبل صباح اليوم التالي كان المركز ما زال منتصباً في مكانه، ولم يبد أي أثر للمجموعات السرية.

وعندما التقيت ذلك الشاب لاحقاً أخبرني أنه نقل ما أخبرته به الى قادته، وهؤلاء بدورهم اتصلوا بمندوبي السلطات الجديدة الذين أعطوهم تعليمات مشددة بالامتناع عن القيام بأي عمل من هذا القبيل، سواء أكان ذلك لمركز السافاك أو لأي هدف آخر قريب من السفارة السوفياتية.

وبدا الأمر واضحاً.. فلم يكن علينا توقع أي تغيير للأوضاع في ظل السلطة الجديدة. فالعمل على ملاحقتنا سيظل مستمراً، وربما سيكون بمعدّل أكبر مما كان عليه الأمر سابقاً.

وعلى ضوء ما حدث إضافة الى تشابك وإبهام الأمور امتنعت عن الاجتماع بالروسي الأبيض تجنباً لما قد يحدث من متاعب.

الفصل الثالث عشر

الحياة في وجهها الحقيقي ـ حزب توده ـ فيلق الحرس الثوري ـ هوس الجاسوس

في السابع عشر من شباط / فبراير ١٩٧٩ أعلنت حكومة بازركان شرعية الأحزاب السياسية في ايران بما فيها حزب توده، وهو الحزب الشيوعي الايراني، وكان قد تأسس سنة ١٩٢٠ بمساعدة السوفيات ولكنه مُنع أيام الشاه واضطر أعضاؤه الى العمل في الخفاء ولا سيما بعد تقرب الشاه من النازية الألمانية. غير أن احتلال الاتحاد السوفياتي وبريطانيا ايران عام ١٩٤١ أبرز من جديد دور الحزب فعاد الى الواجهة في المقاطعات الشمالية وخاصة في طهران حيث تمركز النفوذ السوفياتي. وقد عمل توده بعد رحيل القوات السوفياتية على القيام بانقلاب، ففي عام ١٩٤٩ حاول بعض الضباط الايرانيين اغتيال محمود رضا بهلوي وأطلقت عليه عدة رصاصات ولكنه نجا، فاستنفرت نتيجة لذلك السلطات للقضاء على الحزب، واعتقل بعض أعضائه بينما لجأ البعض الآخر الى الاتحاد السوفياتي للعمل من هناك ضد نظام الشاه حتى سنة ١٩٧٩، حيث تركز نشاط الحزب على البث الاذاعي باللغة الفارسية، وقد عمل كثير من الأعضاء في الجامعات السوفياتية في تدريس اللغة الفارسية أو محاضرين في الأدب والتاريخ لبلاد فارس. كما كان بعض أعضاء الحزب يقيمون في ألمانيا الشرقية ويقومون بأنشطة مشابهة. أما داخل ايران فقد كان الحزب في حالة شلل فتوقف عن القيام بأي نشاط منذ العام ١٩٤٩ حتى ١٩٧٩، وقد سجن العديد من أعضائه بينما تخلى الآخرون عن معتقدهم الشيوعي.

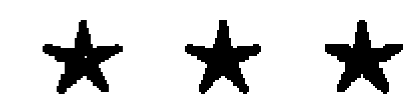
في هذا الوقت بدأت التغيرات الاسلامية في البلاد. ففي آذار / مارس منع الخميني شراء اللحم المثلج المستورد من استراليا ونيوزيلندا وغيرهما على اعتبار أن ذبح المواشي في تلك البلدان لا يتم حسب الشريعة الاسلامية المعروفة.

ومن جهة أخرى صدر قانون يفرض على النساء العاملات في القطاع الحكومي وضع الحجاب، وشمل ذلك مذيعات التلفزيون. وتزايدت الاعتداءات على النساء اللواتي لم يتقيدن بالقانون الجديد وألقي عليهن الأسيد الحارق.

وفي الشهر نفسه تشكلت المحاكم الاسلامية لتطبيق الأحكام الشرعية. وغالباً ما كان يتم الاعدام رمياً بالرصاص بناءً على قرار يتخذه رجل الدين بعد قراءة دليل الاتهام من دون الاستماع الى أقوال الدفاع والمحامين.

كذلك نشطت اللجان الثورية المكونة في معظمها من الشبان الذين أطلقوا من السجون. وقد أعطت السلطات حرية تصرف مطلقة لهذه اللجان وأوكلت اليها مهمة القبض على العناصر المناوئة للثورة. وكانت اللجان تتشكل في كل شارع وزاوية، وعمدت الى إصدار قوانينها الخاصة وكان من ضمنها إدارة حركة المرور، وذلك نظراً لعدم مزاولة الشرطة الرسمية لأعمالها في ظل تلك الظروف، مما أدى الى تفاقم أزمة المرور بشكل أكبر مما كانت عليه سابقاً، فيما كانت بعض الجماعات تطبق بمزاجية أمر منع التجول فتقتل الناس وتطلق النار عشوائياً. وقد قتل أحد خبرائنا التقنيين في حادثة من هذا النوع خلال عودته من السفارة الى شقته في المدينة في الساعة الحادية عشرة ليلاً.

وفي نيسان / أبريل ١٩٧٩ عقب اعلان جمهورية ايران الاسلامية تم إعدام أمير عباس هويدي رئيس الوزراء السابق كما أعدم العديد من الشخصيات البارزة في حكومة الشاه السابقة. ودأبت الصحف يومياً على نشر الصور الفظيعة لمشاهد الاعدامات والتنكيل بالضحايا.



استمرت العلاقات جيدة مع المجاهدين عبر ضابط الـ كي. جي. بي. فيسينكو الذي نجح في اقناع قادة المنظمة بإبقاء الاتصالات سرية واتخاذ الاحتياطات اللازمة لتحاشي السلطات. ونتج عن ذلك الحصول على معلومات هامة من المجاهدين، إذ علمت الـ كي. جي. بي. أنه خلال الاضطرابات وقع أرشيف السافاك في يد المجاهدين، فسارعت القيادة في

موسكو الى ارسال برقية عاجلة : «اتصلوا حالاً بالمجاهدين واحصلوا منهم على ملف الجنرال مغربي» . لقد كان ذلك هو الفشل الكبير الذي منيت به الـ كي . جي . بي . في ايران . ولم يكن مستغرباً الطلب العاجل من قبل المركز لمعرفة الأسباب .

على الأثر التقى كزانكن بـ فيسينكو وطلب منه الاتصال فوراً بعميله ، وحدث أن كنت حاضراً عندما دار الحديث بينهما . وأبلغه فيسينكو أنه سيتوجه الى المدينة وعندما يتأكد أنه غير مراقب سيعمل على الاتصال بالعميل . ولكن هذا لم يرق لكزانكن الذي قال بإصرار: «هذه مضيعة للوقت . . اتصل به مباشرة من السفارة» ، فرد فيسينكو: «لكن هذا سيكون خطراً» . قال كزانكن مهوّناً الأمر: «ليس هناك من خطر، لقد قضي على السافاك وليس هناك من أحد يتنصت على الهاتف . اذهب واتصل فوراً من السفارة» .

ولم يكن أمام فيسينكو إلا تنفيذ الأمر، فاتصل بالعميل وكان يدعى «ساداتي» وهو أحد قادة المجاهدين وأطلعه على ما يريده من معلومات .

لقد كانت الاجتماعات تعقد عادة في شقة آمنة للمجاهدين تقع غربي طهران ، وقد رافق فيسينكو في ذلك اليوم سائق العمليات و «عليف» ضابط الـ كي . جي . بي . وحملت السيارة رقم لوحة دبلوماسية .

قرع فيسينكو الجرس ففتح الباب الرئيسي فتابع سيره في ممر طويل حتى وصل الى باب الشقة السفلى فقرع جرساً آخر، وعندما دخل فيسينكو فوجىء بـ «الساداتي» واقفاً خلف مكتبه ووجهه شاحب اللون وقد تبعثرت الملفات والأوراق على الطاولة أمامه . وفجأة أغلق الباب خلف فيسينكو. ونظر الأخير حوله ليجد أربعة رجال شاهرين مسدساتهم نحوهما . حاول فيسينكو تبرير وجوده هناك بأنه دخل الشقة خطأً ، ولكن أحد المسلحين ناداه باسمه ليقول له إن هذه المستندات هي وراء وجوده هنا .

ولم يجد فيسينكو خياراً فأبرز بطاقته الدبلوماسية ، وعندها تقدم آخر موجهاً مسدسه وقال : «اركض» . وكان ذلك يعني أمراً واحداً : قتل عند محاولته الفرار. كان الباب خلفه مشرَّعاً وقد بدا مسلح آخر عند الباب الأمامي . وفجأة سمع طرق قوي على باب المدخل وأخذ رجل ينادي أنه عاش في هذا المبنى منذ أمد طويل ولا يحق لأحد أن يطرده ، ثم اندفع الى الداخل

بصحبة ابنته وهو يهدد ويتوعد. في تلك اللحظة بالذات عمت الغرفة أجواء مشحونة، فاستغل فيسينكو الفرصة وخرج مسرعاً من المبنى وكان على يقين أن المسلحين لن يطلقوا عليه النار بسبب وجود الرجل وابنته. وهذا ما حدث، فعاد الى السيارة وارتمى على المقعد طالباً من السائق التوجه الى السفارة بأقصى سرعة.

لقد استبعد فيسينكو أن يكون هؤلاء المسلحون من أعضاء اللجان الثورية، فقد بدوا لائقي المظهر يرتدون ملابس باهظة الثمن. لذلك لم نشك أنهم من السافاك، وهذا ما دعانا الى التخلي عن الاعتقاد بأن جهاز شرطة الشاه السري قد قضي عليه تماماً. أما الثمن الذي دفعناه لمعرفة ذلك فكان أن أمرت موسكو بترحيل فيسينكو حالاً. وهكذا خسرنا ضابط مخابرات آخر ذا كفاءة عالية. أما الساداتي فحكم عليه بالسجن عشر سنوات بتهمة التجسس. وقد فاجأنا الأمر على اعتبار أن الحكم بالإعدام على أي مشبوه كان سيد الموقف في ذلك الحين. ولكن بعد أشهر جرت محاكمة ساداتي مجدداً، وفي هذه المرة لم ينج من حكم الاعدام رمياً بالرصاص. وتلك كانت نهاية علاقتنا بالمجاهدين.

وهكذا تأكد لنا أن جهاز السافاك ما زال يعمل.. فالمبنى الرئيسي في سلطانة آباد في شمال شرقي طهران كان قد وقع في أيدي السلطات الجديدة، ولكن المحتويات كانت قد خربت، وإذ أدرك مسؤولو السافاك ما ينتظرهم من مصير اختفوا من الساحة وراحوا يعملون في الخفاء.

لكن غضب السلطات انصب على القيادة الثالثة في ذلك الجهاز باعتبارها المسؤولة عن الاغتيالات والتصفيات البشرية. أما الفرق التي كانت موجهة بمكافحة التجسس وكذلك القيادات التقنية فقد تركت وشأنها فلم تجر محاكمة أفرادها. وفي نيسان / أبريل ١٩٧٩ نظم مسؤولو السافاك مسيرة أمام مكتب رئيس الوزراء في طهران وأعلنوا أنهم لم يشتركوا في أي عمل معادٍ للشعب الايراني وانهم عملوا على حماية البلاد، ولذا فهم يطالبون بالعودة الى ممارسة أعمالهم. ولم تتخذ أية اجراءات ضد المتظاهرين بل أخذت السلطات مطالبهم بعين الاعتبار.

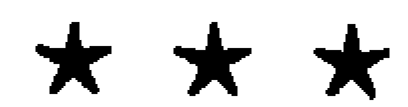
وفي أيار / مايو عادت الأمور الى طبيعتها وتابع راديو السافاك ارسال بثه العادي، ومن جديد عادت سيارات المراقبة للوقوف قبالة السفارة. وصدف

أن كنت المسؤول الأول في السفارة الذي خضع للمراقبة في أول أيامها . . «يا له من شرف!!» .

ففي ذلك الصباح غادرت السفارة بعد إعداد الراديو في سيارتي على موجات بث السافاك وفجأة سمعت إشارة انطلقت في الجهاز من مركز المراقبة المقابل . بعد وقت قصير لاحظت سيارة تلاحقني ، ثم رأيت أخرى وكانت هي ذاتها التي استعملت في أيام مضت . ومن فوري غيرت اتجاهي عائداً الى السفارة .

لقد اضطرت السلطات الى الاستعانة بالسافاك لافتقارها في ذلك الحين الى جهاز للحماية من هذا النوع ، إضافة الى كونها بحاجة الى تدريب عناصرها الجديدة . وهو نفس ما حدث في الاتحاد السوفياتي بعد الثورة عندما استبدلت قيادة الشرطة الثالثة الـ كي . جي . بي . بالـ شيكار .

ولكن يجدر الاعتراف بأن السافاك كانت مخلصة لنظام الشاه وأثبتت ذلك في الظاهر كما في الباطن . ولكنها تحت عامل الخوف اضطرت الى التعامل مع السلطات الجديدة التي لم تكن تثق بها كلياً . وقد عمدت تلك السلطات الى تطعيم السافاك بعناصر تابعة لها مسندة اليها مناصب عليا ، وكان هؤلاء في غالبيتهم من رجال الدين الذين بإمكانهم إعدام أي شخص بمجرد الاشتباه بعدم إخلاصه . وهذا الوضع جعل السافاك أكثر خطورة علينا .



عندما أيقن القادة السوفيات أن الوضع في ايران قد استتب راحوا يعدّون للمرحلة المقبلة ، فوجهوا تعليمات الى السفير بضرورة مقابلة الخميني وابلاغه تأييد واعتراف الاتحاد السوفياتي بالجمهورية الاسلامية الايرانية .

توجه السفير فينوغرادوف بسيارته قاطعاً مسافة مئة وعشرين كيلو متراً لمقابلة الخميني الذي كان قد انتقل في آذار / مارس من طهران الى «قم» . ولقد رافق فينوغرادوف مترجم شاب من الدبلوماسيين إضافة الى فيكتور كزاكوف من المخابرات السياسية . وكان السفير مضطرباً ، فالسلطات الجديدة لم تكن

متحمسة لاستقبال الأجانب .

واستمع الخميني الى السفير بتحفظ ولم يبادله الحديث . وقد قدم المترجم ، وهو مجنّد للـ كي . جي . بي . ، تقريره في ذلك اليوم موضحاً ما جرى في اللقاء .

ولم تُطمئن محصِّلة الاجتماع موسكو التي أرادت من الخميني شيئاً معيناً . لذا طلبت من فينوغرادوف ترتيب اجتماع ثانٍ . وللمرة الثانية لم يصدر من الزعيم الايراني ما كانت تريده موسكو . والظاهر أن محور الاجتماعين اقتصر على تأكيد علاقات حسن الجوار بين البلدين ومتابعة برنامج التطوير الاقتصادي وكذلك استمرار العلاقات التجارية وتمتين الروابط الثقافية .

مرة أخرى طلبت موسكو من سفيرها الاجتماع بالخميني لمعرفة ردة فعله تجاه الاقتراحات ، فاستقبله الخميني للمرة الثالثة ، ولكن النتائج بقيت على حالها .

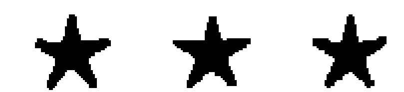
وبدا واضحاً أن الايرانيين غير متحمسين للمساعدة السوفياتية . لكن فينوغرادوف لم يذكر ذلك بوضوح في تقاريره الى موسكو والتي صيغت بلغة دبلوماسية مركزة على سلبيات الخميني ، مما دفع موسكو للمرة الرابعة خلال ثلاثة أسابيع الى الطلب من السفير الاجتماع بالخميني . لقد كان ذلك مثار تندّر لنا في السفارة ، إذ كان على رجلنا كزاكوف عند كل زيارة للخميني الانطلاق الى الموعد في الساعة الرابعة صباحاً .

غير أن محاولة الاجتماع بالخميني للمرة الرابعة انتهت الى نتيجة فاضحة . فبعد أن أوقف الحرس سيارة السفير تقدم مسؤول شاب ذو لحية طويلة من فينوغرادوف ليبلغه أن الخميني لن يجتمع به اليوم وأنه ينبغي على السفارة السوفياتية التقدم بطلب مسبق الى وزارة الخارجية . وكان الحديث يجري من خلال نافذة السيارة ، ثم أشار أحد الحراس بسلاحه الاوتوماتيكي للحارس أن يستدير ويعود أدراجه .

كان ذلك بمثابة بصقة في وجه ممثل الاتحاد السوفياتي .

وقد عرفت الـ كي . جي . بي . من مصادرها الخاصة لاحقاً أن المستشارين السياسيين للخميني أقنعوه أنه من غير المستحسن أن يبرهن عن رد فعل عدائي تجاه السوفيات ، وأن من الأفضل اتباع الطرق الدبلوماسية . لكن حينما

أبلغ الخميني أن فينوغرادوف يصر على الاجتماع به للمرة الرابعة ضاق بذلك وقال: «أنا لا أجتمع بأي من سفراء أميركا وبريطانيا وفرنسا، فلماذا علي أن أقابل السفير السوفياتي؟.. لا.. لا أرغب في لقائه مجدداً»!.



منذ البداية كان الخلاف واضحاً بين مختلف المجموعات السياسية من جهة وبين السلطات والمسؤولين من جهة أخرى. فبعد اسبوع واحد من وقوع ثورة ١١ شباط / فبراير هاجم الخميني علناً أعضاء منظمة الفدائيين لتغطيتهم وجوههم، مع العلم أنه كان لهؤلاء دور كبير في قلب نظام الشاه.

كذلك لم يُعَيَّن ممثلون عن منظمتي الفدائيين والمجاهدين في مراكز السلطة، لكون هؤلاء عارضوا قيام الجمهورية الاسلامية بالشكل الذي أراده رجال الدين. ولكن معارضتهم لم تكن لتلقى اهتماماً من أحد باستثناء واحد من رجال الدين هو آية الله طالقاني الذي اعتبر أن المجاهدين والفدائيين لم يعاملوا جيداً، فدافع عن أفكارهم وحاول جاهداً دعمهم وتأييدهم. وكان طالقاني شخصية بارزة في طهران وطالب دوماً بالرحمة والمحبة وانتهاج طريقة الاسلام الصحيح، وألمح بوضوح الى لجوء السلطات الى اعتماد عقوبات القتل، وأخذ على رجال الدين تدخلهم في السياسة على ذلك النحو غير المقبول.

لقد كان طالقاني من معارضي نظام الشاه، وسبق أن سجن عدة مرات الى أن أفرج عنه خلال الثورة. وكان ابناؤه أعضاءاً في منظمة الفدائيين وقاموا بدور فاعل في الأحداث ضد نظام الشاه.

ولكن الخميني اعترض على أسلوب طالقاني وراح يضيق عليه ليكف عن تصريحاته ضد السلطات.

وواجه طالقاني الأمر وأعلن أمام الحشود عن الضغوط التي يتعرض لها، مما دفع بالمجاهدين والفدائيين الى القيام بمظاهرات التأييد له والتي امتدت الى أربعة أيام. وقد وضع هؤلاء جميع مسلحيهم تحت تصرفه، وكان واضحاً انهم

ينوون التدخل لمجابهة أعدائهم عند أول اشارة من زعيمهم الروحي الجديد. لكن طالقاني لم يكن من محبّذي العنف فلم يعمل على استغلال تلك الفرصة.

إزاء هذا التحول الجديد وتخوفاً من نشوب حرب أهلية آثرت السلطة تحاشي المجابهة مع طالقاني فتركته وشأنه.

وفي أول أيام أيار / مايو ١٩٧٩ اغتيل آية الله مرتزق مختاري على يد مجموعة من الارهابيين في طهران تدعى «منظمة الفورغان». وذكرت السلطات انها منظمة يسارية متطرفة هدفها محاربة قيام جمهورية اسلامية وتصفية رجال الدين. ولم يكن هذا الادعاء مقنعاً لنا، ويعود ذلك الى سببين:

الأول: ان مختاري لم يكن من مؤيدي سياسة الخميني، بل كان يقف الى جانب آية الله طالقاني في معارضته لسياسة القمع الوحشية. ووفق نظرة اليساريين فإن مقتل رجل دين تقدمي ما كان ليؤدي إلا الى إضعاف موقفهم.

الثاني: ان أحداً منا أو من عملائنا في اليسار لم يسمع عن منظمة «الفرغان». وقد وضح الأمر لاحقاً. إذ بعد مصرع مختاري لم يعد يسمع بتلك المنظمة. وقد كشفت الـ كي. جي. بي. الغموض حول سراب «الفرغان». ففي نهاية أيار / مايو أعلنت السلطات عن محاولة لاغتيال حجة الله هاشمي رفسنجاني في منزله، وقد أعلنت منظمة «الفورغان» مسؤوليتها عن الحادث. وتبين أن اثنين من مجندي الشاه قدما ذات مساء لزيارة رفسنجاني فأدخلها الحرس بناءاً على أمره. وبوصول المحادثات الى منعطف حيث تطرق الجدل الى سياسة السلطات الجديدة انفجرت المواقف ونشب عراك فانطلق عيار ناري من مسدس يخص رفسنجاني فأصيب بجرح طفيف، فيما تمكن حرسه من القضاء على الرجلين. وما كان لأحد أن يدري بما جرى لو لم يترك العراك أثر كدمة سوداء على وجه رفسنجاني، مما اقتضى بيان السبب وتبرير ذلك أمام الناس.

وهكذا برزت منظمة «الفورغان» الى الواجهة.

وهذه المنظمة عينها نفذت عمليتين ارهابيتين أخريين. وكان الضحايا كالعادة من معارضي سياسة رجال الدين. الأمر الذي دعا الى تخصيص حراس لحماية الشخصيات الساسية إضافة الى أولئك. وفي آذار / مايو ١٩٧٩ اتخذت اجراءات إضافية لدعم مواقف رجال الدين في السلطة. فأمر الخميني

بإنشاء الحرس الثوري لتولّي حماية المسؤولين عن السلطة وتبنّى تنفيذ سياستهم بيد من فولاذ.

وكان لا مفرّ من اعتماد هذا الاسلوب بعد أن تحول حلفاء رجال الدين في قلب الحكم الايراني الى معارضين. يضاف الى ذلك تهديدات قوات اليسار التي ضمت آلاف المسلحين والتي أبقيت خارج التشكيلات في السلطة. ونظراً لوجود عناصر مؤيدة للشاه داخل الجيش فقد عمل الخميني على أن تكون له جماعاته الخاصة المسلحة كما كانت الـ شيكا في زمن لينين. وقد وضعت تلك الجماعات تحت قيادة مجلس الثورة الاسلامي.

ولذا كان معظم أفراد الحرس الثوري من فئة الشبان المخلصين للنظام الجديد، وكان هؤلاء من أصحاب البنية المعروفة في ايران. كانت أجسامهم رياضية قوية. وبالعودة الى بعض التوصيات التي حث عليها الاسلام نجد للمصارعة ورفع الاثقال علاقة في بناء القوة جسدياً ومعنوياً. ولقد شعر هؤلاء الرياضيون أن قوة رجل الدين في ايران هي قوة لهم وأن مبادىء الاسلام موائمة لطبيعتهم.

وكذلك انضمت الى الحرس الثوري عناصر مجرمة خارجة على القانون، ولا يعلم أحد الأسباب التي دعت الى ذلك. لكن من الملاحظ أن المجرمين في كل البلدان هم من الجماعات الدينية المتعصبة. فالمافيا الايطالية في الولايات المتحدة مثلاً أو المجرمون في الاتحاد السوفياتي هم في معظمهم من المؤمنين. وفي ايران وجد الخارجون على القانون والمجرمون الفرصة سانحة للتحول من عناصر معادية للمجتمع الى عناصر مسلحة للدفاع عن السلطة الجديدة.

وأيقن المجاهدون والفدائيون ان الحرس الثوري إنما شكل لمجابهتهم، فعملوا على إدخال عناصر سرية في الحرس الثوري ليتسنى لهم الاطلاع على المخططات المقبلة. كذلك انخرط العديد من الأفراد في اللجان الثورية. كان أفراد الحرس يرتدون بذلات القتال ومعظمهم بلحىً ومحلّقي الرؤوس، كما كانوا يرتدون السترات ذات اللون الكاكي ويحملون الأسلحة الأوتوماتيكية.

نتيجة لذلك ازداد نفوذ الحرس الثوري وأضحى القوة الوحيدة على الارض وانتشرت عناصره في جميع الوحدات من جيش وأجهزة أمن وشرطة، وكذلك في وزارة الخارجية وفي مختلف الادارات الحكومية. وقد هُدِفَ من وراء ذلك الى جعل العناصر متمرسة بالعمل من ناحية وأن تبقى الأعين مركزة على موظفي

النظام البائد من ناحية أخرى. لقد كانوا في كل مكان، فاتخذوا مواقع لهم في محطات القطارات وفي المطار ونقاط التفتيش والجمارك، وتدخلوا بالواردة والشاردة، عن معرفة أو عن غير معرفة.

أما بالنسبة لنا ولسوانا من الدبلوماسيين الأجانب فقد كانت الحصانة الدبلوماسية دافعاً كافياً لرفع درجة التوتر عند الحرس. وكان حق هؤلاء بين أيديهم، في البنادق الاوتوماتيكية التي يحملونها. وكانت الطريقة الأفضل لتجنب توترهم العصبي هي بالابتعاد عن أماكن وجودهم، ولو أن ذلك لم يكن ممكناً في كل الأحوال. فبحكم وظيفتي في القنصلية كان عليّ زيارة وزارة الخارجية أو الشرطة. وخلال كل زيارة كان يرافقني أحد الحراس فيحضر كل لقاء يتم بيني وبين المسؤول بهدف التأكد أن ليس في الأمر تجسساً. كان الأمر يبدو مضحكاً إن لم يكن محزناً.

ولقد ازداد الهوس بالتجسس عقب تشكيل الحرس الثوري، واتخذ الوضع منعطفاً جديداً. إذ راح الاعلام يحذر من أن «كل أجنبي يحاول اليوم جاهداً خنق مولود الجمهورية الاسلامية». وكان ذلك أيضاً شبيهاً بما جرى في الاتحاد السوفياتي أيام لينين، فأصبح الشك والحذر بين الناس الموضوع الدائم فيما كان البث عبر التلفزيون والراديو يذيع أرقاماً خاصة للاتصال في حال الاشتباه بنشاط الأجانب أو عند رؤية سيارات تحمل لوحات دبلوماسية في المدينة. وقد عرقلت هذه الأجواء أعمال المخابرات فجعلت العمل غاية في الصعوبة، وذلك على عكس ما كان عليه الوضع في عهد الشاه حيث كنا نعلم بمواقع السافاك. أما اليوم فالخطر يكمن في كل زاوية. ففي السابق لم يكن المواطنون يأبهون لأعمال التجسس، وما يطلب منهم اليوم إبقاء عيونهم على الدبلوماسيين وأن يخبروا عن كل التحركات. وهناك العديدون في كل بلد من محبي أعمال التجسس والمخابرات.

ويوماً بعد يوم أصبحت الجمهورية الاسلامية أقدر على الامساك بزمام الأمور، وقد أجبر النساء بمن فيهن الغير مسلمات على وضع الأوشحة على رؤوسهن حتى في المناخ الحار. كما أعلن الخميني عن تغييرات فيما يختص بالزواج فسمح للفتيان بالتزوج في سن الخامسة عشرة وللفتيات في سن الثالثة عشرة.

أما وعود الخميني بالمحافظة على الحقوق الدينية للأقليات فبقيت مجرد

كلمات فارغة. وكانت السلطات الايرانية قد طلبت من المجموعات الارمنية في البلاد وقف الدراسة المختلطة. وكذلك مُنِع وضع ربطات العنق، فكان دبلوماسيونا ينزعون ربطاتهم عندما يغادرون السفارة ثم يعيدون وضعها بعد دخولهم الى المقر. كم هو جبان المرء؟! فقانون ربطات العنق لم يُسَنّ لتطبيقه على الأجانب على الاطلاق.

واستمرت المحاكم الثورية تعمل في جميع أرجاء البلاد برئاسة آية الله خلخالي، وهو شخص متوتر، يصدر أمر العقوبة بسرعة، وكان قد أشيع أنه في عهد الشاه كان في مصحة للأمراض العقلية، ومن المعروف جيداً أنه لم يكن من الضروري وجود عائق جسدي لوضع أمثاله في هذه المصحات ولا سيما في ظل حكم دكتاتوري.

لقد كان حكم الاعدام رمياً بالرصاص المصير المؤكد بمجرد توجيه التهمة الى الشخص في المحكمة، ويتلو الحكم رجل دين هو القاضي. وفي إحدى القضايا حكم خلخالي بالموت على شاب، فراح الأخير يتصبب عرقاً ويقسم أنه بريء. فرد عليه خلخالي: «لماذا البكاء؟ خلال دقيقتين ستعدم. فإن كنت بريئاً فعندئذ ستذهب الى الجنة. ولكن إن كنت أنا على صواب وصدق أنك مذنب فعندها ستذهب الى الجحيم.. فلماذا أنت قلق؟!».

وفي تلك الفترة أيضاً أعدم «الجنيان» الزعيم اليهودي في ايران بتهمة التجسس «لإسرائيل»، فتوجه ممثلو الجالية اليهودية للاجتماع بالخميني، ولم يعد يسمع منذ ذلك الحين بإعدام اليهود، بالرغم من موقف الزعيم الايراني تجاههم. كان لليهود وجود قوي في الاقتصاد الايراني، ولكن موقف رجال الدين تجاه «اسرائيل» لم يتغير البتة. وخلال الأيام الأولى للثورة حوصرت السفارة «الاسرائيلية» في طهران، ولكن «الاسرائيليين» كانوا على علم مسبق بمجريات الأمور فتركوا ايران قبل تفاقم الوضع. ولم يتركوا شيئاً خلفهم.

وفي محاولة لإثارة «الاسرائيليين» وضعت السلطات الايرانية مبنى سفارتهم بتصرف ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية الذين قدموا الى ايران بسرعة بعد الثورة. في هذا الوقت كانت العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والفلسطينيين جيدة، فتمت الاتصالات على مختلف الأصعدة: السفارة، الـ كي. جي. بي. ومخابرات الجيش. ولكن الاجتماعات مع الممثلين الفلسطينيين تمت كلاً على حدة، الأمر الذي حيرهم ودفعهم للاعتراف بأنهم سبق وناقشوا الأمر مع

مسؤول سوفياتي آخر، فلماذا إعادة الأسئلة ذاتها. لقد بدا أنهم لم يكونوا على علم بجهاز البيروقراطية السوفياتية.

عند زيارة الفلسطينيين قام ضباطنا بتفحص أرجاء السفارة «الإسرائيلية» السابقة فأذهلهم الدهاء اليهودي. فبالرغم من كون «اسرائيل» حليفة مقربة من الشاه، إلا أن الأمن بالنسبة لها كان في المقام الأول. فبينما كان التعاون في أوجه مع السافاك فضل «الاسرائيليون» إخفاء أمر عملائهم في ايران عن زملائهم السافاك. ولهذه الغاية تم بناء نفق تحت الأرض بين غرفة الحرس عند مدخل السفارة الأمامي ومبنى السفارة. وهكذا بعتقد المراقب في الخارج أن زائر السفارة «الاسرائيلية» لم يترك غرفة الحرس بينما يكون في الواقع دخل عبر النفق الى داخل السفارة.

وفي البدء كان للفلسطينيين علاقات ممتازة مع السلطات الايرانية الجديدة وسمح لكل فرد من البعثة الفلسطينية في ايران بحمل السلاح، وأعطي كل منهم تصريحاً خاصاً وتعليمات بالتعاون الكامل مع حامليه. كذلك أُعطي حرس الثورة التصاريح ذاتها. ولكن شهر العسل هذا لم يدم طويلاً. ومردّ ذلك الى عاملين:

الأول: أن اتصال الفلسطينيين بالدبلوماسيين السوفيات لم يكن مستحباً من قبل السلطات الايرانية. ولم تجدِ المحاولات لإقناع الفلسطينيين بوقف ذلك.

والثاني: أنه بعد تشكيل فيالق الحرس الثوري طلبت السلطات الايرانية من منظمة التحرير الفلسطينية تدريب عناصرها على القتال لمحاربة القوات اليسارية من المجاهدين والفدائيين، فكان جواب الفلسطينيين الرفض، إذ كانت تربطهم أواصر قربى مع المنظمتين وسبق لهم أن دربوا عناصر كل منها في مخيماتهم.

كانت ردة الفعل عنيفة إذ جُرّد الفلسطينيون من الامتيازات التي سبق منحها لهم ووُضعوا تحت المراقبة، كما عُمِل على طرد أولئك الذين اتصلوا بالسوفيات خارج إيران.

الفصل الرابع عشر

المواطن شيبارشن ـ توده والدائرة العالمية

آية الله طالقاني ـ حصار السفارة الاميركية

في أيار / مايو ١٩٧٩ تسلم ليونيد فلاديميروفتش رئاسة الـ كي . جي . بي . وهو شاب ذكي لائق المظهر وعلى خلق نبيل ، وسبق لـه أن عمل رئيساً للقسم السابع عشر في القيادة العليا الأولى برتبة كولونيل ، ثم انتقل بعد ذلك الى القسم الثامن في ايران بناءً على قرار قادة تلك القيادة .

قال ليونيد : «استقبلني يوري اندروبوف قبل مغادرتي موسكو مبدياً لي قلقه من الوضع القائم في ايران لكوننا خسرنا شبكة العملاء نتيجة الثورة ، وقد أمهلني مدة سنتين لإعادة بناء هذه الشبكة ، وهو وقت أكثر من كافٍ ، وأعتقد أنه لا بد من تحقيق الهدف الذي طلبه الرئيس في فترة لا تتعدى السنة الواحدة . وأنا على علم مسبق أن ذلك سيتطلب بذل جهود متواصلة ، ولهذا السبب نحن هنا ، ولذا أيضاً تدفع لنا الدولة أموالاً ، هذا كل شيء في الوقت الحاضر ، وسأتعرف على كل منكم شخصياً خلال العمل» .

لقد كانت كلمات ليونيد جدية ومؤثرة . وكما ألمحت سابقاً فإن الكثير من الأفراد في المقر لم يكونوا يقومون بأي نشاط منذ منتصف سنة ١٩٧٧ بعد الفشل الذي مني به العملاء واندلاع الثورة . فالمخابرات السياسية اقتصر عملها على جمع الأخبار العادية بعد فقدان مصدرها الرئيسي وهو الجنرال «مغربي» . يضاف الى ذلك عدم تجنيد عميل واحد منذ ذلك الحين . أما المخابرات الثقافية فركزت على «تأمين الحماية» للجالية السوفياتية بعد أن فشلت في ايجاد قنوات اتصال بالأجانب . كما أن القسم (اكس) المهتم بالمخابرات التقنية والعلمية لم يحقق أية نتائج في ايران . والوحيد الذي استمر في العمل هو القسم (ان) . فقد كان هناك لاشرعيون استمر العمل معهم في

شتى الظروف ورغم تعقيدات الوضع .

وكنت قد شارفت على تجنيد عميل جديد . . ولذا فإن سياسة الرئيس الجديدة لم تكن لتقلقني .

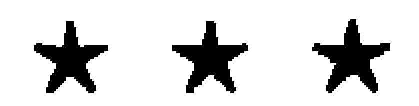
غير أن موقف المخابرات السياسية تميز بالسلبية تجاه ليونيد الذي اعتبره مسؤولوها عائقاً أمام مصالحهم . وقد كان من المستبعد أن يقدموا له المساعدة ، ولكنهم لم يكونوا ليخالفوا قرارات القيادة ، إلا انهم قادرون على جعل ليونيد كبش محرقة . ولذا روّجت الأقاويل بأنه مبتدىء محظوظ ويفتقر الى الخبرة العملية ولا سيما في ظل الظروف الراهنة .

واستمر ذلك متداولاً الى أن بدأت سيرة الرجل وقدراته تتضح تدريجياً . فقد ولد ليونيد فلاديميروفتس سنة ١٩٣٥ وأنهى دراساته في معهد موسكو للعلاقات الدولية سنة ١٩٥٦ ، وانتقل بعدها للعمل في وزارة الخارجية . كان تخصصه عن باكستان وقد درس الانجليزية ، وفي سنة ١٩٥٨ عين ملحقاً ثقافياً في كراتشي ، ورقي فيما بعد الى منصب السكرتير الثاني في السفارة السوفياتية هناك .

ومنذ أيام دراسته في معهد موسكو وهو يعمل مخبراً للـ كي . جي . بي . وقد أبقى على اتصالاته مع مسؤولي الأمن خلال عمله في وزارة الخارجية . كما أنه استمر عميلاً مخبراً للـ كي . جي . بي . بعد انتقاله الى باكستان ، وقد اقترح عليه موبانيك الرئيس المسؤول هناك العمل بصفة دائمة .

وفي سنة ١٩٥٨ عاد ليونيد الى موسكو. وبعد دورة تدريبية لمدة سنة في المدرسة ١٠١ أرسل للعمل في القسم السابع عشر في الـ كي . جي . بي . وفي العام ١٩٧١ أرسل الى السفارة السوفياتية في دلهي بصفة ضابط مخابرات سياسية حيث تسلم منصب السكرتير الأول . وفي الهند رقّي ثانية فتولى رئاسة قسم المخابرات السياسية ، ثم عاد الى موسكو في العام ١٩٧٧ وعين رئيساً للفرع الهندي في القسم السابع عشر.

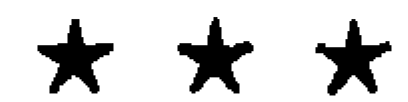
في هذه الأثناء كان مديانيك رئيس الـ كي . جي . بي . في باكستان قد ترقى الى منصب نائب القائد ، وهو الذي اقترح ارسال ليونيد الى طهران .



في أيامه الأولى كان ليونيد ساكناً يقضي معظم وقته في المكتب مع كـزانكن الذي كان ما زال في طهران وقـد أدرج في لائحـة الانتظـار استعـداداً لمغـادرة البلاد، وكان كزانكن يتعامل مع ليـونيـد بكل اخـلاص فـوضعـه في الأجـواء العملية وحاول جاهداً دفع الضباط الآخـرين لـلالتفـاف والعمل مع الـرئيس الجديد.

وبعد مغادرة كزانكن ظل ليونيد على عادته يمضي طيلـة وقتـه في مكتبـه. واستمرت طلبات موسكو على حالها رغم الصعـوبـات التي نتجت عن قيـام الثورة. وكنا نرسل يوماً برقيتين تحملان أهم المعلومات على الساحة السيـاسيـة في البلاد. وكان ليونيد يقوم بكتابة التقارير وأحياناً يعيـد كتـابتهـا، وكـان في كتابته جيد الاسلوب، كما كانت لديه معرفة لا بأس بها باللغة الفارسية مكنته من قراءة الصحف وتحليل الأخبار. وكان يعمـد الى جمع العنـاوين والمقـالات الهامة ويعلقها على الحائط أمامه للاطلاع على المستجدات بصـورة دائمـة من دون إضاعة الوقت في تنقيب الملفات.

لقد تميّز ليونيد عن أسلافه بحياة عادية متواضعة، فكان يقضي معظم وقته في المقر يعمل على تجميع المعلومات، وعندما يكون في المنزل فهو لا يكف عن قراءة الكتب التي يحرص على جمع أكبر عدد منها، على عكس مـا كـان عليـه الآخرون من ضباط الـ كي. جي. بي. لقد كـان مـدركـاً أهميـة دوره والمهـام الموكولة اليه فتحاشى اتباع الحيل الدنيئة.



بعد وصول الخميني الى تصدّر السلطة بدأ أفـراد حـزب تـوده بـالعـودة الى ايران. وكان على القادمين منهـم من الاتحاد السوفياتي زيارة سفـارتنـا لتقـديم تصاريح بعودتهم، منهم من حضر شخصيـاً، والكثيرون أرسلـوا تصـاريحهم بـواسطـة شخص أرمني مكلف من المجلس الأعلى لحزب تـوده كـان أمضى عشرين سنة في السجن الى أن أخلي سبيله عقب قيام الثورة.

في البداية اقتصر مجيء الأرمني الى السفارة على الإتيان بـالتصـاريح فقط، وما لبث أن بدأ يرفق ذلك بملاحظات مقتضبة سجلت في ورقة صغيرة مطوية

على شكل مربع صغير كان يخرجها من تحت بنطلونه ويسلمنا إياها دون أن ينبس بكلمة مشفعاً ذلك بنظرة واضحة المعنى. وكان شديد الحذر لا يبوح بشيء، وبدا أنه أعطي تعليمات بذلك خشية أن يكون جهاز الأمن الايراني دسّ أجهزة تنصت في مقر السفارة. كما بدا من المؤكد أن قيادة حزب توده هي وراء تلك الملاحظات التي يقوم بنقلها الأرمني، وقد اعتمد هذا الأسلوب بعد فشل المحاولات التي قامت بها القيادة السوفياتية لإقامة علاقات جيدة مع النظام الايراني الجديد عبر الاتصالات بالخميني مباشرة، مما اضطرها أخيراً الى استعمال حزب توده «حصان طروادة».

وكما ذكرت من قبل كانت موسكو قد استبدلت السكرتير العام لحزب توده وعينت مكانه نور الدين كيانوري قريب الخميني بهدف التقرب من النظام، وكان الأخير قد عاد الى ايران في نيسان / أبريل ١٩٧٩ بعد أن خضع لتدريب خاص في القسم الدولي لمجلس السوفيات الأعلى وتعلم كيفية تنظيم العمل مستقبلاً في ايران.

وكان القسم الدولي موكلاً بالاتصال بالاحزاب الشيوعية في جميع أنحاء العالم. وكانت الاتصالات مقسمة الى نوعين: شرعية، وغير شرعية. الأولى باشراف مسؤولي القسم الدولي مما يجعلها في منأى عن الخطر، بينما كانت الثانية تتم بسرية ويعمل على تنفيذها كل من الـ كي. جي. بي. ومخابرات الجيش ويشرف عليها شخص لاشرعي من القيادة (اس). وهذا الأخير يرسل تقاريره مباشرة الى القسم الدولي دون معرفة الـ كي. جي. بي. بمحتوياتها.

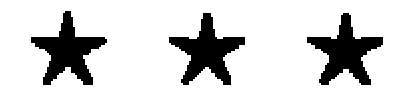
كذلك يلجأ القسم الدولي الى الـ كي. جي. بي. لتدريب أعضاء الأحزاب الشيوعية الأجنبية بالرغم من اعتقادهم أن المعلومات التي يجمعها سراً أعضاء الحزب الشيوعي أهم بكثير من تلك التي تحصل عليها الـ كي. جي. بي. ففي حين تركز المخابرات الغربية على ملاحقة الـ كي. جي. بي. وعلى مخابرات الجيش يقوم أعضاء الأحزاب الشيوعية في بلدانهم بتزويد القسم الدولي بالمعلومات السرية دون إثارة أية شبهة.

كما أن أسماء الأعضاء في الحزب الشيوعي المحلي تبقى سرية ويتزعم الأعضاء عضو في المجلس الأعلى هو المسؤول العام، وهو في العادة غير معروف ويبقى بعيداً عن الأجواء الاجتماعية، كما ترسل المعلومات اليه وهو بدوره ينقلها الى موسكو، كذلك يتم اختياره بعناية فائقة من بين المتعاطفين مع

الحزب لتحاشي عملاء المخابرات العدوة الذين ربما يندسون بين أعضاء المجلس الأعلى بهدف جمع المعلومات .

وفي العادة يرسل المرشح سراً الى مدرسة الحزب العليا في موسكو حيث يتلقى تدريبات على المبادىء والسياسة وكيفية العمل السري، ويطلع على دوره المستقبلي وكيفية التقدم بسرعة . وفور انتهاء تدريبه يعود الى بلاده ويطلب منه تمويه ادعاءاته بحيث يبدو «عدواً» للشيوعية ودعاواها ليتسنى له اختراق الأهداف التي تجدها موسكو هامة لها . إذ ذاك تصبح حياته مزيجاً من الرومانسية والدينامية في آنٍ معاً .

وكما هو معلوم فثمة في كل سفارة سوفياتية ممثل عن القسم الدولي لمجلس السوفيات الأعلى، ويقدَّم هذا الممثل للأجانب على اعتبار انه مستشار مسؤول مهمته الحفاظ على الاتصالات مع الاحزاب الصديقة بما فيها الحزب الشيوعي المحلي .



لقد كانت الأوضاع التي أعقبت الثورة في ايران مختلفة تماماً. فبالرغم من إطلاق حرية الأحزاب السياسية بما فيها حزب توده الشيوعي على يد رئيس الوزراء «بازركان» فإن موسكو بقيت على شكوكها بمصداقية تعامل السلطة مع حزب توده ونظرتها اليه . لذا أوكلت الى ضباط المخابرات في الـ كي . جي . بي . مهمة القيام بالاتصال مباشرة مع الحزب . ولكن ليونيد لم يكن محبذاً لذلك فحذر من عواقب الاتصال بحزب شيوعي محلي في ظروف عدائية، ومُثِّل ذلك بمن يحفر قبره بيديه . وكانت الـ كي . جي . بي . موقنة من اختراق عملاء المخابرات العدوة للأحزاب الشيوعية المحلية، ورجحت فشل مثل تلك المهام . وقد كان ذلك من الأسباب التي جعلت ليونيد يتعامل بسلبية مع الأرمني الذي كان يتردد على السفارة بصفته ممثلاً لحزب توده . ولكن الأوامر التي تأتي من أعلى كانت صارمة وواضحة وبالتالي ملزمة بتنفيذ ما هو مطلوب دونما اعتراض أو استفسار.

بعد تقديم التقرير الى موسكو بخصوص الاتصال الأول مع الأرمني جاء

الرد موقعاً من القسم الدولي في الحزب وليس من القسم الثامن أو من رئيس القيادة العليا الأولى أو من رئيس الـ كي . جي . بي . كما هو متبع ، وقد نصَّ على متابعة تسلم الملاحظات من ممثل توده لنقلها على الفور الى القسم الدولي .

وباستمرار الاتصالات طُلب مني متابعة هذه المسألة رغم عملي المكثف في القسم (ان) في حين كان الكثيرون من الضباط الآخرين لا يقومون بأي عمل . وقدمت اعتراضاً بذلك الى ليونيد الذي وجه الي امراً بالتنفيذ . وعندما طلبت منه إشعار القيادة (اس) بالأمر لعلمي أنها لن توافق على الاتصال تمسك بالرفض أيضاً ، وكان من العبث مشاكسته ، مما اضطرني الى الاحتفاظ بحقي في تقديم تقرير الى القيادة العليا في موسكو عند ذهابي الى هناك .

كان الأرمني ممثل حزب توده يأتي الى القنصلية مرة كل أسبوعين ، وكان يحضر مستندات الايرانيين العائدين ، ومتخفياً بهذا الدافع كان يسلمني معلومات من كيانوري السكرتير العام لحزب توده مكتوبة بخط يده وقد تضمنت معلومات عن قضايا تنظيمية هي في الغالب مبهمة بالنسبة لنا ، إذ كان الأخير يستعمل شيفرة خاصة معروفة في القسم الدولي فقط ، وقد ذكر في إحداها على سبيل المثال : «مشروع جيهار بدأ بنجاح . . سوف نطلعكم على النتائج لاحقاً» .

إضافة الى القضايا التنظيمية كان كيانوري يتطرق في تقاريره الى الوضع السياسي في ايران ، وكان ذا اطلاع واسع على الأوضاع العامة ، ولكنه بقي متحفظاً في التقارير المتعلقة بالحزب الذي يرأسه فعمد الى إظهار الحزب على أنه قوة سياسية من الوزن الثقيل وأنه ذو تأثير كبير على مجريات الأحداث ، واستعمل ملاحظات تعبيرية مثل : «مصادر مقربة من الخميني» ، أو «مصادر مقربة من الرئيس» ، ولكنه لم يعط أسماءً حتى لو طلب ذلك منه .

وكان كيانوري يذكر أن شعبية حزبه في تزايد مستمر ، وان المجاهدين والفدائيين ينظرون الى قيادة توده على انها ذات الخبرة العريقة . أما الواقع فكان مختلفاً تماماً . فبعد عودة كيانوري الى ايران في نيسان / أبريل ١٩٧٩ اجتمع الحزب وأصدر قرارات قضت بتقديم الدعم التام للجمهورية الاسلامية ، وحتى انها قدمت بعض النظريات الثابتة في محاولة للتقريب بين الاسلام والماركسية في «المرحلة الحاضرة للتغييرات التاريخية» .

أعطيت هذه المستندات لنا لإرسالها الى موسكو ، الأمر الذي دفع أحد

ضباطنا الى العمل مطولاً في محاولة لترجمتها فبدت مطابقة للغة المتبعة في صحيفة «البرافدا».

وفي محاولة للتقرب من الحكم أعلن حزب توده تأييده للجمهورية الاسلامية، وهذا ما كان متفقاً عليه في موسكو، ولكن النتائج جاءت سلبية، إذ لم يأخذ أحد في ايران حزب توده على محمل الجد، ذلك أن عدد أعضائه مع عائلاتهم لم يكن يتجاوز الألفين، كما لم يكن للحزب أي وجود مسلح وهو لا يحظى بدعم أي من فئات الشعب. ومن ناحية أخرى فإنه لم يكن ليشكل أي تهديد للحكم باستثناء رعاية موسكو له. ولذا فإن السلطات لم تمسه لا من قريب ولا من بعيد، واكتفت بتجاهله وكأنه ليس له وجود.

كما أنه لم يكن لحزب توده أية صلة بالمجموعات اليسارية التي ذكرها كيانوري في تقاريره، إذ نظر المجاهدون والفدائيون اليه على انه «اليد الحمراء لموسكو»، إضافة الى أنه لم يحرك ساكناً في التحضير للاستيلاء على السلطة، لذا رفضت كلتا المنظمتين مزايدات توده المطالبة بقيادة اليسار واتهمتا الحزب بتأييد رجال الدين بغية الحصول على بعض المكاسب السياسية.

وبدوره رد حزب توده طارحاً الشعارات ذاتها التي أطلقها الخميني على الفدائيين والمجاهدين متهماً إياهم بعدم الولاء للسلطات.

وهنا بدأت بالظهور بوادر تشرذم اليسار، ولا سيما حينما طلب من المجاهدين والفدائيين تسليم أسلحتهم، ورفضت المنظمتان الانصياع. الأمر الذي أدى في نهاية المطاف الى رجحان كفة السلطة الحاكمة.

أما لماذا قدم حزب توده تقاريره غير الصحيحة، ولماذا لم يعرض الأوضاع على حقيقتها. . فذلك لأن زمام الأمور أفلت من يد موسكو. فالخطة تقضي بجمع صفوف اليسار تحت لواء توده لخلق جبهة يسارية قوية تكون معارضة للنظام الديني، وقد أبدت موسكو من جهتها استعداداً لتقديم المساعدات العسكرية والمالية للتيار اليساري حتى لو أدى ذلك الى نشوب حرب أهلية.

ولكن المسيرة تعرقلت نتيجة تسرع وعجرفة قياديي حزب توده الذين اعتبروا الرضوخ للمجاهدين والفدائيين نوعاً من المذلة. وبدأ العداء يتفاقم بين توده وسائر فصائل اليسار. وتسلمت الـ كي. جي. بي. تقارير ذكرت أنه عندما بدأت حملة التصفيات الجسدية لعناصر المجاهدين والفدائيين تبين أن لحزب

توده دوراً في مساعدة السلطات وإرشادها الى الشقق الآمنة التي استعملتها المنظمتان.

لقد تبين مدى الأثر الذي تركته العقلية السوفياتية المحلية على منهجية التفكير لدى القياديين والأعضاء في حزب توده نتيجة إقامتهم في الاتحاد السوفياتي، وترسخت في ذهنياتهم القناعات المماثلة التي تحولت الى ما يشبه المسلّمات «تريد السلطات أن تسمع ما تريد أن تسمعه» فكان هذا هو المبدأ السائد في عهد بريجينيف. ولماذا إزعاج العجوز؟ فقد يغتاظ للأمر. . ومن يدري، فربما يوقف المساعدات الحزبية. . ولأن حزب توده تحت إشراف الاتحاد السوفياتي، وعلى وجه الدقة هو خاضع للقسم الدولي فقد كان الأعضاء يتقاضون رواتبهم بانتظام من المجلس الأعلى مع تغطية كاملة لجميع المصاريف.

ولكن ما أثار استغرابي هو رفض موسكو تسديد نفقات بطاقات سفر دفعها أعضاء من الحزب في رحلات عمل، وكان الأرمني قد سلمني أُرُوم تلك البطاقات طالباً ارسالها الى الجهة المختصة، واكتشفت لاحقاً أن المال قد دفع، وعندها أيقنت أن ثمة قنوات اتصال أخرى لا علم لنا بها. وبعد عدة محاولات لمعرفة كيفية حدوث ذلك تبين لي الآتي:

إذ انه بالاضافة الى اتصالات حزب توده بالسفارة السوفياتية فقد كان ثمة اتصال بالبعثة التجارية السوفياتية في طهران وهي مكلفة من قبل القسم الدولي بتقديم الدعم المادي للأحزاب الشيوعية الأجنبية. ومن أجل ذلك أسست جماعة من حزب توده شركة تجارية للقيام بأعمال خاصة مع البعثة التجارية السوفياتية، وبهذه الطريقة كان يتم تمويل الحزب، كما أن توده كان يحصل على عملات أجنبية إضافة الى بضائع مجانية يعمل على بيعها في السوق. وكان ذلك يجري بشكل قانوني ودونما حاجة الى تلاعب بحيث بدا الأمر وكأنه تعامل تجاري بحت. من خلال هذه القناة تم دفع مصاريف السفر. وتعددت أشكال المساعدات فلم تقتصر على شكل محدد؛ فمن خلال الشركة الوهمية كان يتم تزويد صحيفة «ماردوم» الناطقة باسم توده بورق الطباعة.

كما كان ثمة طريقة أخرى استعملت للتمويل، وذلك عبر مساعدات خاصة للرفيق كيانوري، وكنت على علم بهذا الأمر كون جميع الاتصالات بهذا

الشأن تتم عبر مقر الـ كي . جي . بي . ، فكـان الأرمني يأتي بـالملاحظـة التي نقوم بترجمتهـا وارسـالها الى المجلس الأعلى ، وعنـد ورود الـرد عليهـا يترجم الى الفـارسيـة ويحول اليّ لأسلمـه بـدوري الى الأرمني . وفي إحـدى المرات سئل كيانوري عن الطريقة التي يفضلها ليتم تحويل المال اليـه فكـان رده : «أفضل الحصول على المال شخصياً لا عبر البعثة التجارية أو أي شخص آخر» . وبدا واضحـاً أن المال لن يـذهب الى الحزب وانما الى جيب السكـرتير العـام . وقـد ألمحت الـ كي . جي . بي . أكثر من مـرة الى الخطـر الـذي قـد ينتج في حـال معرفة السلطات الايرانية بأمر المساعدات السريـة ، غير أن مـوسكـو تجاهلت الأمر .

وفي سبيل الحصول على المال لم يكن كيانوري يهتم بالخطر الـذي قـد ينتج عن عقد الاجتماعات السريـة بين تـوده والـ كي . جي . بي . ، وكـان بـذلك يجازف بحياته وحياة من حوله من أعضاء الحزب طمعاً في الحصول على نصيبه من المساعدات . وفي مذكرة رفعها أعرب كيانوري عن عزمـه على زيـارة المانيـا الغربية في «رحلـة عمل» ، فطُلب منـا أن نسأل الـرفيق عن نـوع العملـة التي يريدها ، وجاء رد كيانوري متواضعاً : «بالمارك الالماني من فضلكم . . » . وبعد مدة وجيزة تسلمنا عبر الحقيبة الدبلوماسية مبلغ ثلاثين ألف مارك .

لقد تسبب ليونيد في توريط العديد من الضباط في عمليات حـزب تـوده ، مما مكن الكثيرين من الاطلاع على خلفيات ما كان يحدث من أمـور مشينـة ، الأمر الذي دفع الى الاشمئزاز من كيانوري ومن المستويات القيادية السوفياتيـة منها والأجنبية على حد سواء . وكان الجميع غـارقـاً في الفسـاد وقـد بـدا ذلك متفشياً في عالم الشيوعية وبتمويل من موسكو . ورغم أن هذه الحقيقـة لم تكن مفاجئة للكثيرين ، فإن وقعها لا بد أن يكون مختلفاً لدى البعض ، فثمـة فـرق بين أن تقرأ وقائع من هذا النوع في الصحف الغربيـة وأن يكـون لك دور عملي فيها . فالحادثة التي برزت في نيوزيلندا عندما اعتقل السفير السوفياتي من قبل جهاز الأمن المحلي أثناء تسليمه حقيبة مـلأى بـالمال الى أحـد أعضـاء الحزب الشيوعي هناك هي واحدة من تلك العمليات التي قد تكون «أمـوالاً خـاصـة بالرفيق . . » .

لقد كان لهذا الواقع أثره السلبي في قناعاتي ، وبالرغم من نشأتي على قيمـه فأنا لم أشعر بأية محبة نحو الشيوعية . ولكني وجدت نفسي داخل هذه الدوامة

التي أعمل فيها للمافيا العالمية. فالشيوعية الايرانية أمضت ثلاثين عاماً في الاتحاد السوفياتي ففهمت جيداً أسلوب المجتمع والجماعة المسيطرة هناك، وها هي اليوم في ايران تحاول الوصول الى السلطة لخلق مجتمع على غرار ذلك المجتمع، وهو ما سيدخل البلاد في الدوامة نفسها. قد يكون ذلك من شأن الايرانيين وحدهم. . أما أنا فأرفض أن أكون مشاركاً في ما أعتقده هداماً. وأخذت في معاقبة ضميري لانغماسي في هذه الوساخة.

لقد استمر حزب توده يعمل بالمنهجية ذاتها. وفي أيار / مايو ١٩٧٩ بدأت السلطات الايرانية حملة معادية للأميركيين، وانطلقت مظاهرات صاخبة في المدن الرئيسية مرددة «الموت لأميركا»، وطالب رجال الدين الولايات المتحدة بتسليم الشاه لمحاكمته. وكان الهدف الأساسي من هذه الحملة تحويل الأنظار عن الأوضاع الاقتصادية السيئة والتأكيد للشعب أن الجمهورية الاسلامية لا تخشى الدول الكبرى، فبدا ذلك شبيهاً «بالكلب الصغير الذي يتظاهر بالقوة فينبح في وجه الفيل».

وفي تقرير الى موسكو ذكر حزب توده أن الحملة المعادية للأميركيين إنما بدأت ونظمت من قبلهم، ولم يكن القسم الدولي ليأبه الى هوية المحرّضين، وكان همه الأكبر تبييض صفحته أمام اللجنة التنفيذية العليا للحزب الشيوعي.

في هذه الأثناء كانت التناقضات السياسية في ايران تتفاعل سريعاً. فبعد أن صعدت السلطات الايرانية حملتها في الصحف على المجاهدين والفدائيين راحت تفتعل الاعتداءات. وفي تموز / يوليو وآب / أغسطس ١٩٧٩ تبادلت منظمتا المجاهدين والفدائيين اطلاق النار مع الحرس الثوري، فأخذت السلطات حذرها من المجموعات المسلحة التي كان غالبية افرادها من الشبان، وتعاملت مع الواقع بروية، فقامت بمهاجمة مراكز تجمعهم في المقاطعات الى أن هدأ الوضع. ثم راحت تنتظر ردة فعل قادة المنظمتين، ولم يكن الرد عسكرياً بالرغم من تباين الآراء بين القادة. عندئذ أقدمت السلطات على الخطوة التالية وهي محاصرة مندوبي المجاهدين في المدن القريبة من طهران. ولكن لم يصدر أي رد فعل أيضاً. وأخيراً حاصر الحرس الثوري المقر الرئيسي للمجاهدين والفدائيين في طهران، وطلب من القادة اليساريين إخلاء مواقعهم بحجة أن وجودهم في المباني غير قانوني. ولم يجر اعتقال أحد. ولم

يعد أمام هذه الجماعات غير العمل سراً كما كانت الحال في عهد الشاه.

ولقد أدت اجراءات السلطة ضد اليساريين الى تصعيد الخلاف بين رجال الدين. وكما ذكرت سابقاً، فإن أولاد آية الله طالقاني كانوا أعضاءً في منظمة الفدائيين وقد أُوقفوا من قبل الحرس الثوري بتهمة حيازة أسلحة ينقلونها بسيارتهم ذات ليلة الى إحدى الشقق الآمنة. وقد أثار الأمر غضب طالقاني الذي طالب بإطلاق سراح أبنائه. وعندما رفض طلبه تخلى عن جميع المناصب الذي كان يتولاها ثم غادر الى منطقة طالقان حيث أعلن الاعتصام. وكاد هذا الموقف من قِبَل أبرز الشخصيات في البلاد أن يؤدي الى وضع السلطات في موقف سيء، فأرسل الخميني ممثله الخاص الى طالقاني لاسترضائه وليطلب منه العودة الى طهران.

وبعد عودته بعدة أيام ظهر طالقاني على شاشة التلفزيون وهو يلقي خطاباً اعتذر فيه عن الضرر الذي ألحقه بمسيرة الثورة الاسلامية نتيجة اعتصامه وأشار الى أنه قدم قلبه للخميني وأنه ما زال على العهد. . كان المشهد مذلاً ومؤلماً في آنٍ معاً. . فقد وجدوا طريقة لإسكات الصوت الحر. وبدا لي ذلك شبيهاً باعترافات رفاق لينين في الكفاح خلال المحاكمات التي أجراها لينين في الثلاثينيات.

وبالرغم مما حدث فقد ظلت موسكو تنظر الى طالقاني باعتباره القائد المعارض بين رجال الدين، وقررت الاتصال به، وطُلب من فينوغرادوف الاجتماع به لمعرفة الاجواء.

وهكذا كان. .

تم الاجتماع في العاشر من أيلول / سبتمبر ١٩٧٩، وقد دام ساعتين. وعاد السفير بعد ذلك متفائلاً بالنتائج. وفي صبيحة اليوم التالي سُدّدت الضربة. . فقد أعلن عن وفاة آية الله طالقاني. وطبقاً لأقوال المراجع الطبية الخاصة فإن الوفاة حدثت نتيجة تسمم، ولكن الصحف ألمحت الى أنها حدثت على الفور عقب الاجتماع بالسفير السوفياتي. وانتشرت الشائعات في أنحاء البلاد بأن فينوغرادوف هو المسؤول عن الفاجعة لوَخْزِه طالقاني بخاتم مسمم عند مصافحته.

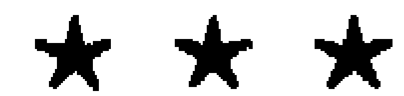
وبالرغم من أن تلك الشائعات هي ضرب من الهُراء فإن الايرانيين نظروا

اليها بجدية . ومنذ ذلك الوقت قبع فينوغـرادوف في مقـر السفـارة وأصبح لا يغادره الا نادراً وبرفقة مسلح من حراس الأمن .

كما غدا سؤال الأجـانب لنـا في ذلك الحين : «متى ينـوي سفيركم الاجتماع بالخميني؟» .

وبعد أيـام علمنـا من مصـادرنـا الخاصـة ببعض الظـروف التي أحـاطت بالحادثة قبيل الوفاة . فبعد الاجتماع الذي تم مع السفير في الصباح بدا طالقاني مرتاحاً ، ولكنه بعد تناوله طعام العشاء في المساء انهار فجأة فأسرع اليه حراسه وحاولوا الاتصال بالطبيب ، ولكنهم وجدوا أن خط الهاتف قد قطع ، فأسعفوه ببعض الماء . . غير أنه ما لبث ان فارق الحياة .

لقد فكر معارضوه في اتخاذ كل الاحتياطات الدقيقة . . وكـالعـادة في مثل هذه الظروف يُعمل على إخفاء الخلافات وتعلن الدولة الحداد لأيام معدودة .



أحياناً كانت تصلنا من موسكو بعض التقارير عن الأوضاع السياسيـة في ايران وكذلك عن المنطقة والعـالم . وفي العـادة تـدوّن مـلاحظـة «الى مـوظفي السفارة» . وكـانت هـذه البرقيـات مملـة وعـاديـة . ولكن في خـريف ١٩٧٩ وخلال اجتماع عام قرأ علينا ليونيد برقية مختلفة تمامـاً عن سـابقـاتها . . وجـاء فيها :

«إن حالات التدهور المستمرة والظروف العامة تهدد بنشوب كارثـة نووية . فالسلطة الحاكمة في الولايات المتحدة الاميركيـة تخطط لضربـة نووية ضد الاتحاد السوفياتي وحلفائه . ولذا فإن ثمة حشوداً عسكريـة وتحضيراً للاعتداء .

ولهذا السبب تطلب قيادة الـ كي . جي . بي . في الاتحاد السوفياتي من عناصرها توجيه اهتمامهم المخابراتي الخاص الى النواحي العسكرية الاقتصادية والى التحضيرات التي تقوم بها الولايـات المتحـدة الاميركيـة بالإضافة الى التركيز على العمل المخابراتي على الساحة السياسية .

يجب على الجميع اللجوء الى مصادرهم للحصول على المعلومات وبذل جهودهم لتلبية ما يطلبه منهم المركز دون وضع سلامتهم الخاصة في المقام الأول» .

الامضاء : سفيريدوف

(اسم رئيس الـ كي. جي. بي. المستعار)

ماذا . . ؟! . . حرب؟!

ماذا . . الولايات المتحدة الاميركية تحضر لحرب نووية؟!

بعد الانتهاء من قراءة البرقية بدا ليونيد مرتبكاً . وانهالت عليه الأسئلة . وورد قائلاً : «انه سيتعين علينا القيام بالمهام ذاتها التي ينبغي على مخابرات الجيش اتباعها من ناحية التركيز على المعلومات العسكرية الاقتصادية» .

ولكن ، لماذا التحضير للهجوم؟ . . فليس في الأفق ما يدل على تدهور في العلاقات السوفياتية الاميركية؟! ونحن في ايران على اطلاع بما يجري في العالم . ولكن تعليمات موسكو قضت بتنفيذ الأوامر.

كان واضحاً أن أحدهم في موسكو طلب معلومات عن التهديدات الاميركية للبدء بحملة سلام لمنع خطر اندلاع حرب نووية . في هذا الوقت كان الوضع الاقتصادي السوفياتي في حالة تدهور مستمر، وحصل نقص في المواد الغذائية والاستهلاكية . ومن جهته كان الحزب يقود حملة إعلامية «لماذا تريدون الزبدة واللحم والعالم بأكمله يقف على عتبة حرب إفناء . . . علينا توحيد جهودنا وقوانا وإمكاناتنا لمنع وقوع الكارثة . . وبعدها نعود لنفكر في الاحتياجات الأخرى» .

ولكن الشعب لم يأخذ الأمر جدياً ، كما لم يهتم للأمور السياسية بقدر مطالبته بالمواد الغذائية .

أما في الغرب فقد تظاهر الناس مطالبين بالمحافظة على السلام . ونشطت المخابرات هناك بحثاً عن عملاء الـ كي . جي . بي . الذين نظموا المظاهرات . ولكن محاولاتهم لم تجد نفعاً ، إذ لم يكن للـ كي . جي . بي . أي دور في ذلك . وكان القسم الدولي هو من خطط لذلك وكانت الاحزاب الشيوعية المحلية في الغرب الجهة المنفذة .

كذلك عمت المظاهرات ايران فندد المتظاهرون بالاميركيين، وقد احاطت الجماهير بالسفارة الاميركية في طهران لعدة أيام. وبدا الأمر حصاراً حقيقياً، إذ ما لبثت أن بدأت الخطب تلقى على المتظاهرين من قبل تلاميذ الخميني.

أما التفاصيل عن حصار السفارة فأصبحت معروفة لدى الجميع. . وقد ذكرها المخطوفون أنفسهم. . ولذا فليس ثمة من داعٍ لذكرها هنا.

لقد تمت عملية محاصرة السفارة واحتجاز الاميركيين بناءً على أوامر من القيادة الايرانية ونفذتها فيالق الحرس الثوري، ولم يكن هؤلاء من الطلبة كما ورد في الصحافة الغربية وإن بدا ذلك صحيحاً عند بداية الهجوم حيث ظهر بعض الأفراد الأصوليين الى جانب المقتحمين.

ففي اليوم التالي ٢٥ تشرين الثاني / نوفمبر حوصرت السفارة البريطانية، وكان ذلك مجرد عمل فردي قام به بعض الشبان الطائشين الذين طردهم الحرس الثوري بعد ست ساعات مخلفين وراءهم خراباً فادحاً.

في ذلك الحين ألغت الحكومة الايرانية البندين الخامس والسادس من المعاهدة الايرانية السوفياتية الموقعة سنة ١٩٢١ والتي وافقت فيها حكومة لينين على تسليم كل امتيازاتها في ايران الى الحكومة الايرانية، مع الاشارة الى أن المعاهدة لم تنص على فترة محددة. وقد ورد في البندين الخامس والسادس أنه يحق لكلتا الدولتين إرسال قواتهما الى البلدين في حالة ما إذا شكل الوضع عدم توازن القوى، إذ ان دخول قوات سوفياتية الى ايران هو الأرجح، وبالتالي سيكون أكثر احتمالاً من دخول قوات ايرانية الى الاتحاد السوفياتي.

ولم تأبه السلطات السوفياتية للقرار الايراني، واعتبرت أن المعاهدة لا تزال سارية المفعول. وكان واضحاً أن القيادة الايرانية قلقة من جيرانها في الشمال. وهذا الواقع أعطانا الثقة أنهم لن يقوموا على أي عمل ضد السفارة السوفياتية.

لقد أوجد حصار السفارة الأميركية في طهران حالة من الضياع في موسكو التي اعتبرت في الماضي أن الخميني هو أداة للامبريالية الاميركية، وأن حملاته المعادية لا تعدو كونها شكلية «فالنابحون لا يعضون. . ولكن هذا الكلب النبّاح عضّ، وعضّ بقوة».

بعد التهديد الاميركي باللجوء الى الخيار العسكري ضد ايران بادر الاتحاد السوفياتي الى التحذير من أي عمل يشكل تهديداً لحدوده الجنوبية، مشيراً الى

ما سينتج عن ذلك من مواجهة بين الدولتين، ومطمئناً في الوقت نفسه ايران بحمايته لها بطريقة غير مباشرة.

لقد تعامل السوفيات مع أزمة الرهائن بطريقة أعطت الايرانيين حرية التصرف. . . ولكن تبين لاحقاً أن المفاجآت الايرانية كانت دوماً متوقعة.

أما رد الاعلام الاميركي فكان عنيفاً، وتعامل مع الايرانيين والسوفيات على حد سواء. وقد اتهمت الصحف الاتحاد السوفياتي بأنه وراء الثورة في ايران، وأنه زود الايرانيين في أذربيجان وبلوخستان بالسلاح، كما أن حزب توده كان له دور في عمليات التحريض، وبالتالي وُجّه الاتهام الى السوفيات بتزويد نظام الخميني بالأسلحة والعتاد وبتدريب قوات الأمن الايرانية من قبل الـ كي. جي. بي.

وهكذا لم تقصّر الولايات المتحدة الاميركية في تلفيق الأخبار. . ولكن ذلك لم يثمر شيئاً، بل زاد في تأزم العلاقات بين ايران والولايات المتحدة، الأمر الذي دفع النظام الجديد الى التقرب من موسكو.

ولقد كان الأمر مشوقاً لنا في الـ كي. جي. بي. لرؤيتنا اندحار الاميركيين في ايران. وكان اعلامهم قد خلق لنا دوراً بارزاً من جديد. ولكن لا بد من الاعتراف أن الوقائع كانت معروفة فقط لدينا. . غير أننا فضلنا التزام الصمت، أما مخابرات الجيش والدبلوماسيون العاديون فاعتقدوا بأن ما حدث هو ثمرة نجاح الـ كي. جي. بي. وهو ما بَوَّق به الاعلام الاميركي.

الفصل الخامس عشر

تذمر قطب زاده ـ شركة سوفيك سبورفيلم

في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٧٩ عين صادق قطب زاده وزيراً للخارجية، وكان قد برز من قبل في الصحف العالمية على اثر مغادرته الولايات المتحدة والتحاقه بحاشية الخميني في باريس، كما كان قد توجه في الستينيات الى اميركا لاستكمال تحصيله العلمي فجذبته المعتقدات اليسارية في الكلية المتغلغلة بين الطلبة الايرانيين في الخارج. وهناك تلقفته مخابرات الجيش السوفياتي عن طريق أحد ممثليها في ذلك الحين الذي كان يرصد مَن يمكن «تصيُّده» من بين الطلبة اليساريين.

لم تكن هناك أية عقبة في تجنيد قطب زاده الذي بدا مستعداً للتعاون مع الاتحاد السوفياتي والشيوعية العالمية. ولكن سرعان ما نشب الخلاف بينه وبين مخابرات الجيش، إذ طُلب منه البقاء في الولايات المتحدة بعد إنهائه دراسته. وكان هدف المخابرات تأمين عميل على معرفة جيدة بالبلاد العدوة. غير أن قطب زاده رفض البقاء لعزمه على إكمال دراسته في الاتحاد السوفياتي. وفشلت كل المحاولات لثنيه عما عزم عليه، وعندما يُئس من إقناعه عمدت المخابرات الى التلويح بعصا التهديد. واستفحل الخلاف الذي أدى في النهاية الى رفضه المضي في التعاون مع المخابرات. وبذلك وضع قطب زاده نهاية لهيامه بالشيوعية السوفياتية فبقي في الولايات المتحدة الى أن حانت أمامه الفرصة للانضمام الى حركة الخميني.

منذ أيامه الأولى في وزارة الخارجية أعرب قطب زاده عن تذمره من السياسة السوفياتية، وقد أتته الفرصة للرد على الاهانة التي تعرض لها على يد المخابرات السوفياتية. ففي حين كان رجال الدين يقودون حملة عشوائية على الاميركيين

قاد قطب زاده حملة مماثلة على الاتحاد السوفياتي بدأت بمهاجمة الدبلوماسيين من خلال تصريحاته الصحفية التي كانت على جانب كبير من الخطورة.

لقد بدأ قطب زاده بإثارة قضية أوضاع الممثلين السوفيات في ايران، وتساءل عن أسباب تمتعهم بالامتيازات وعن معنى وجود مركزين للقنصلية السوفياتية. كما أثار موضوع الموظفين في السفارة الذين كان يفوق عدد موظفي السفارة الايرانية في موسكو، فطالب أن يكون التعامل بالمثل. الأمر الذي أقلق موسكو ودفعها الى اجراء اتصالات معه بغية استرجاعه عميلاً لها. غير أن قطب زاده أقفل هذا الموضوع نهائياً، ولم تأت الاتصالات بنتيجة ايجابية.

وعلى عكس ما كان يؤمل عمد قطب زاده خلال توليه منصب وزارة الخارجية الايرانية الى إطلاق تصريحات متتالية دان فيها التدخل السوفياتي في افغانستان مهدداً بفضح العلاقة السوفياتية بحزب توده التي كانت تتم عبر البعثة التجارية في السفارة. وما لبث في عام ١٩٨٠ أن طالب بخفض عدد الدبلوماسيين السوفيات في طهران الى ثلاثة عشر.

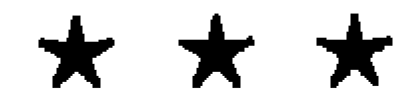
ولم تجد السفارة مناصاً من بحث المسألة التي أثارها قطب زاده. وبعد التداول مع مسؤولي وزارة الخارجية والـ كي. جي. بي. ومخابرات الجيش تقرر خفض العدد الى المستوى المطلوب في مختلف القطاعات، فتم ترحيل الضباط الذين شغلوا مناصب شكلية ولم يكونوا يقومون بأعمال حيوية.

لقد أثارت تلك التصرفات استياء السلطات في الاتحاد السوفياتي فاعتبرتها من الأمور التي يصعب ابتلاعها يرغمها على تقبلها وزير خارجية دولة صغيرة مجاورة. ولذا صدرت التعليمات من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي الى الـ كي. جي. بي. بضرورة بذل الجهود لإبعاد قطب زاده عن وزارة الخارجية. وفي آب / أغسطس ١٩٨٠ أقصي قطب زاده وأقيل من منصبه بصورة مفاجئة. غير أن ذلك كان أكثر من مفاجأة للـ كي. جي. بي. التي لم تكن ضالعة في الأمر. وبالرغم من إزاحة قطب زاده عن الساحة السياسية فإن تعليمات اللجنة المركزية ظلت على حالها، وبدا ذلك كنوع من العقاب. وقضت التعليمات بتلفيق رواية مفادها أن قطب زاده هو عميل للـ سي. آي. اي. وتسريبها الى السلطات الايرانية، واستعين بحزب توده لتحقيق هذه الغاية.

أما إقناع السلطات في ايران بعمالة قطب زاده فلم يكن بالأمر الصعب،

ولا سيما أنه كان مثار شك لكونه أمضى سنوات عديدة في الولايات المتحدة الاميركية. وفي نيسان / أبريل ١٩٨٢ تم اعتقاله بتهمة التحضير لمؤامرة ضد النظام. غير أن الـ كي. جي. بي. لم تكتف بهذه النتيجة بل استمرت في ملاحقتها له الى أن تمكنت من دقّه بـالمسمار الكبير، فقد رتبت أمر توريطه بطريقة بدت طبيعية، إذ أعدت رسالة في موسكو بالشيفرة العادية يسهل حل رموزها على أساس أنها صادرة من الـ سي. آي. اي. الى عميل لها في طهران دون تحديد اسم العميل، ولكن كان من الواضح انها موجهة الى شخصية غاية في الأهمية. وضعت الرسالة تحت جهاز هاتف قريب من محطة للوقود في شارع تبنده شمالي طهران، وكلف ضابط من قبلنا يتكلم الفارسية ومن دون الكشف عن هويته بالاتصال بوحدة المتفجرات ليبلغ عن ملاحظته شخصاً مثيراً للشبهة وهو يضع شيئاً ما تحت جهاز الهاتف. وقد حدد الضابط الموقع، وكانت التفجيرات في محطات الوقود شائعة في ذلك الحين. أسرعت الأجهزة المختصة في التوجه الى المكان لتتلقف تلك الرسالة المدسوسة.

لقد تمكنت الـ كي. جي. بي. هذه المرة من إصابة الهدف بإحكامها نصب الفخ. وكان قطب زاده الطريدة الضحية، فأعدم رمياً بالرصاص في ايلول / سبتمبر ١٩٨٢.



«سوفيكس فيلم» شركة تتعاطى ظاهرياً بيع الأفلام السوفياتية، ولها مكاتب منتشرة في العديد من البلدان. وفي الحقيقة كان ذلك مجرد غطاء لأنشطة ضباط مخابرات الجيش، وقد بقي هذا الوضع سارياً حتى سنة ١٩٧٧، ولم يكن ذلك خافياً على السافاك التي عملت على الإيقاع بواحد من الضباط كان يعمل في الشركة، وذلك عن طريق ممثلة ايرانية على جانب كبير من الجمال. وقد تمكنت السافاك من توريطه وضبطه في محيط الشركة وسرواله مخلوع، وكان الهدف إجبار الضابط على التعاون معها، لكنه رفض وأبلغ الأمر الى مسؤول الـ كي. جي. بي. في السفارة، مما استدعى ترحيله الى موسكو على متن أول طائرة.

نتيجة لذلك عينت مخابرات الجيش «الكسي جوسينوف» مكان الضابط السابق. وجوسينوف هذا أذربيجاني عاش في موسكو وعمل استاذاً في المعهد الآسيوي الافريقي لتدريس تاريخ الفن التركي. وكان قصير القامة، حسن المظهر، دائم الابتسام، ويغلب على سلوكه التهذيب، وهو بالرغم من تخطيه سن الخمسين فقد كان يبدو فتياً.

في البداية لم تثر تصرفات جوسينوف أية شكوك. ولكن الشائعات ما لبثت أن انطلقت. وبدأت الأقاويل تتحدث عن اسرافه في إنفاق الأموال، ومثل هذا الموضوع سريعاً ما يُلاحظ ويغدو موضع لَغَط بين أفراد الجالية السوفياتية في الخارج. إذ لم تكد تمضي ستة أشهر على وجود جوسينوف في ايران حتى تمكن من اقتناء الفراء والماس لزوجته وابنته، وكان ما يصرفه يتجاوز بكثير دخله القانوني. غير أنه لم يأبه للأمر كما لم يعر الشائعات أي اهتمام.

وكان لجوسينوف سكرتيرة على علاقة بزوجة الملحق العسكري في السفارة، وقد أبلغتها الأولى عن شكوكها في ما يحدث من صفقات مشبوهة في شركة سوفيكس، وأن جوسينوف يخفي عنها عقود بيع أشرطة الأفلام التي يبرمها مع الأجانب. كما لاحظت عن غير قصد منها وجود رزم من الدولارات في خزنته إضافة الى عملات اوروبية غير مسجلة في الحسابات. وقد ارسلت زوجة الملحق بلاغاً بما عرفته من السكرتيرة الى مقر الـ كي. جي. بي.

على الأثر تولى ليفاكوف ضابط الأمن مهمة إجراء تحقيق في الموضوع. وتبين أنه بعد وصول الكسي جوسينوف الى طهران اكتشف في إحدى غرف نادي السفارة ما يعتبر منجم ذهب، إذ أن ثمة كميات كبيرة من أشرطة الأفلام أُرسلت على مدى سنوات الى السفارة في ايران لتمكين أفراد الجالية السوفياتية من مشاهدتها بهدف الترفيه عنهم. ونظراً لكون تلك الأشرطة مخصصة للعرض داخل مقر السفارة فقط فهي لم تخضع للرسوم الجمركية، وبالتالي لم تكن لتحظى باهتمام الايرانيين، كما لم تكن موضوعاً ذا بال بالنسبة للجهة التي أرسلتها من موسكو. وهكذا قبعت تلك الأشرطة في مكانها سنوات عديدة.

أما مهمة الاشراف على شؤون النادي فكانت موكلة الى ممثل اللجنة المركزية للاتحادات التجارية السوفياتية، وكان هذا المنصب هشّاً وغير ذي جدوى. وكل ما كان يقوم به الممثل هو خلق أجواء للتسلية المتنوعة بغرض الترفيه عن أفراد الجالية السوفياتية والحصول على اشتراكاتهم. والمسؤول عن النادي اسمه

فالنتين ستيبنوفيتش سولوشنكو.

راح الكسي يتقرب من فانتين ويدعوه لمشاهدة أفلام الجنس وتناول الكحول الى أن أصبحا صديقين حميمين. وعندما طلب منه إذناً لإلقاء نظرة على الأفلام القديمة لم يخبره عن حقيقة ما يجول في رأسه، وإنما عزا ذلك الى أسباب محض علمية.

اختار الكسي الأفلام الجيدة واصطحبها معه الى مبنى شركة سوفيكس فيلم حيث راح يبيعها دون تسجيل أو إيصال، وكانت من الكثرة بحيث لم يعد يذكر كم بلغ عددها.

واستمر جوسينوف في عملية نهب الأشرطة وبيعها دون أن يعلم بأمر التحقيق الذي كانت تجريه الـ كي. جي. بي. وكان في نيته شراء سيارة مرسيدس.

في هذا الوقت رفع تقرير بالمسألة الى موسكو. وهنا يجب الاشارة الى أن السفير وممثل اللجنة المركزية للحزب كانا على علم بأمر التحقيق منذ البداية، ولكنهما هذه المرة لم يقفا مع خارج على القانون كما درجت عليه العادة. ولقد كان اليكسي غبياً وجشعاً لدرجة أنه لم يشعر بالحاجة الى اتخاذ الحيطة بشرائه الحماية. ولذا فإن السفير كسر القاعدة مستشهداً بالقانون: «أجل.. يجب علينا قمع هذه الأمور»، وأمر بفتح خزنة الكسي أثناء غيابه. وقد تم ذلك أمام شهود عيان حيث عثر على رزم من الدولارات الاميركية والماركات الألمانية، وقد عمل على عدّها وتصويرها لترسل مع إفادات الشهود الى موسكو. إذ ذاك غمرت الفرحة ضابط الأمر، فالقانون وضع يده أخيراً على لص واحد على الأقلّ.

ولكن، ما الذي حدث بعد ذلك؟

ربما يعتقد القارىء أن الـ كي. جي. بي. وضعت في يديه الأصفاد واقتادته الى مكان ما ليكون مصرعه بعيداً عن الأعين.. وهو ما كانت تصوره المبالغات في الغرب. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. وعندما فوتح الكسي بالموضوع راح يتهجم على الجميع ولا سيما الـ كي. جي. بي. متهماً إياها بالعمل على الإيقاع به، وذلك بتعمدها وضع الأموال في خزنته. ثم كتب الى اللجنة المركزية للحزب شارحاً ذلك ومستعرضاً تاريخه كمحارب قديم.

وكانت النتيجة تركه حراً طليقاً دون اتخاذ أية عقوبة في حقه .

لقد حدثت أمور مشابهة في بلدان أخرى غير ايران، وأعطي مثلاً على ذلك قضية أركادي شيفشينكو النائب السابق للسكرتير العام في الأمم المتحدة الذي قرر اللجوء الى الأميركيين. وقد عرض في كتابه كيف أنه اختفى عن انظار الـ كي. جي. بي. بعد افتضاح تصرفاته المشبوهة في نيويورك، وكيف رُفع تقرير في موضوعه الى موسكو قبل سنة أشهر من هربه. وبيّن كيف أن موسكو لم تتخذ أي إجراء. لقد كان الأمر واضحاً: «اتركوا شيفشينكو وشأنه». وكأنّ كل ما هو مطلوب عمله من الـ كي. جي. بي. مع شخص في منزلة شيفشينكو إطلاع موسكو على تصرفه وحسب.

هذه القضية علمت بها من الجنرال دروزوف نفسه الذي تولى رئاسة الـ كي. جي. بي. في نيويورك والذي غدا بعد ذلك رئيساً للقياد (اس) في موسكو بعد انتقاله اليها.

كذلك علمت من الجنرال دروزوف كيف أن الـ كي. جي. بي. نفضت يدها من متابعة تلك القضية عندما وجدت لامبالاة موسكو بها.

وبعد لجوء شيفشينكو الى الولايات المتحدة لم يعد ثمة من يطرح اسئلة سخيفة مثل: «ماذا كانت تفعل الـ كي. جي. بي. ؟».

الجزء الرابع

ماذا كان فعل الرفيق لينين ؟

الفصل السادس عشر

افغانستان ـ الغارة على القصر الرئاسي

في الثـامن والعشرين من كـانـون الأول / ديسمبر ١٩٧٩ أرسل الاتحاد السوفياتي قواته الى أفغانستان، وتسنّى لي بحكم موقعي مراقبة تطورات الأزمـة بشكل أكثر دقـة، وقـد أطلعني عمـلاء الـ كي. جي. بي. على آخـر المستجدات هناك، كما أن وجودي في ايران مكنني من تكوين رؤية أوضح عن تلك التي كانت تعتمد على وجهات نظر المحللين الغربيين.

وكما هو معروف فإن موقع افغـانستـان الاستراتيجي والجغـرافي كـان سببـاً للنزاع السياسي بين كل من بريطانيا وروسيا لسنوات عديدة. ففي الحين الذي كانت فيه بريطانيا تعمل على إبقاء النفوذ السوفياتي بعيداً عن حدود افغانستان فإن السوفيات بدورهم كانوا ضد أي وجود لـلإنكليـز في أواسط آسيـا. ولـذا حرصت الحكومات السوفياتية المتعاقبـة على أن تكـون العـلاقـات جيـدة مع افغانستان التي كانت سباقة الى الاعتراف بحكـومـة البلشفيك في روسيـا عـام ١٩١٩.

وبتسلم نادر شاه العرش في أفغانستان عام ١٩٢٩ قوي نفوذ البريطـانيين في البلاد، وكان سبق لهؤلاء أن قاموا في أواخر القرن التـاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين بعدة محاولات للسيطرة على البـلاد بـالقـوة، ولكنهم لم يحققـوا نجاحاً. وفي المقابل استفاد الاتحاد السوفياتي نتيجة علاقاتـه الجيـدة ومـوقفـه الصديق من الشعب الأفغاني. ولقـد أبـرم البلـدان عـام ١٩٦٠ معـاهـدات اقتصادية وعسكرية زود السوفيات بموجبها افغانستان بالسلاح، وكـذلك تم إرسال خبراء عسكريين، ومن جهة أخرى قام محمد ظاهر شاه بزيارات عديدة الى الاتحاد السوفياتي. ونتيجة لهذه الظروف الايجابية فقـد كـان من الطبيعي أن ينشط الحزب الشيوعي الافغاني في افغانستان. وبالتالي أمكن للنفوذ اليسـاري

أن تكون له اليد الطولى داخل المؤسسة العسكرية . وكذلك أتيحت الفرصة للـ كي . جي . بي . ولمخابرات الجيش السوفياتي لمزاولة أنشطتهما في الوقت الـذي كانت افغانستان تفتقد وجود أجهزة أمن لحماية الدولة .

على ضوء هذه المعطيات قام ابن أخ الملك «محمد داود» بانقلاب عسكـري بمساعدة القوات اليسارية في الجيش ترك على اثره عمه البلاد وتسلم هو زمـام السلطة . وكـان شخصـاً طمـوحـاً فعمل على تحسين العـلاقـات مع كل من باكستان وايران البلدين المجاورين . وفي سنة ١٩٧٧ تقدم محمد داود من شـاه ايران محمد رضا بهلوي حينذاك بطلب مساعدة مالية لإنشـاء طـريق حـديثـة تصل بين ايران وباكستان مروراً بأفغانستان ، فـوافق الشـاه ولكنـه اشترط على داود التخلص من الحزب الشيوعي الأفغاني .

وفي بـدايـة ١٩٧٨ قبض محمـد داود على قـادة الحزب المذكـور فأودعـوا السجن ، ولكن ذلك لم يحل دون اضطـلاعهم بتحـريك الأحـداث خـارج معتقلهم . وعنـدمـا أيقنـوا بعـزم داود على تصفيتهم قـرروا العمل على تـدبير انقلاب عسكري ، وأطلعوا السفير السوفياتي في كابول على مخططهم .

تريثت موسكو وطلبت من سفيرها «انتهاج سياسة حذرة وعدم التورط بأية وعود ، وأن لا تتجاوز العلاقة إطارها العام ، على أن يُتْرك للحزب اتخاذ القـرار الذي يراه مناسباً» .

في السابع والعشرين من نيسان / أبريل ١٩٧٧ هاجمت طائرات ودبابـات الجيش الأفغاني قصر الرئاسة في كابول ، فسقط بعـد معـركـة قصيرة ، واعتقل داود مع أفراد عائلتـه وأعـدمـوا . وتسلم الشيـوعيـون الحكم . هنـا لا بـد من الاشارة الى أن أياً من المنظمات السوفياتية بما فيها الـ كي . جي . بي . لم يكن لها أي دور في الانقلاب . وفجأة تغيرت السيـاسـة الحذرة التي أوصت مـوسكـو بانتهاجها .

غير أن المشكلة برزت في انقسام الحزب الشيوعي الأفغاني على نفسه . ففي حين كان حزب «كلخ» ـ الشعب ـ بزعامة نور محمد طارقي ذا وجهة سوفياتيـة يمَّمَ حزب «بارشام» ـ الراية ـ وجهه شطر الصين .

إزاء هذا الوضع لجأت اللجنة المركـزيـة للحـزب الشيـوعي السـوفيـاتي الى التعامل مع كل من الحزبين بطريقة مختلفـة ، فطلبت من الــ كي . جي . بي .

ومن مخابرات الجيش الامتنـاع عن تجنيـد العمـلاء داخل صفـوف «كلخ» مع إبقاء الرقابة عليه. ومن ناحيـة أخـرى طلبت من الـ كي. جي. بي. العمل على تجنيد الأفراد من حزب «بارشام» وردهم الى الحظيرة السوفيـاتيـة. ولم يكن تجنيد هؤلاء بالأمر الصعب على اعتبار أن اتجاههم الظاهري نحو الصين قصد به ابتزاز موسكو للحصول منها على المعاملة الأفضل.

ولقد صدق حدس اللجنة المركزية، فقد جنّد قادة حزب «بارشـام» جميعـاً بمن فيهم بيراك كرمـال نفسـه وحصلت الـ كي. جبي. بي. على الكثير من المعلومات منهم. وكذلك تمكنت القيادة السوفياتية من إقناع الطرفين بتشكيل حكـومـة وفـاق تمثلهما معـاً. غير ان الخلاف دار حـول من سيتـولى رئاسـة الحكومة. لذلك طلبت اللجنة المركزيـة في مـوسكـو من الـ كي. جي. بي. تقديم تقرير شامل عن كل من «طارقي» و «كرمـال» تبين في ضـوئه أن الأخير هو الأنسب والأقرب الى السوفيات، بينما ذكر التقرير أن «طارقي» عنيـد وغير متسامح وبالتالي فهو سريع الغضب إضافة الى صعوبة التعامل معه. وبالرغم من ذلك وقع اختيار اللجنة المركزية على «طارقي» نظراً لكـونـه معـروفـاً لـدى أعضاء اللجنة، وباعتباره مقاتلاً ذا نزعـة سـوفيـاتيـة. وهكـذا رجحت كفـة طارقي نتيجة قرار من سوسلوف المسؤول العقائدي في الحزب وصـاحب التأثير القوي في اللجنة المركزية الذي يفوق نفوذه بريجينيف والسكرتير العام.

وهكذا تدفق الخبراء السوفيات على افغانستان وتغلغلوا في الآلة الحزبية وفي الوزارات الحكومية، وأوكل الى كل من الـ كي. جي. بي. ومخابـرات الجيش مهمة تنظيم الشرطة وأجهزة الأمن. أما طارقي فقد نحا الى التصرف على هـواه منذ البداية فكان متطرفاً الى حد العناد، كما وصفتـه الـ كي. جي. بي.، ولم يلتفت الى النصائح التي كـانت تـوجـه اليـه. وقـد راح يعيـد تنظيم الأراضي فاستولى على الممتلكات الدينية وتلك الخاصة بالاقطـاعيين، ولكنـه بـدلاً من تـوزيع الأراضي على الفـلاحين حـوّلها الى مـزارع اشتراكيـة على غـرار مـا فعل السوفيات في السابق. وبالرغم من محاولة المستشارين السـوفيـات تنبيهـه من الوقوع في الأخطاء السوفياتيـة فقـد بقي مصراً على بنـاء الشيـوعيـة كما علمهـا ماركس ولينين. ولم يوافق على تقـديم تنـازلات مهما كـان نـوعهـا الى الملاكين البورجوازيين.

كـذلك صعّد طـارقي من حملتـه على رجـال الـدين غير عـابىء بنصـائح

المستشارين، مع العلم أن أكثرية السكان في أفغانستان هم من المسلمين المتعصبين، حتى أنه اشتكى ذلك الى بريجينيف الذي أيده قائلاً: «الرفيق طارقي يعرف بلاده أفضل»، كما أقنعه أيضاً أن حزب «بارشام» هو عدو للثورة فأقال زعيمه من الحكومة وأودع بعض أعضائه في السجن، ثم أتبع ذلك بإبعاد من يخشى خطرهم الى الخارج حيث عينوا سفراء في دول مختلفة.

ثم أعقب ذلك إقدام حزب الشعب الديموقراطي برعاية طارقي على إحداث تغييرات كثيرة داخل البنية الحزبية نفسها. وقد طال ذلك حتى الأفراد العاديين الذين لم يأبهوا من يتزعم السلطة ما دام ذلك لا يهدد مصيرهم. كما أن الأوضاع خارج النطاق الحزبي شهدت تغيرات هي الأخرى، إذ بدأت الاضطرابات عند قبائل «بيشتو» التي كانت على مدى قرون في وضع مستقل عن السلطة المركزية في افغانستان، وتدين بالخضوع لرئيس القبيلة أو لإمام الجامع باعتبارهما السلطة الوحيدة.

على ضوء هذا الواقع فإن إحداث تغييرات في التقليد القبلي لم يكن من الأمور التي يسهل تنفيذها. فقد كان الفتيان مسلحين ومستعدين للدفاع عن أنفسهم، ولكن نظام كابول عمد الى التعامل مع هؤلاء من منطق القوة محاولاً تجريدهم من أسلحتهم، مما أدى الى إثارة موجات استياء عارمة في البلاد. وعندما أبدى الخبراء السوفيات معارضتهم لانتهاج تلك السياسة القاسية لجأ طارقي الى إعطاء تعليمات ذات وجهين الى أتباعه. فأوعز اليهم بالاستماع الى الخبراء والتظاهر بالموافقة مُسِرّاً اليهم أن لا يصار الى تنفيذ أي إجراء إلا بقرار منه شخصياً.

في الثاني والعشرين من آذار / مارس ١٩٧٩ قام سكان هيدات من قبائل «بيشتو» بقلائل مسلحة قتل فيها عدد كبير من الخبراء السوفيات. فشنت القوات الحكومية على اثرها حملة قمع قاسية تميزت بالفظاعة والوحشية. ويمكن القول أن كلاً من الطرفين استخدم أساليب متشابهة تجاه الآخر.

وفي صيف ١٩٧٩ ظهر أن أربع مقاطعات فقط من أصل أربع وعشرين أمكن إبقاؤها هادئة وتحت مجال سيطرة الحكومة المركزية، كما تبين أن ما تكبده الجيش من خسائر في الأرواح كان فادحاً.

في خضم هذه الأحداث برزت شخصية جديدة في حزب «كلخ» هو حفيظ الله أمين، وكان قد قدم الى كابول سنة ١٩٦٥ عائداً من الولايات المتحدة

الاميركية، وأشيع عنه أنه رجل متعطش للسلطة وغير مكترث كثيراً بالعقيدة الشيوعية ومبادئها. وقد كلفه طارقي برئاسة الحكومة سنة ١٩٧٩، فعمل حفيظ الله على اجتثاث جذور حزب «بارشام» وأقال العديد من محازبيه من مراكز الدولة، فسجن بعضهم وأعدم البعض الآخر وأحلّ مكانهم عناصر من أتباعه. فتمَّ له بذلك إدارة شؤون البلاد بطريقة غير مباشرة متخفياً بظل «طارقي».

وبالرغم من ذلك فقد استمر النظام الشيوعي في افغانستان في التدهور، ولم تُجد سيطرة الأنصار على المناطق الجبلية البعيدة عن المدن الرئيسية في الحؤول دون حصار كابول العاصمة، الأمر الذي أقلق موسكو ولا سيما بعد توظيفها لأموال كثيرة بهدف استثمارها في البلاد إذ أنه بسقوط كابول تكرّ السبحة، وهو الهاجس الذي تخشى موسكو من امتداد تأثيراته فيطال بلدانا أخرى يدعم السوفيات أنظمتها ومهددة من قبل المعارضين المسلمين هناك.

إزاء هذا الوضع ارْتُؤيَ الحل بتشكيل حكومة وفاق تجمع بين حزب الشعب الديموقراطي «كلخ» ورؤساء القبائل، إضافة رجال الدين والمستقلين الأحرار. فحبّذ طارقي فكرة الحل، ولكن حفيظ الله عارضها ليقينه أن تحقيقها من شأنه القضاء على طموحاته.

وفي أيلول / سبتمبر ١٩٧٩ دُعي طارقي الى موسكو حيث وافق على تنفيذ الحل، وكانت أول خطوة قام بها في لقائه مع الحكومة في كابول إقالة حفيظ الله.

وعلى الأثر اندفعت مجموعة كبيرة من حراس حفيظ الله الى داخل القصر ودارت معركة مع رجال طارقي قتل خلالها العديد من أعضاء مجلس الوزراء وأعضاء في اللجنة المركزية لحزب «كلخ» إضافة الى طارقي نفسه.

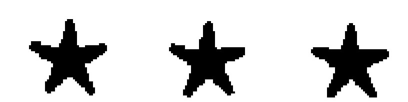
غير أن حفيظ الله بعد تسلمه زمام السلطة توقع أن يعمل السوفيات على الإطاحة به فعمد الى اتخاذ إجراءات وقائية، فعين أقاربه في كل المراكز وأحاط نفسه بمجموعة كبيرة من الحرس الخاص وتجنب الاجتماع مع السوفيات إلا برفقة أولئك الحراس.

ولقد وصل الخلاف بين حفيظ الله أمين وحلفائه الى حد التصريح بأن السوفيات يخونون الثورة الأفغانية، مما دفع اللجنة المركزية للحزب في موسكو

الى إصدار الأمر الى الـ كي. جي. بي. للاطاحة بالرئيس المشاكس.

ورَسَت المهمة على عاتق القسم الثامن في القيادة (اس) في القيادة العليا الأولى الذي كان دوره معلقاً منذ سنة ١٩٠٣. وأوكل التنفيذ الى الملازم كولونيل ميخائيل تلبيوف، وهو لاشرعي أعطي هوية أفغانية.

أرسل الأخير الى كابول حيث توصل بمساعدة الـ كي. جي. بي. هناك الى العمل في مطبخ القصر الرئاسي، وأعطي أمراً بدسّ السم في طعام حفيظ الله. وقد أخبرني ميخائيل بنفسه فيما بعد أن الأمر لم يكن سهلاً، فحفيظ الله كان كثير الارتياب الى حد أنه لم يكن يتناول نوعاً واحداً أو كمية كبيرة من الطعام، بل كان يفضل تناول عدة أنواع فيأكل القليل من كل منها، إضافة الى أن أفراداً من حرسه الخاص كانوا يتذوقون الطعام لامتحانه قبل أن يقدم اليه، كما أخبرني ميخائيل أنه عمل ذات مرة على دسّ السمّ في عصير الفواكه الذي يشربه أمين عادة، غير أن الأخير كان من عادته مزج المشروب، الأمر الذي يخفف من مفعول السم. وقال ميخائيل: «لم يكن بإمكاني تسميم كل شيء».



وردت الى موسكو تقارير من كابول نقلاً عن مصادر مقربة من أمين أن الأخير يخطط لإنهاء الأزمة في أفغانستان عبر المفاوضات مع زعماء المعارضة الاسلامية للحصول على دعمهم والمطالبة بانسحاب السوفيات من أفغانستان، (وهو ما سبق أن فعله السادات في مصر) وذلك عن طريق اللجوء الى الأمم المتحدة. واعتقد أمين أنه بمناشدته العالم أجمع فإن السوفيات لن يتجرأوا على النيل منه على الاطلاق.

لقد تسلمت القيادة السوفياتية الكثير من تلك التقارير، وتطلب الأمر اتخاذ قرار عاجل، وكان أمام اللجنة المركزية للحزب وسيلتان لحل المشكلة. الأولى: اقتراح من الـ كي. جي. بي. بالاغارة على القصر الرئاسي في كابول، فتقوم مجموعة كوماندوس خاصة للإطاحة بأمين ومؤيديه وتعيين حكومة أخرى مؤيدة لموسكو، ومن ثم الاعلان عن وضع سياسة وطنية للمصالحة.

أما الوسيلة الثانية فاقترحها الحزب والجيش، وهي أكثر تطرفاً، فطالبت بإرسال قوات سوفياتية الى أفغانستان وتصفية حفيظ الله أمين واحتلال المدن الرئيسية وتدمير مراكز المقاومة. وعند انتهاء المهمة يصار الى سحب القوات.

غير أن الـ كي. جي. بي. عارضت فكرة إرسال قوات بحجة أن افغانستان ليست تشيكوسلوفاكيا، وإن المقاومة هناك ستتصاعد بسبب الوجود السوفياتي. أما الجيش فقد أعلن عن قدرته في القضاء على المقاومة بسرعة ظناً أنه لن يستطيع هؤلاء الفلاحون الوقوف بأسلحتهم التقليدية في مواجهة الجيش السوفياتي.

وبعد مجزرة «هيدات» تجمعت القوات السوفياتية عند الحدود السوفياتية الافغانية أوائل أيار / مايو ١٩٧٩، وكانت مكونة من فرقتين: «تودجيك» و«أوزبيك»، وارتدى الضباط والجنود بذلات افغانية. وكانت الفرقتان من الوحدات المدربة على قمع المقاومة والتدخل السريع في حال برز خطر يهدد النظام في كابول. لكن هذه القوات لم تكن مؤهلة تأهيلاً كافياً، إضافة الى ما شعر به أفرادها من عطف على السكان المحليين بحكم صلات القُرْبى، غير أن الناحية الأهم هي التعلق الشديد لأولئك الأفراد بالرابطة الاسلامية، ولذا تقرر الاستعانة بالألوية الخاصة لتنفيذ عملية الاجتياح.

وفي الثامن والعشرين من كانون الأول / ديسمبر ١٩٧٩ دخل الجيش السوفياتي افغانستان، وكان بريجينيف قلقاً من ردة فعل الغرب. وهبطت أول طائرة عسكرية في مطار كابول مقلّة الوحدة الخاصة الموجّهة بمهاجمة قصر الرئاسة، وكان أفرادها من الكوماندوس ويتكلمون الفارسية، كما رافق الوحدة ضباط من الـ كي. جي. بي. ومخابرات الجيش، وهؤلاء في معظمهم متطوعون من القيادة العليا الأولى وكانوا قد خضعوا لتدريب خاص.

انطلقت الوحدة في عربات ودبابات خفيفة في اتجاه القصر الرئاسي شاقة طريقها دون أن تلقى أية مقاومة. وكان القصر محاطاً بشريط حديدي. أما الخطة فقضت باقتحام ثلاث دبابات لتحطيم بوابات المدخل الرئيسي الثلاث، وقد نجحت اثنتان بينما تعطل محرك الثالثة، وهو ما يعتبر أمراً غير مستغرب عن الصناعة السوفياتية. من ناحية أخرى كان على العناصر الخاصة القضاء على الحارس عند المدخل ومحاصرة القصر، لتدخل بعد ذلك مجموعة أخرى ـ هي وحدة الـ كي. جي. بي. الخاصة ـ وتنفذ المهمة، وكانت الأوامر

واضحة. فقد تحتم القضاء على الجميع وعدم الابقاء على شاهد أفغاني واحد.

فتح حرس القصر النار على القوة المهاجمة، ولكنهم سرعان ما أُسكتوا وقتل معظمهم. في هذا الوقت اجتاحت وحدة الـ كي. جي. بي. الخاصة أرجاء القصر فجوبهت بمقاومة عنيفة من الحرس الخاص الذين أُمروا بالدفاع حتى آخر رجل. وهذا ما لم يكن يتوقعه أفراد الـ كي. جي. بي.، إذ أسفر عن سقوط قتلى من الجانبين كان من بينهم الكولونيل بديرونيوف رئيس المجموعة الذي قتل خطأً على يد الوحدة السوفياتية التي حاصرت القصر إضافة الى ضابط آخر من القيادة (اس) سبق أن تدرب ليخلفني في طهران.

وخشية من فشل الخطة اضطرت وحدة الـ كي. جي. بي. الى الاستعانة بتعزيزات للقضاء على المقاومة، وقد وجد حفيظ الله أمين في إحدى الغرف منتظراً مصيره بهدوء. وحيث أمطر جسده بالرصاص حتى سقط صريعاً. وهكذا تمت العملة التي لم تبق على شاهد أفغاني واحد.

بعد ذلك تمكنت المجموعة المهاجمة من العثور على ميخائيل تلبيوف اللاشرعي طباخ حفيظ الله الذي كان مختبئاً في الطابق الأرضي تحت السلم طوال مدة الهجوم. والذي لم يظهر إلا بعد انتهاء المعركة، وقد عمد الى مناداة رفاقه بالروسية وراح يحييهم.

في هذا الوقت كانت ثمة طائرات تهبط تباعاً في المطار محملة بالجنود الذين كانوا يسارعون الى مراكز سبق تحديدها في المدينة، وذلك بهدف التمركز والسيطرة على الأبنية والمواقع الاستراتيجية.

وفي اليوم ذاته وجه رئيس افغانستان الجديد بيراك كارمال خطاباً عبر الراديو أعلن فيه نبأ مصرع حفيظ الله أمين ونهاية النظام المجرم الذي قضى على أرواح عشرات الألوف من الأفغانيين.

وبعد عدة أيام عاد كارمال الى كابول على متن طائرة عسكرية نقلته من الاتحاد السوفياتي.

وهكذا تم إنجاز العملية الإنقلابية بنجاح.. ودخلت القوات السوفياتية الى أفغانستان لتحكم سيطرتها على المدن الرئيسية بسرعة، وتمكن السوفيات من إجراء تعتيم كامل على حقيقة ما حدث في كابول، فلم تتسرب الى الغرب أية معلومات عن مصير حفيظ الله أمين في ذلك الوقت.

أما الجزء الثاني من المخطط الذي وضعته القيادة السوفياتية فقد كان يهدف الى القضاء بسرعة على المقاومة الأفغانية التي كان يُنظر اليهـا على أنها مقـاومـة بدائية لن تتمكن من الصمود طويلاً . . ومن ثم يعمل السوفيات على سحب قواتهم من البلاد .

الفصل السابع عشر

حصار السفارة في طهران ـ العمة شورا ـ الصباح الاميركي

مع إطلالة اليوم الأول من كانون الثاني / يناير ١٩٨٠ ، وبعد الاحتفال في الليلة السابقة بعيد رأس السنة توجهتُ كالعادة الى السفارة . كان الوضع هادئاً . غير انه بعد حوالى الساعة ، وفيما كنت أهبط السلم في المبنى متجهاً الى الطابق الثاني انطلقت صفارة الإنذار فجأة وهُرع المسؤولون والحراس . وتبين أن السفارة قد حوصرت من قبل متظاهرين أفغان .

كان الحارس آخر من دخل المبنى فأغلق الباب خلفه . اندفع المتظاهرون الى حرم السفارة ، وكنا نراهم من النافذة . . كانوا شباناً غطت اللّحَى وجوههم حيث كان من الصعب معرفة ما إذا كانوا من الأفغانيين أم من الايرانيين ، وقد راحوا يحطمون النوافذ ويدفعون الباب الرئيسي بهدف الدخول . وفجأة علا صوت الرصاص في الخارج وشاهدنا مسلحين بدا أنهم من الحرس الثوري راحوا يطاردون المعتدين ، ولم نعلم حينئذٍ ما إذا ما كانوا قد حضروا لحمايتنا أم لإلقاء القبض علينا . وعندما هدأت الأصوات حول المبنى خرجت وضابط آخر لاستطلاع الأمر ، وشرح لنا المسلحون أنهم من الحرس الثوري وقد قدموا لفك الحصار عن السفارة .

اتجهنا نحو البوابة الرئيسية حيث تجمع حشد ضخم ، وهناك شاهدنا العلم السوفياتي وقد أشعلت فيه النار ثم رفع مكانه علم أبيض كتب عليه «الله أكبر» . وكانت صيحات المتظاهرين تردد : «الموت للاتحاد السوفياتي» . . «أيها الروس اخرجوا من أفغانستان» ، وغير ذلك من الهتافات المختلفة المعادية للسوفيات .

وما إن اقتربت من البوابة حتى اندفعت الجموع مثل قطعان هائجة ، فنصحني الحراس بالابتعاد واللجوء الى غرفة الحارس التي قلبت محتوياتها رأساً

على عقب. وفجأة اندفع نحوي أحد الحراس لينبهني الى أن حريقاً قد اندلع داخل السفارة وأن الأمر يتطلب استدعاء رجال الاطفاء. نظرت في اتجاه المبنى فإذا بالدخان يتصاعد من غرفة مكتب التسجيل، وأدركت أن هناك من تولى حرق المستندات السرية. غير اني أخبرت المسلح ان الدخان قادم من المطبخ حيث كان يُعَدُّ طعام العشاء. وقد صدق ذلك.

وكنت أعلم أن التدابير الأمنية كانت تقضي بحرق وتدمير كل شيء في مكتب التسجيل خلال ثلاثين دقيقة، بالرغم من معرفتي أن هذه المدة لن تكون كافية؛ فإحراق المستندات التي تكدست في الغرفة يتطلب مدة ساعتين، أما تدمير المعدات فيتطلب مدة أطول من ذلك بكثير. وقد اثبتت وسائلنا عدم جدواها في إزالة أثر المستندات السرية التي كانت تدون على الورق نتيجة عدم اعتماد أنظمة الكومبيوتر والآلات الخاصة بإتلاف المواد الورقية، مما اقتضى اللجوء الى الطرق البدائية المتمثلة في عملية الاحراق واستعمال المطرقة.

كما أنه لأسباب أمنية اقتضى جمع أشلاء المعدات المحطمة وإعادتها بواسطة الحقيبة الدبلوماسية الى موسكو، وقد شملت بقايا الآلات الكاتبة وأجهزة الشيفرة والراديوات وآلات التسجيل والاشارة. وكان ذلك موضع شك الايرانيين الذين ارادوا معرفة ما تحتويه الصناديق الكثيرة المرسلة التي وضعت فيها تلك الأشلاء، فاعتقدوا أن الـ كي. جي. بي. تخفي أمراً ما. ويمكنني أن أتصور خيبة أملهم عندما اكتشفوا أن ما نرسله ليس أكثر من أشلاء معدنية. ولم يتوقف شكهم عند هذا الحد، فحين عملت موسكو على إرسال معدات جديدة موضوعة داخل صناديق كبيرة الحجم يفوق وزنها مئات الكيلو غرامات بحيث بدت وكأنها تحتوي على أسلحة برز في مخيلة الايرانيين مرة أخرى هاجس الشك. ولا أعلم ما الذي اعتقده أولئك المهووسون، ولكن من المرجح أن شكهم ذهب بعيداً فتصوروا أن السفارة تعد لانقلاب في ايران.

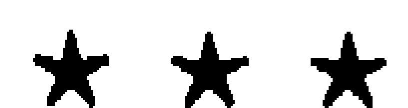
وعودةً الى حادث الاعتداء على السفارة، فقد قمنا في الـ كي. جي. بي. باعادة ترتيب وتنظيم المكاتب التي نظفت من مخلفات الأوراق والأغراض الأخرى المتراكمة والتي لم نعد نحتاجها، وكانت كثيرة جداً. وخلال قيام رئيس مكافحة التجسس شخصياً بتفحص المكاتب أصيب بدهشة لعثوره على ما يزيد على الأربعمئة برقية من المعلومات يعود تاريخها لعدة سنوات

مضت، وكانت مخبأة في أدراج طاولة في مكتب العمة شورا، الأمر الذي يعتبر خرقاً للقوانين الأمنية التي تنص على ضرورة التخلص من النسخ فور إرسال أصولها الى موسكو. وكانت العمة شورا مسؤولة عن المعلومات الخاصة بالكولونيل الكسندرا كوزينا، وقد عملت شورا التي تبلغ الخمسين من العمر طيلة مدة خدمتها في قسم المعلومات في الـ كي. جي. بي. في ايران حيث كانت على معرفة تامة بالجميع وكل شيء عنهم. ولقد شبهتها بـ «روزا كليب» التي مثلت مع جيمس بوند في الفيلم الشهير «روسيا مع الحب». أما الضباط في المقر فقد درجوا على مناداتها بالعمة شورا، وهو لقب يطلق على عاملات التنظيف في المباني.

حاولت العمة شورا التخفيف من خطئها الفاضح بإظهار الأمر وكأنه حقاً مثير الى حد السخرية، ولكن ذلك لم يكن لينقذها ولا سيما بوجود شخص مثل ليونيد ديميتروفتش.

لقد أظهرت التحقيقات أن ذاكرة العمة شورا خلال السنوات الماضية لم تعد قادرة على التحكم بتيقظها الذهني، ولذلك عملت على الاحتفاظ بنسخ المذكرات بهدف استعمالها بالصيغة ذاتها في تقاريرها اللاحقة.

وفي نهاية المطاف صدر قرار بإعادة العمة شورا الى موسكو في أقرب وقت، ولم تكن هي لتعترض على هذا الإبعاد ما دام الأمر سيبقى في نطاق السرية.



في كانون الثاني / يناير ١٩٨٠ غادر جميع موظفي السفارة الكندية طهران، وكان من بينهم ستة دبلوماسيين أميركيين لجأوا الى السفارة المذكورة قبل ثلاثة أشهر باعتبارهم يحملون جوازات سفر كندية. وعندما عرف الايرانيون بالأمر عن طريق الصحف الغربية التي نشرت الخبر راحوا يوجهون التهديدات ضد كندا. فكان رد الكنديين: «ليس لكندا أية مصالح في ايران.. وبالتالي فنحن لا ننوي الابقاء على علاقاتنا الدبلوماسية مع ذلك البلد».

صفّقنا لشجاعة وتصميم الكنديين وعلى الأخص للركلة على الأسنان التي

وجهوها للسلطات الايرانية، «حسناً فعلتم أيها الكنديون. . وقد صدق من قال انكم بارعون في لعبة الهوكي على الجليد مثلكم مثل الروس. . فلماذا لم يحرك الاميركيون ساكناً لتحرير دبلوماسييهم؟ لماذا لم تتمكن الدولة العظمى من القيام بشيء مع دولة صغيرة مثل ايران؟». ولو كنا نحن في وضعهم لما غفرت لنا السلطات السوفياتية أبداً.

الكثيرون في طهران والعديدون منا كانوا على يقين أنهم سينهضون ذات صباح ليروا قبعات الجنود الاميركيين في الشوارع، وتعود الحياة في ايران الى سابق عهدها.

وفي الخامس والعشرين من نيسان / أبريل ١٩٨٠ أعلنت الصحف الايرانية عن فشل العملية العسكرية التي قام بها الاميركيون لتحرير الرهائن. ولم نصدق الأمر الا بعد أن أكده الاعلام الغربي. وقيل إن قوة اميركية تسمى «دالتا» حاولت القيام بعملية في طهران فتجمعت في صحراء «تاباس» للتزود بالوقود، غير أن عاصفة رملية هبت فاصطدمت طائرة هيلوكبتر بإحدى ناقلات الوقود عند محاولة الاقلاع فتطايرت أشلاء واندلعت النيران، ونتج عن الحادث مصرع ثمانية طيارين أميركيين، وفشلت العملية. وقد عثر الايرانيون على خارطة طهران حدد عليها مقر السفارة الاميركية وأهداف أخرى.

لقد شعرنا بالرثاء لحال الاميركيين. . فكيف يمكنهم إذاً مهاجمة الاتحاد السوفياتي وهم غير قادرين على التعامل مع بلد مثل ايران؟!

في السابع والعشرين من نيسان / أبريل ١٩٨٠ في الذكرى السنوية للثورة الأفغانية وردتنا معلومات مفادها ان الأفغانيين يعدون لمحاولة اعتداء ثانية على السفارة السوفياتية لاحتجاز رهائن.

في البداية طلبنا المساعدة من حزب توده، ووجهت الأوامر الى اللاشرعيين لزيارة مراكز التجمعات الأفغانية في طهران لمعرفة ما يعده هؤلاء، وبدورها استنفرت مخابرات الجيش عملاءها وكثفت جهودها. كانت الوقائع تدل على وجود تحضيرات منظمة لأخذنا رهائن، وكل ذلك بموافقة وايعاز من السلطات الايرانية.

ومن جهة أخرى أعلمنا وزارة الخارجية الايرانية بما يدبر في الخفاء، وطلبنا تأمين الحماية للسفارة فوُعدنا بذلك.

كـان المبنى السكني في السفـارة حيث الأولاد والنسـاء هم الهدف الأكثـر احتمالاً للاحتجاز. وفي اليوم المحدد للهجوم نقلنا هـؤلاء الى شقق في المدينـة، وحدد ضابط الأمن بالتفصيل دور كل دبلوماسي وأعطي كل شخص مـوقعـاً دفاعياً. أوكل اليّ موقع قرب البوابة الرئيسية للسفارة، كما تمركز ضابطان من الـ كي. جي. بي. في موقع خـارجـاً، كـانت مهمتهما الاتصـال بسفـارة المانيـا الشرقية في حال محاصرة السفارة ونقل الخبر الى موسكو.

كان ثمة إجراءات سابقـة قـد اتخذت في السفـارة بعـد حـادث الاقتحـام الأول، إذ أقفلت واجهات وطبقات المبنى بصفائح حديدية وجهزت بكمامات وقنابل غاز كانت وصلتنا من موسكو في الحقيبة الدبلوماسية. كذلك زود كل ضابط في الـ كي. جي. بي. بقضيب حديـدي لاستعمالـه كسـلاح في حـال اقتحم المهاجمون مبنى السفارة. كـذلك أعـدت الترتيبـات الـلازمـة لإتـلاف المستندات السرية، علماً أنه لم يبق منها الكثير عقب عملية الاقتحام السابقة.

وفي اليوم نفسه كان الجو المخيم جو معركة. ففي العاشرة صباحـاً وصلت مجموعة من الحرس الثوري أدخلناها حرم السفارة، كما بدأ مندوبو التلفزيـون الايراني والاجنبي يتوافدون حيث قاموا بتركيز عدساتهم في الجهة المقابلة.

وكانت توقعاتنا أن يبدأ الاعتداء بوصول المتظـاهـرين ثم يلي ذلك الهجـوم على البوابة الرئيسية. غير أن الأمر كان مختلفاً هذه المرة. وكـانت الأخبـار التي استقيناها من مراقبينا أن المتظاهـرين هم في الطـريق إلينـا، ولكنهم مـا زالـوا بعيدين. وفجأة لمحنا مجموعة صغيرة من الشبان تظهر في شارع ستالين المؤدي مباشرة الى بوابة السفارة. لم نعلم حينذاك ما إذا كان هؤلاء من المتظـاهـرين أم لا. وفيما نحن في حيرتنـا فـوجئنـا بهم يتسلقـون البـوابـة والحرس الثـوري يشاهدونهم ولا يحركون ساكناً، بل أفسحوا لهم في المجال للدخول.

من جهتنا تجنبنا الاشتباك ورحنا نركض في اتجاه المبنى بأقصى سرعتنا. وما إن دخلنا حتى راح هؤلاء يطـرقـون البـاب بعنف، وبعـد ثـوانٍ سمعنـا تحطم الزجـاج، فأدركنـا أن بـاب المدخل قـد خلع.. أسرعنـا نحـو الممـر الخلفي فأغلقنا الباب الحديدي المصفح.. بعد دقائق تركزت محاولاتهم على فتح ذلك الباب.. استغللنا فرصة وجودهم في الممر المغلق فقام اثنان من حرس قـوات الحدود يضعان كمامات الغاز بدفع الباب حيث ظهر أمامهما شابـان، فتسمّرا في مكانهما لرؤيتهما هذين الحارسين الضخمين وهما يحملان القنابل في أيـديهما

ويضعـان الكمامـات، ومن خلفهما بـدا الضبــاط وهـم يحملــون القضبــان الحديدية. ذعر الشابان المهاجمان وأسرعا بالركض في الممـر بسرعـة مـذهلـة لم تمكن الحارسين حتى من استعمال القنابل.

أسرعت الى مكتب ليـونيـد لأخبره بما حـدث، فأعـربت لـه عن شكي في مواصلة الهجوم. وكان ليونيد جالساً قرب الهاتف الذي يصله مبـاشرة بغـرفـة التسجيل، وذلك لإعطاء الاشارة لإتـلاف المستنـدات عنـد الاضطـرار. ومن نافذة مكتبه رأينا المهاجمين وقد احتلوا المبنى المجـاور. بعـدهـا تقـدم شخص يحمل كرسياً فوق رأسه قذف به من النافذة، وكان شابـاً ملتحيـاً ينظـر بعينيْ مجنون.

استمر الحال على هذه الصورة ما يقارب الأربعين دقيقة ظهر بعدها الحرس الثوري، وقد بدا واضحاً أنهم سمح عن عمد للمهاجمين بإثارة هـذه البلبلـة. ومن ثم بدأت الأمور تعود الى طبيعتها تدريجياً.

وعندمـا تفحصنـا نتـائج الاعتـداء تبين لنـا أن الخسـائر كـانت كثيرة، إذ تحطمت ثريات الكريستال والمرايا الأثرية، وكذلك النـوافـذ وأدوات المطبخ، كما مزقت اللوحة الكبيرة المعلقـة التي جمعت ستـالين وتشرشل وروزفلت عنـد لقائهم في مؤتمر طهران عام ١٩٤٣.

لقد كان مكتب التنصت خلال الاعتداء يلتقط الرسائل اللاسلكية المتبادلة بين أفراد الحرس الثوري، وقد راح هؤلاء بعد الهجوم يحصون عـدد المهـاجمين، وذُكر أنهم كانوا ثمانية، وكان الرد أنه من المفروض أن يكونـوا تسعـة.. وكـان ذلك دليلاً آخر على معرفتهم مسبقاً بالاعتداء، مع الاضافة الى أن المهـاجمين لم يكونوا أفغانيين، وانما بدوا بوضوح أنهم ايرانيون.

ومهما يكن الأمر فإن الأمور مرت بسلام فلم يصبْ أحد من جماعتنا بأذى.

الفصل الثامن عشر

التحريض النفساني ـ النخبة ـ الحرب العراقية الإيرانية

بعد الاعتداء الثاني على السفارة السوفياتية في نيسـان / أبـريل ١٩٨٠ رفع السفير مذكرة احتجـاج رسـميـة الى السلطـات الايـرانيـة بسبب التغـاضي عن الأعمال الارهابية التي قام بها المواطنون الأفغـان ضـد المنـدوبين السـوفيـات. ولكن الرد الايراني جاء وقحاً واستفـزازيـاً، إذ هـدد هـؤلاء الاتحاد السـوفيـاتي بعواقب وخيمة قد تتخذ نتيجة اجتياحه لأفغانستان.

وفي المقـابل اتخذت السلطـات السـوفيـاتيـة عـدة اجـراءات، إذ نفـذت الوحدات العسكرية في مقاطعة القوقاز مناورات في المنطقة الممتـدة على طـول الحدود السوفياتية الايرانية، فأزيلت الأسلاك الشـائكـة وقـامت الـدبـابـات السوفياتية بتدريبات واسعة بمحاذاة الحدود الايـرانيـة، وبلغت الاستفـزازات حد اختراق عدة دبابات سوفياتية الحدود داخل الأراضي الايرانية. كانت تلك اللغة الوحيدة التي تفهمها القيادة الايرانية. وقد تغيرت لهجة الايـرانيين وازداد تقديرهم للسوفيات بعد تلك المناورات.

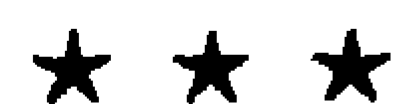
في هذا الحين كانت العلاقات مع حزب توده على حالها. فالأرمني مـا زال مداوماً على الحضور الى القنصلية حيناً والى مقر البعثة التجارية حيناً آخر ناقلاً التقارير المختلفة من الـرفيق كينـاوري. ولكن الـواقع يشير الى أن السلطـات كانت تعد للقضاء على المجموعات اليسارية، وكنا متأكـدين أن التعـامل مع كل من المجاهدين والفدائيين سيكون في المرحلة الأولى وسيعمل بعد ذلك على التخلص من حزب توده.

ولقد ساورنا القلق إزاء ذلك. إذ في حال القبض على قادة توده فإن هـؤلاء سيعترفون بكل شيء عن اتصالاتهم، وقد تنتج أخطار تهدد مقرنا في طهـران، ولذا أرسلنا تقاريرنا الى موسكو بهذا الشأن. غير أن ردود الفعل كانت سلبية،

إذ طلب منا مضاعفة اتصالاتنا مع حزب توده. فقمنا بتزويده بالمعدات الخاصة لإرسال الاشارة الى السفارة وبآلات لإتلاف الملفات إضافة الى آلات تسجيل خاصة والى غير ذلك من الأجهزة والمعدات. وقد كنا بذلك نقدم الأدلة المادية الى جهاز الأمن الايراني تثبت تورطنا، وشعرنا أن السلطات الايرانية تعرف الكثير عن علاقاتنا مع توده وهي تتحين الظرف الملائم للتدخل.

وأشير هنا الى أن وزير الخارجية الايراني كان ألمح الى الاتصالات السوفياتية المشبوهة مع حزب توده عبر البعثة التجارية في السفارة. ورغم ذلك لم تعمد القيادة في الحزب الى تنظيم التعامل بشكل يجنبها مراقبة أجهزة الأمن الايرانية مستقبلاً. ولكن ليونيد اتخذ المبادرة لتنظيم العلاقة مع توده، وقد وضع خطة جديدة تقضي بأن يرمي مبعوث توده بتقاريره من فوق سور المقر الصيفي للسفارة في زارقند على أن يسبق ذلك إجراء اتصال هاتفي بالمركز عند البوابة، ومن دون أن ينطق بكلمة يقوم بوضع راديو ترانزيستور يبث موسيقى على السماعة.

لم تلتقط أجهزة تنصتنا أية مراقبة على أعضاء حزب توده. مما يعني أن ليس ثمة ما يدعو الى ملاحقتهم، واستنتج بالتالي وجود عملاء لأجهزة الأمن الايرانية داخل صفوف الحزب.



ازداد اهتمام أجهزة الأمن الايرانية بالحقيبة الدبلوماسية السوفياتية، ولا سيما بعد وصول الصناديق الكثيرة التي أرسلت عوضاً عن المعدات والآلات المدمرة إثر الاعتداء على السفارة. وراح الحرس الثوري يضيق الخناق علينا ويضع العراقيل محاولاً مصادرة ما يرسل الينا في الحقيبة الدبلوماسية. غير أن المصادرة بحد ذاتها تعتبر خرقاً فاضحاً وقد ينتج عنها تأزم في العلاقات أكثر مما وصلت اليه، ونتيجة لذلك قررت موسكو وقف المراسلات والخدمات عن طريق الحقيبة. ولم يكن هذا ليشكل معضلة بالنسبة لنا، إذ استعضنا عن ذلك بالبرقيات كوسيلة اتصال بموسكو، ولا سيما بعد أن كان ما نرسله سابقاً لا يتعدى الرسائل الخاصة لثمانية آلاف خبير سوفياتي في ايران.

لقد كان من الطبيعي أن يحدث توقف الحقيبة الدبلوماسية قلقاً لدى الايرانيين، وقد راح هؤلاء يبحثون عن القنوات البديلة التي يعتمدها السوفيات لإرسال معلوماتهم وأسرارهم. ولم يخطر لهم ببال استعمالنا أسلوب البرقيات، واعتقدوا ان عملية الارسال تتم عن طريق الحقائب الخاصة التي يحملها المسافرون من مواطنينا. ولذا كان رجال الجمارك الايرانيون متمادين في عمليات التفتيش لتلك الحقائب. وقد أسرّ إليّ أحد أصدقائي في الجمارك أن الحرس الثوري كان يجبرهم على التدقيق مع المواطنين السوفيات بحثاً عن مستندات يمكن أن تكون مخبأة ومرسلة معهم.

في تلك الأثناء كانت فترة خدمة سلوفتسوف رئيس البعثة التجارية شارفت على نهايتها، وقد قام بزيارة لنا في القنصلية وطلب مرافقته الى المطار رغم كونه يحمل جواز سفر دبلوماسياً مما يجيز له عدم التعرض للتفتيش حسب القوانين المتبعة بالخصوص. وكان إصراره على مرافقتنا لـه تحسباً لتصرف مناقض من قبل الايرانيين.

وقد صدق حدسه. إذ بوصول سلوفتسوف الى نقطة الجمارك تدخل الحرس الثوري طالباً تفتيش حقائبه الثماني. وعندما اعترض مبدياً حقه بالحصانة الدبلوماسية كان الرد بأن الحصانة لا تشمل حقائبه.

إزاء هذا الموقف وجدنا من الضروري تدخلنا كمستشارين رسميين من حقنا المطالبة بمراعاة القانون الدبلوماسي، وقد بدا سلوفتسوف آنذاك متوتر الأعصاب. وأصر الحرس على التفتيش. وهنا تدخل ممثل في وزارة الخارجية الايرانية ظهر فجأة بشكل مدبّر مسبقاً ليفيد بأن الحرس متأكدون أن هناك مستندات سرية داخل الحقائب، وهي تشكل خطراً على ايران. ولذا فإن من حقهم القيام بالتفتيش، ولكن بوسع السيد سلوفتسوف مغادرة مكتب الجمارك ريثما يتم الانتهاء من التفتيش.

ولم نجد بداً من أن نقترح على سلوفتسوف تركهم يفتشون حقائبه إذا كان يرغب حقاً العودة الى موسكو بالطائرة التي ستقلع، كما نصحناه بعدم إعطاء الموضوع أكثر مما يحتمل وإلا فإن مثل هذا الاجراء سيتكرر في كل مرة، وسألناه: «هل تحتفظ بأشياء سرية في حقائبك؟». أجاب: «أجل، فأنا أنقل مستندات سرية خاصة بالبعثة التجارية». قلنا: «حسناً، علينا العودة، فهم لن يدعوك تمر دون تفتيش، وليس هناك ما نستطيع فعله».

وما إن غادرنا مبنى المطار حتى أحاط بنا أفراد من الحرس الثوري شاهرين مسدساتهم، وتقدم قائدهم من سلوفتسوف فقال: «أنا ممثل الجمهورية الاسلامية، وهناك في مكتب الجمارك قد تكون دبلوماسياً. . أما هنا فأنت لا شيء. . لذا فأنا لا أطلب منك الإذن بالتفتيش، إنما أقول لك بكل بساطة انني سأفتش حقائبك الآن».

ثم وجه كلامه الينا مهدداً: «إذا حاول أحدكم التدخل فسيلقى القبض عليه فوراً».

علا وجه سلوفتسوف الاصفرار، ولم ينفع اعتراضنا على التفتيش وخروجنا من المطار في تدارك الوقوع في الموقف الصعب. ووقفنا نتفرج على الحرس وهم يفتشون الحقائب التي طرحوها أرضاً، الحقيبة الأولى، الثانية. . السادسة، ولكنهم لم يعثروا على ما كانوا يتوقعون. فصرخ قائد الحرس: «ولماذا الاعتراض إذاً ما دام لا ينقل شيئاً ممنوعاً؟. . لقد أضعنا وقتنا سدى».

لم نستطع قول الحقيقة بالطبع، وأخبرناه أن الشعب السوفياتي يحترم القوانين، ولهذا كان احتجاجنا.

أما واقع الأمر فكان مختلفاً تماماً. . فقد كان لدى سلوفتسوف سبب آخر. . ففيما كان الحرس منهمكين في البحث عن مستندات سرية فإنهم لم يلاحظوا تلك القطع الذهبية من التماثيل الصغيرة وبراويز الصور المزخرفة. ولا أدري ممن خاف سلوفتسوف أكثر. . من الحرس الثوري أم منا نحن. . والأرجح أن خوفه كان منا. . . وما تلك الأشياء التي حملها في حقائبه سوى جزء بسيط مما جمعه على مدى ثماني سنوات عمل في ايران.

لقد شعرت بالأسى حقاً لأنه لم يُعْثر على الذهب الذي كان يحمله خلال عملية التفتيش، وهمس أحد الضباط معلقاً على سبيل المزاح: «من الأجدر تنبيه الحراس الى هذه الناحية».

أما سلوفتسوف نفسه فلاذ بصمت مطبق فيما راحت عيناه تتحركان بشكل ينم عن ارتباكه وقلقه. قلت له «لقد انتهى التفتيش الآن، فهل تريد العودة الى السفارة وتقديم احتجاج الى السلطات الايرانية أم أنك تفضل الذهاب الى موسكو؟». «أيسمح لي بذلك؟» سأل سلوفتسوف بلهف وهو لا يكاد يصدق.

وفي طريق عودتنا الى السفارة قال بوليكوف أنه سيرفع تقريراً بما حدث حال وصوله. ولكني قلت أن لا فائدة من ذلك طالما لن يتخذ أي إجراء ضده.

★ ★ ★

في حزيران / يونيو ١٩٨٠ ألقي القبض على فلاديمير غولوفانوف رئيس القسم (ان) خلال اجتماعه مع أحد العملاء وكان يلقب بـ «شاروف» وهو سويسري ورئيس شركة دانزاس للنقليات.

كان من الصعب معرفة أسباب تعاونه معنا، علماً أنه كان رجلاً ميسوراً من الناحية المالية. ولا أعلم إذا كان حبه للمغامرة هو الذي دفعه ال ذلك. لقد بقي مقيماً في ايران في وقت غادر فيه الأجانب البلاد هرباً من الأوضاع الخطيرة.

استعمل غلوفانوف عميله شاروف كصندوق بريد لرسائل اللاشرعيين وعملاء الـ كي. جي. بي. وكان يعمل على تحضيره ليصبح عميلاً خاصاً به.

يوم الحادث كان الاثنان مجتمعين في شقة شاروف عندما اقتحمها مسلحون من أعضاء اللجنة الثورية المحلية فاعتقلوهما بتهمة التجسس بالرغم من أنه ليس في حوزتهما أية وثائق سرية. . ولم يكونا يشربان الخمر.

كالعادة نقل غولوفانوف الى وزارة الخارجية الايرانية حيث أطلق سراحه، وقد عاد سيراً على قدميه الى مقر السفارة القريب من مبنى الوزارة. وبوصوله علم ان الايرانيين قاموا بإبلاغ السفارة بما جرى.

بعد هذه الحادثة الغريبة مع غولوفانوف، وفي أحد أيام الصيف وفيها كان الدبلوماسيون في المقر الصيفي للسفارة في زارقند ترك ابن غولوفانوف والدته حول حوض السباحة واتجه نحو الشقة لإحضار الماء، وبوصوله الى هناك لمح شابين ايرانيين يتسللان من الشقة ثم غادرا المنطقة، وبدخوله الشقة وقف جامداً في مكانه وهو ينظر الى آثار التخريب والحطام المنتشر من حوله.

لم يبد ذلك ناتجاً عن نية في السرقة، إذ لم ينقص شيء من الأغراض، وكان من الواضح ان الأمر له علاقة بالحادث السابق. فالسافاك كانت على علم

بأمر غولوفانوف منذ قدومه الى ايران سنة ١٩٧٧ ، وقد حاولت الكثير لمنعه من القيام بأي نشاط ، ومُورسَتْ شتى أنواع الضغوط النفسية عليه وعلى عائلته ، وأبقي تحت المراقبة الدائمة ، ولكن غولفانوف حافظ على هدوئه ، فكان يقوم بعمله دونما إرباك ، فقد كان خبيراً بأساليب التخلص من الملاحقة بحيث لم يكن من الممكن القبض عليه بالجرم المشهود ، وهذا ما أزعج السافاك كثيراً .

وهكذا بعد تشكيل وحدات الأمن الجديدة تقرر متابعة ما سبق القيام به من التحريات والمتابعة . ولفشل محاولات القبض على غولوفانوف بتهمة ما ؛ ونظراً لعدم مغادرته البلاد حتى يمكن مداهمة شقته أثناء غيابه ؛ لجأت السافاك الى دخول الشقة خلسة والقيام بعملية البحث عن شيء ما .

وخشية من الاعتداء على حياته قررت السفارة بعد مراجعة موسكو إبعاد غولوفانوف من ايران بطريقة لا تثير شك السلطات الايرانية حتى لا يصار الى وضع العراقيل في طريقه عند نقاط التفتيش في المطار ، وعمل على ترحيله بمفرده من دون أية حقائب على متن طائرة أجنبية ، كما حُرِص على إدراج اسمه في لائحة المسافرين قبيل وصوله الى مطار مهرباد بوقت قصير .

رافق غولوفانوف أربعة أشخاص وثلاثة مستشارين رسميين وسائق عمليات كانوا جميعهم من الـ كي . جي . بي . ذوي البنية القوية . بدا غولوفانوف مرتبكاً ولكنه بقي محافظاً على رباطة جأشه واعتداده بنفسه . دخلنا مبنى المطار عندما أعلن عن بدء الصعود الى الطائرة ، فعبرنا نقاط المراقبة والتفتيش بصفتنا دبلوماسيين ، ولحظة عزمنا على ركوب الحافلة التي تقلنا الى الطائرة لاحظنا أمراً ما يدور بين موظفي المطار ، فتقدم أحدهم وسأل عن غولوفانوف وطلب منه جواز سفره ، لكن غولوفانوف أعطاه بدلاً عن ذلك بطاقته الدبلوماسية . وبعد مقارنة الصورة المثبتة على البطاقة بشخصية غولوفانوف أعيدت البطاقة .

كان في نيتنا مرافقة غولوفانوف الى الطائرة ، ولكنه لم يسمح لنا بذلك ، غير أن مسؤولاً في الايروفلوت تمكن من مرافقته . أما نحن فبقينا هناك الى حين إقلاع الطائرة .

بعد رحيل غولوفانوف عينت مسؤولاً أعلى لقسم (ان) ، وكان غولوفانوف قد عهد اليّ قانونياً بكل الأمور التي كنت مطلعاً عليها من قبل . وهكذا فإن ثمة مهامَّ جديدة أسندت اليّ وكانت تتعلق بالتعامل مع جميع مندوبي القسم

(ان) في موسكو. أما في المستشفى السوفياتي فقد تسلم المهام ضابط من القسم (ان) مكان كارلشكن وكان هذا الأخير كفؤاً وعلى قدر المسؤولية.

بعد مدة قصيرة أزف موعد انتهاء إجازتي وعودتي الى موسكو. كان سير الأمور في القسم (ان) جيداً ولم أكن قلقاً من مواجهة المسؤولين في موسكو. وخلال توديعي للرفاق قال أحدهم: «آه.. النخبة..»، سألته عما قصد فرد: «أنت الآن من النخبة هنا، إذ عليك أن تسمع ما يقال عنك في الاجتماعات.. (إن نتائج أعماله ممتازة حتى في ظل الأوضاع السيئة في ايران)..».

ذلك على الرغم من كوني لم أحقق شيئاً مهماً للغاية، ولكني كنت أقوم بواجبي على النحو المطلوب، بالطبع تمكنت من تجنيد عميل مهم لم يكن الوصول اليه ممكناً خلال خمس عشرة سنة مضت من العمل، إضافة الى أني لم أفشل في أي عمل أسند الي، غير أني لم أسع مطلقاً الى الحصول على ترقية كما هجس بذلك الكثيرون.

خلال وجودي في موسكو التقيت الجنرال يوري ايفانوفيتش دروزدوف رئيس القيادة (اس) حيث أسندت اليّ رسمياً رئاسة القسم (ان) في طهران.

وبعودتي الى طهران لاحظت تغيراً في مواقف الضباط تجاهي. وبدا أن ترقيتي أزعجتهم، ولا سيما أولئك الذين بدأت العمل وإياهم سوياً، فبدأت الثرثرة والاشاعات تحوم حولي، وقد قالت لي السكرتيرة في المقر: «يا لها من ألسنة شريرة لدى البعض هنا.. فأنت تعطيني عملاً يضاهي ما يعطونني إياه جميعهم، ورغم هذا يقول أصدقاؤك إنك لا تعمل على الاطلاق وإنك غير كفء للعمل لأنك أبله، وما منصبك الذي تربعت عليه سوى نتيجة تسكعك عند الرؤساء».

أخبرني ليونيد يوماً أن هناك شكاوى ضدي من قبل زملاء لي في العمل، وسببها أنني أعطيهم الأوامر وأنا أتطلع اليهم باستعلاء. ولكني أجبته أنها مجرد إشاعات وانني أعرف مروجيها. وفي الواقع أنا شخص غير طموح ولا أجد لذة في إعطاء الأوامر للناس، وهو أمر لا يتفق مع تكويني الشخصي».

لم يتهمني أحد بعدم ولائي للسلطة السوفياتية مع العلم انني لم أخف موقفي ذاك على أحد. فغالباً ما تكلمت علناً مع أصدقائي حول الفساد لدى

قـادة الحزب وفي المعـاهـد وعن ضرورة التخلص من هـذه العصـابـات، وفي المقـابل تكلمت عن الحاجـة الى إنشـاء المزارع التشـاركيـة و إعطـاء الأراضي للفلاحين، وطالبت بالقطاع الخاص لتسلّم الصناعـات الخفيفـة والخدمـات المنوعة والتخلي عن المبادىء والايديولوجيات الشيوعية في حياتنا.

كنت استمتع بالنقاش مع زوجة سيرجي بوليكوف خريجة جامعة موسكـو والتي أصبحت تدرس فيها من بعد «الماركسية اللينينية»، وكان يزعجهـا كثيراً عندما لا تجد سبيلاً مقنعـاً للخـروج من مأزق التبـاين بين الـواقع السـوفيـاتي والوعود والنظريات الخطية. لقد أبديت اشمئزازي مما يدور في محيط السفارة، و بما يحدث بين أفراد الجالية السوفياتية. غير أن صراحتي لم تفاجىء أحداً لأن معظم ضباطنا وافقوني الرأي إضافة الى أن الأوضـاع في بـولنـدا شجعتني على توجيه النقد وزودتني بالأمل في إمكانية التغيير.

★ ★ ★

في هذا الوقت كان الجيش السوفياتي يغوص عميقـاً في المستنقع الافغـاني، واختفى الأمل بـالقضـاء سريعـاً على المقـاومـة وبـالتـالي انسحـاب القـوات والدبابات السوفياتية. والوحدات المدرعة لم تكن معتادة على القيام بعمليـات عسكرية في جبال افغانستان ضد المجموعات المسلحة من المجاهدين الـذين وجهوا ضربات موجعة للسوفيات من تلك التلال التي يعرفونها منذ صغرهم.

قدمت باكستان وايران المساعدات الى المجاهدين الأفغان فتحسنت نوعيـة سـلاحهم وازدادات هجماتهم ضـد الـوحـدات السـوفيـاتيـة، وتصـاعـدت الاشتباكات والغارات لتطال محيط كـابـول. وقـد ردت القـوات السـوفيـاتيـة بقصف التلال، ولكنها كـانت أصبحت خـاليـة من المجـاهـدين. إزاء هـذا الوضع المتدهور شعـرت القيـادة العسكـريـة السـوفيـاتيـة أنها أهينت ومنيت بالفشل أمام العالم أجمع فبدا أقوى جيش في العالم غير قادر على سحق بضعـة عشرات من المجاهدين.. ياللعار؟!

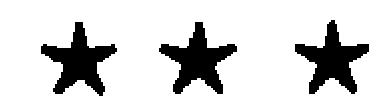
لقد علق ضباط مخابرات الجيش في طهران الذين قـدمـوا من إجـازاتهم في موسكو، وكان لهم أصدقاء في أفغانستـان، وآخـرون في القيـادة العـامـة، أن

القيادة العسكرية السوفياتية قادرة حقاً على الانتصار في افغانستان بسرعة فائقة شرط إغلاق الحدود الايرانية والباكستانية، وبالتالي منع المساعدات من الوصول الى المجاهدين، على أن يتبع ذلك الاستعانة بالقوات المجوقلة للقضاء على آخر معاقلهم. . وهذا الأمر يتطلب زيادة القوات السوفياتية في افغانستان الى ثلاثمئة ألف رجل. لكن اللجنة التنفيذية للحزب وخوفاً من العقوبات الغربية وتجنباً لتوسيع دائرة الحرب أصرت على عدم زيادة حجم قواتها في افغانستان، وطلبت تنفيذ العمليات بالقوات الموجودة هناك. . وما هو الفرق؟! الخراب حصل. . فلماذا التوقف في منتصف الطريق؟

وبدل الحسم العسكري السريع للمشكلة فضلت اللجنة التنفيذية العمل بالأسلوب الشيوعي وبسرية، فأعطيت الأوامر الى الـ كي. جي. بي. - القيادة (اس) - بتصفية حركة المجاهدين من أساسها، الأمر الذي عنى تدخل القسم الثامن، وعناصره من المحترفين، ويعرفون بالاسم الحركي «كاسكايد» وأفراده من اللاشرعيين الذين يتقنون اللغة الافغانية. كانت مهمتهم البحث عن المجاهدين والالتحاق بهم والحصول على المعلومات الممكنة، ليتم بعدها القضاء عليهم إما بقوتهم الذاتية أو بالاستعانة بالقوات السوفياتية.

لهذه الغاية طلب من الـ كي. جي. بي. في كل أنحاء العالم تجنيد الأفغان من ذوي الميول السوفياتية وارسالهم الى موسكو للتدريب الخاص. في هذا الوقت توجب على عملاء القسم (ان) اختراق مراكز تجمع الافغان في ايران وباكستان.

كنت أعرف تلميذاً أفغانياً في جامعة طهران تمنى دوماً الذهاب الى الاتحاد السوفياتي لإكمال دراسته، وبعد جولة تحضير قصيرة قبْلَ تعاوُنِه معنا ارسلناه الى موسكو للتدريب. ولم أعلم عن مصيره شيئاً بعد ذلك.



في الثاني والعشرين من أيلول / سبتمبر ١٩٨٠ نشبت الحرب الايرانية العراقية. وكانت جذورها عميقة في الماضي، ولكن أسبابها بقيت ذاتها: السيطرة على شط العرب، وهو مجرى مائي مكوّن جراء التقاء نهري دجلة

والفرات اللذين يمران في الأراضي العراقية والايرانية . في عام ١٩٧٥ توصل البلدان الى اتفاقية خلال عهد الشاه حددت بموجبها حدود هذا الممر المائي . كان ذلك حلاً معقولاً للأزمة ، ولكن لا شيء يدوم الى الأبد .

عند ظهور الجمهورية الاسلامية وفكرة الثورة الاسلامية العالمية راحت ايران تتدخل في شؤون البلدان المحيطة ، ولا سيما تلك التي تطغى عليها الصبغة الشيعية والتي تشكل الأكثرية الاسلامية .

وهكذا راحت السلطات الايرانية تطرح أفكارها ومعتقداتها بين السكان الشيعة شرقي العراق، الأمر الذي لم يرق للسلطات العراقية . وعندما بدأت الاضطرابات الشيعية بتحريض من الايرانيين طرد هؤلاء من البلاد، وفي هذا الوقت تصاعدت الحملة الاعلامية الايرانية داخل العراق، مما أدى الى توتر شديد تبعه تصعيد عسكري مسلح على حدود البلدين، فقصفت المدفعية الايرانية الأراضي العراقية واضطر العراق للرد بالمثل .

وفي السابع عشر من أيلول / سبتمبر أعلن العراق إلغاء معاهدة ١٩٧٥ بخصوص شط العرب واعتبر المياه جزءاً من الأراضي العراقية . دارت الاشتباكات عند شط العرب، وبعدها امتدت شمالاً الى حدود بني صدر وكان أحد أبنائهم رئيساً لايران في ذلك الوقت . . فأعلنت التعبئة العامة في العشرين من أيلول / سبتمبر.

وفي الثاني والعشرين من الشهر نفسه اجتاحت القوات العراقية الأراضي الايرانية في ثلاث جبهات، فقامت بغارات جوية ضد القواعد والمواقع والمنشآت العسكرية الايرانية . من جهتها أعلنت ايران الخليج الفارسي منطقة عسكرية . وبدأت حرب إفناء بين الطرفين استمرت حتى سنة ١٩٨٩ كانت خلالها الأسئلة تطرح عن المتسبب في نشوب الأزمة . . ايران أم العراق؟

دلت تحاليل المعلومات التي وصلت الـ كي . جي . بي . في طهران أن الأزمة العسكرية كانت لصالح الخميني للأسباب التالية :

أولاً : إلهاء الجيش الايراني الذي لم يثق به النظام الجديد وبالتالي خوفه منه .

ثانياً : التحجج بالحرب لتغطية التدهور الاقتصادي والحالة المعيشية الصعبة وتحويل اهتمام الناس بعيداً عنها والنظر الى المشاكل السياسية .

ثالثاً : لجم المعارضة، إذ أنه في أجواء الحرب تتمكن السلطات الايرانية من التعامل مع المعارضة بموجب القوانين العسكرية. وكان ذلك يعني شيئاً واحداً ـ الموت ـ

في نيسان / أبريل ١٩٨١ صعدت السلطات الايرانية حملتها لتصفية اليساريين من مجاهدين وفدائيين، ونقلت التقارير يومياً أخبار إعدام العشرات في مختلف المدن إضافة الى القبض على مئات آخرين. وفي آب / أغسطس من العام نفسه كانت السلطات في ايران بمساندة الحرس الثوري تعتقل يومياً ما يقارب الثلاثمئة شخص، وفي المقابل كان يتم إعدام مئات آخرين، وقد وردتنا الأخبار عن فظاعة وصول تلك المجازر. وقيل إنه قبل تنفيذ الاعدام كانت تسحب دماء الضحايا لنقلها الى الخطوط الأمامية.

كان الجيش الايراني مجهزاً بجميع المعدات الغربية أيام الشاه، ولكن السياسة التي اتبعها الخميني أدت الى تدهور العلاقات مع الدول الغربية وعلى الأخص منها الولايات المتحدة، وبالتالي لم يعد شراء الأسلحة من هذه البلدان ممكناً، وكان على ايران البحث عن مصدر آخر. فكان الاتحاد السوفياتي وهو البلد المعروف بتعاطفه مع الأنظمة الثورية في العالم المرشح لأن يكون ذلك المصدر، غير أن الأوضاع الناشئة في المنطقة كانت بالغة التعقيد. فالحرب العراقية الايرانية وضعت السوفيات في موقف سياسي حرج، ولا سيما أن المعاهدة المبرمة بينهم وبين العراقيين سنة ١٩٧٢ قضت بالتعاون المشترك الذي يشمل تقديم المساعدات العسكرية، وفي الوقت نفسه أراد السوفيات تحسين العلاقات مع ايران وإبعادها عن أحضان الغرب. من جهة أخرى فإن دعم ايران في حربها ضد العراق سيعني الخسارة الكاملة لنفوذ السوفيات في العالم العربي.

لهذه الأسباب أعلن الاتحاد السوفياتي عن حياده حيال الأزمة.

ومنذ بداية الحرب راح الايرانيون يرسلون بعثاتهم ومندوبيهم الى الاتحاد السوفياتي بهدف شراء الأسلحة. غير أن آمالهم خابت. وقد كان عليّ التعامل مع الايرانيين الذين كانوا يحضرون الى القنصلية طالبين بكل بساطة الحصول على تأشيرات لأعضاء بعثاتهم ومندوبيهم الى الاتحاد السوفياتي لشراء السلاح. وكانت طلباتهم ترفض دائماً.

في أيار / مايو ١٩٨٢ وصلت أول بعثة عسكرية ايرانية الى الاتحاد

السوفياتي، ولكنها عادت دون أن تحقق شيئاً فلم تتمكن من عقد صفقة لشراء السلاح، وذلك بحجة أن مصانع الأسلحة والعتاد لن تتمكن من تلبية طلباتهم حتى نهاية ١٩٨٣ . وكانت هذه مناورة معروفة للمحافظة على التوازن السياسي بين ايران والعراق.

اتجه الايرانيون نحو ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا طلباً للسلاح. ولكن محاولاتهم لم تأت بأية نتيجة. أخيراً وجدوا ضالتهم في كوريا الشمالية التي قررت مساعدة ايران. . فانتشر رشاش الكلاشينكوف في أيدي جيش الخميني.

بالرغم من ذلك، فإن المشاكل التي واجهها الجيش الايراني لم تُحَلّ، فقد كانت أسلحته الرئيسية من صنع غربي، الأمر الذي يقتضي بالضرورة الحصول على الذخيرة وقطع الغيار.

لكن هذه المشكلة حلت هي الأخرى، واليوم أصبح معروفاً لدى العالم أجمع كيف حدث ذلك. فمن خلال الالتحام بين رجال الأعمال من ناحية وبين «اسرائيل» من ناحية أخرى نجحت ايران في تدبير المعدات وقطع الغيار التي احتاجتها. وكان المال العامل الرئيسي في وقتٍ تدنى فيه المدخول العائد من بيع البترول بسبب الحرب. وقد علمت الـ كي. جي. بي. ان الايرانيين كانوا يحضّرون لبيع كميات كبيرة من احتياطي الذهب في السوق العالمية بغية الحصول على العملات الأجنبية. وهذه المعلومات هزت موسكو. إذ ان أمراً من هذا النوع سيؤثر سلباً على أسعار العملات في السوق وبالتالي على الاتحاد السوفياتي وهو المنتج الأكبر للذهب في العالم. ولذا رفضت موسكو السماح بذلك واعطت الأوامر الى الـ كي. جي. بي. للتحضير لعمل ما من أجل إحباط المخطط الايراني.

اتخذ رئيس مقر الـ كي. جي. بي. في طهران ليونيد إجراءات عملية عادية، إذ طلب من رئيس تحرير إحدى الصحف المحلية المشهورة في ايران ـ وكان وقتها عميلاً للـ كي. جي. بي. إثارة الجدل حول هذه القضية. . فطرح موضوع خطورة بيع إحتياطي البلاد من الذهب. . . وبدورها دأبت الصحف الأخرى على نقل الخبر. وسرعان ما انتقل الجدل في البرلمان الايراني الذي رفض التصديق على قانون يجيز بيع احتياطي البلاد من الذهب.

الفصل التاسع عشر

إغلاق ملف توده ـ كونراد وايفي ـ الكحول

في الوقت الذي بلغت الحملة ضد المجاهدين والفدائيين أقصى ذروتها وجهت السلطات الايرانية أنظارها نحو حزب توده، وقامت بمحاولتها الأولى للقضاء عليه، فشنت حملة عملت من خلالها على معرفة ردة فعل السوفيات، إذ اقتحم الحرس الثوري بعض مراكز الحزب في المدن والمقاطعات ودمروا مكاتب له قريبة من طهران كما اعتقلوا عدداً من مسؤوليه الكبار.

دق كيناوري ناقوس الخطر مطالباً موسكو بالعمل على وقف «تصرف السلطات الايرانية الأرعن» وجاء رد موسكو على شكل مقالٍ عنيف في صحيفة البرافدا يشجب الاعتداء على ضرب توده، ويشير الى أن الاتحاد السوفياتي لن يقف مكتوف الأيدي حيال ما يجري، وبالتالي فهو لن يتخلى عن رفاق القضية. غير أن المقال انتهى بلهجة أقل حدة مذكراً بالعلاقات التاريخية وأواصر الصداقة التي تربط بين البلدين.

لقد كان المقال عاماً فشمل جميع الأطراف على الساحة الايرانية، وقد رأى فيه حزب توده دفاعاً عن وجوده السياسي والحزبي، ولكن السلطات الايرانية فسّرته على أن الاتحاد السوفياتي لا ينوي التدخل في شؤون ايران الداخلية، وبالتالي فهو لن يضحي بأواصر الصداقة والعلاقات التاريخية إرضاءاً لحزب توده.

ولذا جاء رد الايرانيين سريعاً فمنعوا صحيفة ماردوم من الصدور، وهي الصحيفة الرسمية لتوده، وتابعوا حملات الاعتقال. وبدا واضحاً أن مصير توده الى زوال. وذلك لا يعود لكون الحزب معارضاً لقيام نظام إسلامي، بل على العكس، فتوده كان سباقاً الى دعم النظام الجديد منذ البداية، وانما يعود السبب الى الموقف المعارض لرجال الدين، تماماً مثلما فعل البولشفيك بعد

وصولهم الى الحكم في روسيا، فهؤلاء رفضوا أن يشاركهم في السلطة أي طرف مهما كان انتماؤه السياسي ونزعته الفكرية.

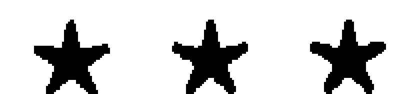
في ظل هذه الظروف الطارئة حاولت اللجنة المركزية للحزب السوفياتي القيام بعمل ما لإنقاذ ما يمكن انقاذه فطلبت من القيادة (اس) القيام بما يلزم. وفي هذا الوقت كانت التحضيرات قائمة على قدم وساق، فاستدعيتُ الى موسكو للتشاور، وعلمت أن التعليمات أعطيت الى قسم المستندات لإصدار أربعين جواز سفر ايرانياً لتأمين خروج جماعة حزب توده من ايران بهدف ترحيلهم الى الاتحاد السوفياتي. وكان هذا العدد من الجوازات يفوق ما لدينا في دائرة الأرشيف، إضافة الى كون هذه المستندات تم جمعها على مدى سنوات من قبل ضباط المخابرات في القسم (ان) في ايران وكلفت الكثير من الأموال والمخاطر، وهي مخصصة في الأصل للاشرعيين... وكان من غير المقبول رميها للكلاب. وكان السؤال الذي طرح بشكل حاد هو: «لمصلحة مَنْ كل هذا؟».

حيال وضع بهذا الاجتراء لم أتمكن من تمالك أعصابي فأخذت بالتحدث صراحة عن تبرمي. وخلال وجودي في القيادة أكدت أني على معرفة جيدة بقياديي توده وأن هذه المغامرة غير مجدية، فالسلطات الايرانية عالمة بكل خطوة اتخذها هؤلاء، وذلك من خلال عملائها داخل الحزب، ولذا فإن العملية ستفشل وستؤدي الى تعقيد الأمور إذا ما قيض للسلطات الايرانية ضبط أدلة ثبوتية على تورطنا، ولا سيما أن جماعة توده سوف لن يصمدوا طويلاً عندما يصار الى استجوابهم، فحامل البريد «الأرمني» سرعان ما سينهار ويعترف بكل شيء بمجرد اعتقاله، وهو بعد أن أمضى عشرين سنة سجينَ المعتقلات لن يقوى على تحمل ما سيواجهه من التعذيب مرة أخرى. لذا فإن من الأفضل قطع صلتنا بهم الآن لنجنبهم كما نجنب أنفسنا المزيد من المتاعب طالما أن وضعهم في ايران لن يتغير. فحزب توده قد ولّى ولن تقوم له قائمة.

لقد وافقني الضباط في القيادة على ما أبديته من آراء.. غير أن أوامر اللجنة المركزية كانت من الوضوح بحيث لا يمكن نقضها أو الالتفاف حولها، وقد ذهب بي الغضب الى حد إطلاق الشتائم علانية بحق أولئك الذين يديرون المؤامرة، وعندما أفضيت الى أحد أصدقائي المقربين في القسم بما كان يحدث من تجاوزات لم يصدق أن تكون الـ كي. جي. بي. على هذا القدر من

الهامشية، ولكن ذلك ما كان يحدث دائماً . . فالتدخلات والأوامر التي ترد من موسكو كانت هي الكلمة الأعلى.

وكما هي العادة . . كان الهروب الى مقارعة الشراب هو الحل الـذي مكننـا من أن نحلم بانتهاء الكابوس المزعج في يوم من الأيام . .



عدت الى ايران محبَطاً غير متحمس للعمل . . ولطالما تساءلت عن جدوى بذل الجهد الذي سيذهب هباءً يوماً مـا؟ لقـد كـان أولئك الضبـاط على حق عندما تخلوا عن أداء الواجب وتركوا الأيام تمر دونها التزام بأي عمل.

وفي أحد الأيـام حضر ذلك الأرمني ليقـدم أربعين صـورة لأعضـاء الحزب قمت بإرسالها الى موسكو.

وبعد فترة وجيزة وصلنا جواز سفر كيناوري، وكان علينا وضع اللمسـات الأخيرة عليه، واقتضى ذلك تثبيت الرقم المتسلسل الخاص بالانتخابات التي جرت في ايران بعد الثورة، وهو ما يعتبر ذا أهمية بالغـة ودليـلاً على أن حـامل الجواز من الأشخاص الموالين للنظام الاسلامي ذلك الحين.

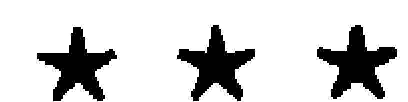
لقد بدا واضحاً أن القرار اتخذ لإنقاذ قبطان السفينة الغارقة. وقـد وردتنـا خطة تبين كيفية عبور كيناوري الحدود الايرانية ـ السـوفيـاتيـة، واختيرت لهذه الغاية ثلاثة مواقع لإمكانية العبور، واحد منهما يقع في محيط الحدود الافغـانيـة الايرانية، والاثنان الآخران يقعان على الحدود السوفياتية الايرانية في تركمانستـان وأذربيجان.

طلب من كيناوري ان يرسل لنا إشارة في حال تعرضـه للخطـر واضطـراره للهرب ليصار الى الاتصال بموسكو، ووقت ارسالـه الاشـارة عليـه الانطـلاق لملاقاة عميل الـ كي . جي . بي . في ساعة معينة في مكان حُدّد قريباً من بلـدة حدوديـة صغيرة، كما عليـه استعمال كلمـة السر كي يعـرّف عن نفسـه، أمـا العميل فيظل منتظراً في ذلك المكان مدة لا تزيد عن عشر دقائق ليصطحبه الى مكان العبور. وفي حال ظهور قوات الحدود الايـرانيين فإن مجمـوعـة خـاصـة

ستكون في الجهة الأخرى المقابلة داخل الأراضي السوفياتية، وهي التي ستقوم بما يلزم لضمان عبور كيناوري بسلام. وبمعنى آخر فإن تلك المجموعة كانت مهمتها القضاء على القوة الحدودية الايرانية.

واليوم لم يعد الأمر سراً، فقد فشلت كل تلك الجهود وذهبت سدى. . إذ عندما وجهت السلطات الايرانية ضربتها الأخيرة فإنها أقدمت على اعتقال جميع قياديي توده. . وهنا ذهب الاعلام الغربي الى حد اتهامي شخصياً بالتقصير وتوجيه اللوم اليّ، ولكني على يقين أن وجودي هناك أو عدمه سيان، ومصير توده ما كان ليختلف.

أما الآن وبعد وفاة الخميني وعودة العلاقات الجيدة بين السوفيات وايران فإنه من المحتمل أن يطلق سراح المعتقلين من حزب توده، هذا إن لم يكن حدث ذلك. لقد كان ذلك من ضمن الشروط التي وضعها السوفيات خلال المفاوضات.



كان العديد من الخبراء السوفيات يعيشون في مدن ايرانية قريبة من مناطق القتال، وكان من الطبيعي في ظروف الحرب ان تتركز الهجمات على الأهداف العسكرية والاقتصادية. ولكن العراق لم يتبع هذه السياسة لوجود آلاف الخبراء السوفيات العاملين في مصانع الحديد في أصفهان وفي مصانع أهواز، فطلبت السلطات العراقية من الاتحاد السوفياتي سحب الى خبرائه من تلك الأهداف وإلا فلن يمكنهم القيام بغارات جوية لضرب تلك المناطق.

لم تتردد موسكو في تلبية الطلب. فالعلاقات مع ايران كانت سيئة لدرجة يصعب تحسينها، فطلب من السفارة تخفيف عدد الخبراء ونقلهم من مراكزهم. ولكن الايرانيين رفضوا نقلهم الى طهران لسببين، الأول: لإدراكهم أن الوجود السوفياتي في تلك الأهداف سيحول دون تدميرها من قبل العراقيين، والثاني: إجلاء الخبراء السوفيات سيوقف الانتاج وذلك بسبب النقص في الايدي العاملة الخبيرة في ايران، وهكذا أضحى الخبراء رهائن. وبنتيجة المفاوضات مع الايرانيين تم الاتفاق على ترك عدد معين من الخبراء

اللازمين للمحافظة على الانتاج في تلك المصانع، بينما أعيد الباقون الى الاتحاد السوفياتي انتظاراً لعودة الأمور الى سابق عهدها.

استمرت العلاقات السوفياتية الايرانية في حالة من التدهور، فأعلن الايرانيون تأييدهم ودعمهم للمقاومين الأفغان، فغدا من الأمور المألوفة مشاهدة حشود المتظاهرين الأفغان حول السفارة السوفياتية في طهران.

ولقد قامت السلطات الايرانية بتوفير بعض الحماية لنا، غير أنه ورد على لسان رسميين في السلطة تحذير باستحالة ضمان أمن كامل. وما زلت أذكر ما قاله لي قائد في الحرس الثوري إنه ملتزم بحمايتنا لكون الأوامر تقضي بذلك ولكنه لو كان القرار بيده لما تردد في قتلنا جميعاً. وهذا ما جعلنا نعتقد ان المسؤولين الكبار في السلطة يشاطرونه الرأي.

وفي اجتماع ضمّني وليونيد قال الأخير: «إن وضعنا يزداد تعقيداً يوماً بعد يوم، وكما ترى فإن السلطات هنا لن تكون جدية في منع محاصرة السفارة، ومن الممكن أن لا يكون الحصار شبيهاً بما حصل للأميركيين وتحتجز رهائن، ولكنه سيكون حصاراً سريعاً يمكنهم من مصادرة مستندات سرية بهدف توظيفها اعلامياً. ولهذا السبب ألا تعتقد أنه علينا اتخاذ تدابير أمنية احتياطية؟ إذاً، لماذا لا نصور المستندات الهامة ونودعها في مكان سري هنا في السفارة؟ . . فاذا حدث اعتداء فسوف نكون مضطرين لإتلاف كل شيء، وفي هذه الحالة يكون لدينا البديل الذي يغنينا عن اللجوء الى موسكو التي تزودنا بمعلوماتها قطرة قطرة».

قلت مجيباً: «هذه فكرة جيدة، ليونيد فلاديميروفتش، ولكن علينا استئذان موسكو أولاً».

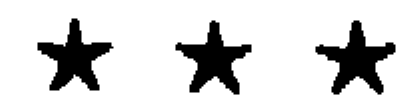
رد ليونيد بحدة: «آه منك ومن موسكو. . الجماعة هناك يماطلون قبل الرد علينا. إنهم سيقلبون الأمر ويبحثونه من جميع وجوهه. . وأخيراً سيقولون: كلا. . . انها الفكرة جيدة».

لقد كان لدى ليونيد أسباب جوهرية في اعتراضه على المخابرات اللاشرعية. فمنذ توقف العمل بالحقيبة الدبلوماسية بين طهران وموسكو كان علينا تحضير المعلومات التي تردنا من اللاشرعيين، كما كان علينا بعد تسلمها أن نرسل برقياً ملخصاً عنها الى موسكو. وما زلت أذكر تلهّف رئيس مقر الـ

كي . جي . بي . وهو قابع ينتظر ورود المعلومات الأولى من اللاشرعيين «كونراد» و «ايفي» ، غير أن تقريرهما الذي صيغ بالألمانية كان مخيباً للآمال ، وبالرغم من احتوائه على سبع صفحات فقد جاء خالياً من أية معلومة مفيدة ، وكان عليّ إعادة كتابته وارساله برقياً ، وكانا ألححنا على «كونراد» أن يكتب تقاريره بالروسية طالما أن تقريره يكتب بطريقة سرية ، وهو لا يشكل خطراً في حال وقوعه في يد المعارضة ، إذ من المستحيل حل رموزه دون معرفة المعادلة الكيميائية الخاصة التي يستعملها كونراد وحده .

ولقد تبين للمسؤولين في موسكو عدم صلاحية تقارير كونراد من الناحية التقنية . ذلك أن القسم الأكبر من الأخبار تمحور حول رسائل خاصة من «ايفي» الى ابنتها التي كانت على خلاف مع زوجها ، وما بقي لم يتعدَّ الابلاغ عن زيارات قام بها كونراد الى حفلات استقبال في السفارات الغربية والى شقق دبلوماسيين ورجال أعمال ، إضافة الى وصف سهرات أقيمت في شقة «كونراد» دعي اليها الأصدقاء ، كما أنها أشارت الى شكاوى ايفي عن نقص المواد الغذائية في ايران . كان واضحاً من خلال التقارير المرسلة أن كلاً من كونرد وايفي ينعمان بظروف مؤاتية للحصول على معلومات ذات أهمية بحكم تغلغلهما بين دبلوماسيين ورجال أعمال غربيين ، ولكنهما ـ بكل بساطة ـ لم يقوما بما ينبغي .

وعودة الى تصوير المستندات فقد اقترح ليونيد أن يكون المخبأ السري في الطابق الخامس ، فقمت مع أحد الضباط التقنيين بتصوير المستندات الهامة ، ثم وضعنا الأفلام في علبة صغيرة عملنا على دسّها داخل الحائط في الممر المؤدي الى غرفة التنصّت والاتصالات . وقد بقي هذا الأمر سراً لم يعلم به سوى الضابط التقني وليونيد وأنا .



بهدف الحصول على المعلومات الهامة من اللاشرعيين كونراد وايفي وضع ليونيد لائحة طويلة بالأسئلة السياسية والاقتصادية التي اعتقد أن في مقدور كونراد الحصول على أجوبة بشأنها دون أية مشاكل .

وظهرت الحقيقة بعد فترة قصيرة، فقد جاء تقرير من كونراد، وكان ما ورد فيه من المعلومات غنياً وعلى جانب من الأهمية، ولكنه كان التقرير الوحيد الذي أجاب على ما هو مطلوب، وبعد ذلك عاد كونراد الى أسلوبه القديم، ولم يعرف أحد السبب. وقد لوحظ أن ثمة إهمالاً في طريقة عمله. . ففي إحدى المرات ذهب ضابط من القسم (ان) لتسلم رسالة من كونراد عبر صندوق البريد ولكنه لم يجدها. وقد أفاد كونراد أنه وضعها في المكان المتفق عليه، غير أن الضابط أجاب أنه لم يدع الأخير يغيب عن نظره لحظة واحدة، وكان من غير المعقول أن يكون ثمة من اكتشفها أو وصل اليها. ولكن كونراد قدم شكوى بذلك متهماً ضباط المقر بعدم الكفاءة.

كادت هذه الأمور تعكر الأجواء، فاقترحت معالجة الوضع مع كونراد شخصياً في المركز خلال وجودي في موسكو في حزيران / يونيو ١٩٨١.

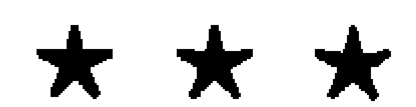
وكان من عادة اللاشرعيين أن يبدأوا بالسفر الى اوروبا الغربية فيزورون عدداً من البلدان بقصد توفير تغطية، ثم ينتقلون الى بلد كالنمسا لاستبدال مستندات سفرهم، ومن هناك يتجهون الى موسكو.

وصلت المركز في موسكو وكلّي عزم على مواجهة كونراد، ولكن خاب أملي بعدما علمت أنه لم يصل لا هو ولا ايفي، كما لم يكن هناك أي خبر يدل على وصولهما الى اوروبا. وكان موعد عودتي الى طهران قد أزف، الأمر الذي أضفى على المركز جواً من القلق حتى ساد الاعتقاد بأن كونراد وايفي اعتقلا في ايران. وبمجرد عودتي الى طهران باشرت عملية الاستقصاء، وقد أظهرت النتائج انهما غادرا طهران. . ولكن موسكو رفضت ذلك وأصرت على أنهما ما زالا في ايران.

وقبيل مغادرتي الى موسكو ورد خبر من كونراد يؤكد فيه مغادرته البلاد.

في أيلول / سبتمبر ١٩٨١ وبعد طول انتظار وردت برقية الى المقر في السفارة تقول:

«لقد تبين أن كونراد وايفي اعتقلا في سويسرا فور وصولهما من طهران، وقد اعترفا خلال الاستجواب أنهما من الـ كي. جي. بي. وأفصحا عن اسميهما الحقيقيين. . يجب على المقر إيقاف جميع العمليات الخاصة بهذين اللاشرعيين. على ضباط القسم (ان) اتخاذ الحيطة والحذر الشديدين».



كان لمنع المشروبات الكحولية بعد الثورة في ايران تأثير سلبي على الجالية السوفياتية التي كانت تعاني من نقص في المواد الغذائية. وقد توصل الخبراء السوفيات الى ايجاد بديل عن الفودكا لإرواء عطشهم. وبُدىء بانتاج فودكا محلية في المنازل، وأصيب الكثيرون بعوارض تسمم جراء ذلك.

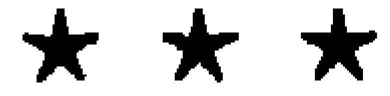
كما لم يقتصر انتاج المشروبات الكحولية على الجالية السوفياتية، فقد لجأ الاوروبيون الآخرون بدورهم الى تصنيع الجعة محلياً. أما الفودكا المحلية فقد عمل جميع موظفي السفارة على انتاجها فاشترك في ذلك الدبلوماسيون وعناصر المخابرات في الجيش والـ كي. جي. بي. والتقنيون.. وهكذا غدت المشروبات الكحولية ضالة الجميع. غير أن ذلك لم يكن سببه الادمان، بل لكونه فاكهة ممنوعة بقوة القانون، ولذا بدت ألذ مذاقاً، وبالتالي فقد أصبحت العلاقات بين الناس تقاس على أساس ما يقدم من خمر، فإن كنت تريد خدمة ما من أحدهم فما عليك سوى وضع زجاجة على طاولة الطعام.

وكان المستشفى السوفياتي الهدف الرئيسي الذي يحوم حوله الشاربون، فهناك خزان الاسبيرتو المصفّى.. وقد تناوب في الذهاب الى هناك الكثيرون من بينهم اناتولي افيموفتش ميلنيكوف رئيس الحزب وممثل اللجنة المركزية في طهران.

وكان اناتولي قدم الى السفارة في أوائل ١٩٨١ وكان في الخمسين من العمر، وهو متوسط القامة، ذو وجه دائري دميم، تبدو على وجهه ابتسامة دائمة، وكان ليونيد قد طلب من ليفاكوف ضابط الأمن في السفارة أن يطلع اناتولي على هوية بعض أفراد الجالية السوفياتية، وذلك بغية وضع ممثل الحزب في الأجواء وإطلاعه على من لا يصح اتخاذهم أصدقاء. وبالرغم من ذلك فإن اناتولي انحرف وأقام صداقاته مع كل أولئك الذين نُبه الى تحاشيهم وأولهم رئيس المستشفى الذي اتخذه اناتولي صديقاً. وكان الاثنان يعبان الشراب على مدى عدة أيام داخل وخارج السفارة، حتى بلغ الأمر باناتولي حد نقله محمولاً عقب كل حفلة تقام وهو بحالة سكر شديد. وقد كان اناتولي على علاقة بسيدتين يعمل زوجاهما في قسم الأرشيف بالسفارة، وفي إحدى الليالي بعد أن شرب كل ما طالته يداه قرر زيارة إحدى المرأتين، وكانت الساعة شارفت على الحادية عشرة ليلاً، وكان الزوج في المنزل، فطرق اناتولي الباب، ولما يلق جواباً راح يطرق بقوة ويركل الباب بقدمه وهو يصرخ: «أعطني بعض الفودكا أيتها

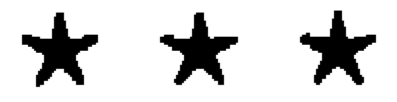
العاهرة، وإلا سأحطمك انت وزوجك».

اتصل الزوجان بضابط الأمن الذي حضر واصطحب اناتولي الى منزله. وفي اليوم التالي ارسل السفير وراء اناتولي وأنّبه على تصرفه، وأعلمه أنه لن يشكو أمره الى اللجنة المركزية هذه المرة، وكان اناتولي مزمعاً الذهاب في إجازة في اليوم التالي، وقد تعهد بالمقابل أن يقدم بنفسه تقريراً يصف فيه ما جرى. وتبين لاحقاً انه اعترف بما حصل وهو يذرف الدمع ويعد بعدم تكرار ما فعل «فالسيف لا يقطع رأس صاحبه»، ولا سيما إذا كان رأس حزبي. وعاد أناتولي الى السفارة وكأن شيئاً لم يكن.. فلم يقلع عن مسلكه وتصرفاته.. مستمراً في الضرب على النغمة ذاتها.



في صيف ١٩٨١ حصل مقر الـكي. جي. بي. على معلومات وفيرة بعد انضمام أزويان، وهو ضابط من الـكي. جي. بي. سبق وخدم في وحدة التنصت في الجيش، وقد اقترح ازويان توجيه الصحن اللاقط في غرفة محطة مارس باتجاه الجنوب الغربي حيث تدور الاشتباكات بين العراق وايران.

وبعد عدة أيام مضنية من البحث توصل الى التقاط موجة هاتفية متصلة بالمكتب الخاص لآية الله منتظري الوريث الديني الرسمي لآية الله الخميني. وكان المكتب على اتصال بجميع المسؤولين سواء في الجبهات أو داخل البلاد. وقد تكلم هؤلاء علانية في أمور شتى.



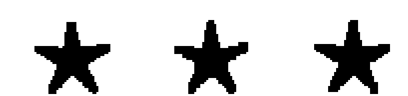
خلال وجودي في إجازة سنة ١٩٨١ أبلغني رؤساء في القيادة (اس) أن ضابطاً شاباً سيتسلم مكاني في طهران، وأنهم سيبقونه سنة أخرى في موسكو لتمكينه من التزود بالخبرة اللازمة. ولذا فقد اقترحوا بقائي سنة خامسة في ايران. كان رد فعلي الأول سلبياً فلم أكن أرغب المكوث في ايران. ولقد تفهم القادة وضعي فاقترحوا علي الذهاب في إجازة ليتسنى بعد ذلك مناقشة الموضوع.

ذهابي الى موسكو مكنني من رؤية الأوضاع على طبيعتها، حيث كانت الأحوال تسير من سيء الى أسوأ. فالمحلات شبه خالية من المواد الغذائية، والانهيار على جميع الأصعدة بالغ أوجه. ولذا كان من الطبيعي لجوء الناس الى

الفودكا هروباً من المعاناة وقسوة العيش، فتفاقمت المشاكل الناتجة عن السكر، كما ازدادت نسبة الجرائم، وطالت السرقات مكاتب الحزب الحاكم وشقق أعضائه، وانتشر الفساد في أرجاء البلاد.

هذا الواقع المؤلم ترك أثره في نفسي، فامتنعت عن الخروج الى الشارع وزيارة المحلات حتى لا تقع عيناي على أولئك الذين يصارعون البؤس، وبدت لي ايران الخمينية قياساً الى ما أراه من أحوال موسكو جنة الفردوس.

وبعد انتهاء إجازتي عدلت عن قراري وفضلت البقاء في ايران سنة أخرى.



بعد التخلص من اليساريين اتجهت أنظار السلطات في ايران نحو الطائفة البهائية، وهي حركة دينية نشأت بين شيعة ايران في القرن التاسع عشر، فاعتبرتها معادية للنظام، واعتقلت رئيس معهد اللغات الروسية في طهران وهو ايراني يدين بالبهائية. وفي محاولة منه لانقاذ نفسه اعترف الأخير بأنه عميل للـ كي. جي. بي. ولم يكن ذلك ليحول دون تنفيذ حكم الاعدام به. هذا الاجراء برهن على أن الـ كي. جي. بي. كانت على حق في تنبيهها عملاءها بعدم الافصاح عن علاقتهم بها إطلاقاً.

لقد كان رئيس المخابرات الثقافية يوري دنيسوف على اتصال برئيس المعهد الروسي، وقد اعترف الأخير للسلطات الايرانية بعلاقته بيوري دنيسوف، الأمر الذي أدى الى طرده من البلاد.

من ناحية أخرى فقد طالت الاجراءات الايرانية أعداء آخرين للنظام من ضمنهم صحافية سابقة من مؤيدي الشاه، وهذه الأخرى بدورها اعترفت بتعاونها مع الـ كي. جي. بي. محاولة النجاة بنفسها، وأفادت بأن اسمها الحركي «ليرا» وان اسم وكيلها «بانشينيكو» وهو رئيس المخابرات السياسية في السفارة.

وبعد رحيل دنيسوف والكسي توجهت أنظار المخابرات الايرانية نحوي، فوُضعت تحت المراقبة الدائمة لمدة تزيد على الشهرين ولكنني لم أشعر بضيق من

ذلك، ولقد وجدتها فرصة تتيح لي التمرن على أساليب مكافحة المراقبة.

★ ★ ★

في كانون الأول / ديسمبر ١٩٨١ حدث انقلاب عسكري في بولندا، وشكلت حكومة عسكرية برئاسة الجنرال جاروزيلسكي الذي حَلَّ جبهة العمال الديموقراطية، فكان من شأن ذلك تبديد آمالي في مستقبل البلاد. لقد ابتدع السوفيات أسلوباً جديداً للسيطرة دون أن يرسلوا قواتهم الى بولندا. . . ولم يكن ثمة نهاية لعبقريتهم الاستبدادية.

إن الهزيمة التي أصابت الشعب البولندي جعلتني أقتنع بضرورة مقاومة النظام السوفياتي. وكان من السخف الجلوس والانتظار. . بل ينبغي مقاومة النظام باستعمال وسائله السرية ذاتها: البراعة، والغدر.

لم أكن الوحيد في رأيي هذا. . بل شاركني فيه العديد من الأصدقاء الذين كانوا على استعداد للقيام بعمل ايجابي ضد مافيا الحزب.

الفصل العشرون

المخبأ الخالي ـ المغادرة

في بداية العام ١٩٨٢ اتخذ الاتحاد السوفياتي قراراً حيال الحرب العراقية الايرانية، فوقف الى جانب العراق وراح يزوده بالسلاح والعتاد، ولعدة مرات شن الطيران السوفياتي غارات جوية من افغانستان على الأراضي الايرانية، فقصف مخيمات تدريب المجاهدين الافغان.

في هذا الوقت كانت ايران معزولة تماماً عن العالم، وطالما بقي الخميني على قيد الحياة فإن ايران ستظل بعيدة عن الاميركيين. وفضل السوفيات ايران الضعيفة والغارقة في مشاكلها واعتبروها غير ذات أهمية في الوقت الحاضر. وقد ظهر ذلك بتعيين سفير جديد في طهران خلفاً لفينوغرادوف عضو اللجنة المركزية للحزب الذي ترك ايران في ربيع ١٩٨٢ وتسلم منصباً كبيراً في الدولة. فالسفير الجديد بولديرف كان من المسؤولين العاديين في دائرة الشرق الأوسط في وزارة الخارجية.

وإزاء التصلب الذي أبداه السوفيات لجأت ايران الى التعامل بشكل أقرب الى المرونة، وتمثل ذلك بتخفيف حدة اللهجة الاعلامية واختفاء شعار المناداة بـ «الموت للاتحاد السوفياتي»، إضافة الى اعادة فتح ملف المفاوضات الخاصة بشأن التعاون الاقتصادي بين البلدين، وذلك نزولاً عند رغبة ايرانية. وتم توقيع معاهدة جديدة في موسكو في شباط / فبراير ١٩٨٢، وبموجبها عاد الخبراء السوفيات الى ايران.

عادت الأمور في محيط السفارة الى طبيعتها فأبعد المتظاهرون الافغان، ووُفّرت حماية جيدة من قبل الشرطة والحرس الثوري.

عندها أدركتُ عدم جدوى إبقاء فيلم المستندات السرية قررت اتلافه. ولكن الصدمة كانت كبيرة عندما عدت الى المخبأ حيث وضع الفيلم، فلم

أجد له أثراً. وهنا كانت الفاجعة ونهاية الطريق. فالقـانـون السـوفيـاتي يحكم بعقوبة السجن لمدة سبع سنوات على من يتسبب في فقدان مستندات سرية، ولا بد أن السارق كان مدركاً لهذه الناحية.

لقد شعرت أن مستقبلي على المحك بعد سجل مشرف ترقيت خلاله ثلاث مـرات، وتأهلت لمنصب رئيس القسم الجغـرافي غـداة عـودتي من طهـران الى موسكو. فالترقية المماثلة في فترة خمس سنوات قلما تحدث. أما الآن فقد انهارت تلك المشاريع التي كنت أنوي تنفيذها بعد رجوعي الى الاتحاد السوفياتي.

للوهلة الأولى فكرت بالذهـاب الى رئيس الـ كي. جي. بي. في السفـارة واطلاعه على الأمر. ولكنني ترددت لعلمي أن ذلك سيكون بمثابة انتحار، إذ سيقوم الأخير برفع تقرير الى موسكو ليصار الى ترحيلي والتحقيق معي.

أصبتُ بحالة دوران غريبة، وسيطر على ذهني السؤال: ما العمل؟ وماذا أفعل؟! كان جسمي يرفض الطعام، وليلاً تملكتني الكوابيس: رجل باللباس الأسود يرفع فوق رأسه فأساً وهو يقترب من فـراشي ليجهـز علي. مـاذا أفعل؟ هل أرفع تقريـراً بـالأمـر أم أجلس وانتظـر الاتهام أولاً ثم أبـدأ بـالـدفـاع عن نفسي؟.. ولكن مـا الجدوى.. ففي بـلادي من يتعثـر ويسقط يسحق على الفور.

أما اللامبالاة بالخطر وتقبل العقوبة بشهامة، ثم الدفـاع لإثبـات البراءة، فذاك يعني إضافة اسم آخر الى لائحة ملايين الضحايا في النظام السـوفيـاتي. ولأجل من؟ لا أحد سيقدر التضحية وليس ثمة من يحتاجها... ثم مـا هـو الشيء الذي ينبغي علي إثباته للنظام الذي كرهت؟

تردد في خاطري السؤال الذي كان يطـرحـه الأبطـال في الادب السـوفيـاتي «ماذا كان فعل لينين لو كان مكانك؟». وكان جوابي الباطني «كان ولى الأدبار الى الخارج».

لا.. هذا ليس من شيَمي، فأنا لم أكن يوماً مؤيـداً للغـرب، إذ اعتقـدت دائماً أن للغرب مصالحه الخاصة وانه بحاجة الى روسيا مثل الثقب في الـرأس، ولا فرق إن كانت روسيا الشيوعية أم روسيا الحرة. لقد اعتقدت أن علينـا حل مشاكلنا بأنفسنا، وأن التغيير في الهيكلية السوفياتية معقـول فقط من الـداخل وليس من الخارج، وأن أي تدخل خارجي سيوحد الناس ويزيد من صـلابـة

النظام .

ولم أجد مخرجاً لأزمتي ، وبقيت أفكاري تطرح ذاتها رغم محاولتي تحاشي ذلك . ولكن ما يدعو الى الاطمئنان انه في الغرب سيكون في مقدوري بطريقة أو بأخرى التطلع الى الأمام! فمعظم القادة البولشفيين الذين عرفوا شيئاً من المقاومة أمضوا فترة طويلة من حياتهم في الخارج .

«ماذا بالنسبة لروسيا؟» . . سألت نفسي . «روسيا لا تحب الخونة» .

ولكن روسيا التي نذرت حياتي لخدمتها وعشت في دنيا أحلامها كانت موجودة فقط في مخيلتي . والذي حدث عندما تسلم البولشفيون الحكم هو عدو لها ومناقض لوجودها ، ومقاومة ذلك واجب مقدس على الشعب الروسي . فلِمَ التردد الآن؟ هذا ما جال في رأسي في ذلك الوقت .

ولكن لم يكن لي مهرب من هذه الأفكار سوى اللجوء الى زجاجة الخمر علّي أهدىء من التوتر والارهاق اللذين يؤرقاني .

وذات مساء التقيت ميلنيكوف رئيس الحزب ، وكان مخموراً كعادته ، فدعاني الى شقته لتناول كأس . قبلت الدعوة رغم أني لم أكن أطيق الرجل . بعد تناول بضعة كؤوس نشب خلاف بيننا ، وتوسَّع ، فأطلقت للساني العنان ، ورحت اتفوه بكل ما جال في فكري عن الحزب والشيوعية والـ كي . جي . بي . فقد كان ميلنيكوف رمزاً لكل ما كنت أكرهه . وكاد الأمر يتطور الى ما لا تحمد عقباه لو لم يصل ليفاكوف ضابط الأمن في السفارة ، وقد فوجىء برؤيتي مع ميلنيكوف .

وذات يوم أطلعني كاتب في السفارة على ما اعتقده أمراً مضحكاً . إذ نقل عن أصدقائه أن مسؤول الأمن في الخارج والمفتش العام في المستندات الخاصة بالـ كي . جي . بي . قام بجولة في بلدان اميركا اللاتينية ، وقد سجل ملاحظات عدة حول بعض الاقتراحات المخلة بالأمن ، وأضاف انه سيقوم بزيارتنا في طهران قريباً .

لم يعد يبدو لي الأمر مضحكاً . . . حاولت معرفة تاريخ قدوم المفتش ، وكان الجواب انه سيأتي في الصيف المقبل .

في هذه الحال كان علي العمل سريعاً وتبرير مسألة خروجي من ايران ،

ومن بين المرافق السوفياتية والافغانية والباكستانية والعراقية كان مطار مهرباد في طهران أو حاجز بزارغان على الحدود التركية الايرانية هما الوسيلتان الوحيدتـان للعبور.

كان من السهل علي ركوب طائرة والاقلاع من طهران، ولكن عدة أسباب مهمة اعترضتني، منها ان المسؤولين في مطار مهرباد يعرفونني منذ سنوات حيث كنت أتردد الى هناك بحكم عملي على الأقل مرة في الأسبوع. كما أن وجود العديد من المواطنين السوفيات في المطار يحتم علي استعمال جواز سفري السوفياتي عند شرائي بطاقة السفر. وهنا تكمن الخطورة إذ من غير المألوف في ايران أن يسافر مسؤول سوفياتي الى اوروبا على نفقته الخاصة، وفي حال حدوث ذلك فإن الخبر سرعان ما يصل الى ممثل الايروفلوت.

علمني العمل مع اللاشرعيين أن أفكر بكل التفاصيل وأن أتخذ الاحتياطات لتجنب الأخطاء التي قد تودي بي الى كارثة. أما حاجز بزارغان فالمشكلة تكمن في أنه يبعد ٩٠٠ كيلو متر عن طهران، ولكنه كان بوابة النجاة الوحيدة أمامي، فكان علي إعطاء سبب مقنع للإيرانيين للقيام بالرحلة الى الشمال الغربي.

كان مقام الخبراء السوفيات في تبريز التي تبعد ٢٠٠ كيلو متر عن بزارغان، وبصفتي مسؤولاً استشارياً فإنه يحق لي دخول المنطقة إضافة الى معرفتي بالاجراءات اللازمة عند الحاجز كون ذلك من اختصاصي.

أما بالنسبة للمستندات المطلوبة فكان علي تدبير جواز سفر اجنبياً، إذ لا يمكن استعمال جوازي السوفياتي، لأنه ينبغي في هذه الحال ابلاغ وزارة الخارجية الايرانية لتقوم بإعلام السلطات المحلية أن دبلوماسياً سوفياتياً سيقوم بزيارة حاجز بزارغان.

كان السفر في ايران يتطلب ترخيصاً من قبل وزارة الخارجية الايرانية، فقررت استعمال أوراقي الدبلوماسية السوفياتية من طهران الى تبريز. ولم أجد صعوبة كبيرة في الحصول على إذن للرحلة دون أن يعرف أحد في السفارة بالأمر.

لم أشك إطلاقاً بصواب القرار الذي اتخذته، إذ كنت أتذكر بعض الأبيات من شعر فيسوتسكي:

«الحقيقة المجردة ستنتصر بالتأكيد

إذا كانت مثل الكذبة الصارخة»

احتجت الى بعض الوقت لأكمل تحضيراتي. وحددت مساء الاربعاء ٢ حزيران / يونيو ١٩٨٢ موعداً للانطلاق. أمضيت اليوم بكامله في السفارة كالعادة وانهمكت بالعمل في القنصلية، وعدت بعدها الى المقر حيث تفحصت أغراضي في المكتب وتأكدت من عدم ترك أي اثر للاوراق التي حضرتها. بعد ذلك توجهت الى قسم الحسابات لدفع بعض الديون المتوجبة علي، إذ اني لم أشأ إضافة الاختلاس الى جملة الاتهامات الاخرى. بعد الغداء توجهت الى غرفة المراقبة والتنصت وتتبعت ما يقال عبر أجهزة الراديو الايرانية لأكون على اطلاع بما يجري في المدينة، ثم عدت الى شقتي وأعدت فحص وترتيب الأمور بالشكل الصحيح.

أما سيارتي فقد تركتها خارج السفارة، وقلت لمن يسألني اني اودعتها الكاراج في المدينة لإجراء صيانة عادية.

في السادسة مساءً تركت الشقة نهائياً وغادرت السفارة عن طريق القسم الاقتصادي بدل المرور عبر مكتبنا للحرس حيث يسجل الداخلون والخارجون، بينما مكتب الحرس في القسم الاقتصادي لا يسجل اسماء ضباط الـ كي. جي. بي. عند خروجهم. كنت أحمل كيساً بلاستيكياً وضعت بداخله سترتي وربطة عنق، إذ كان الطقس حاراً ولم يكن مناسباً ارتداء السترة.

في طريقي الى مكتب الحرس التقيت ضابطاً يعمل في القسم الاقتصادي وسألني عن وجهتي فقلت له الى المصبغة. ما إن أصبحت خارج السفارة حتى اتجهت الى سيارتي وقد انتابتني الهواجس، ماذا سيحدث إن لم تكن في مكانها؟ ماذا لو سرقت؟ ولكنها كانت هناك حيث تركتها.

بقي عندي أمر واحد، وهو تطبيق إجراءات التأكد من عدم الملاحقة، إذ من غير المعقول أن أسمح للأمن الايراني أن يضع إصبعه على آخر عملية أقوم بها. في الطريق لم ألحظ أية ملاحقة من خلال المرآة الجانبية. وبعد تدقيق متواصل لمدة ساعتين من التجوال في المدينة تأكدت من عدم ملاحقتي. كانت الساعة قاربت الثامنة مساءً وكان الوقت لا زال باكراً لمغادرة طهران،

فقررت الذهاب الى مطعم هادىء في عباس آباد لتناول وجبة الطعام قبل الانطلاق، ولكنني فقدت شهيتي إذ ازدادت عصبيتي، وغالبت نفسي وأكلت الشيشليك وشربت الماء.

في التاسعة مساءً وكان الليل قد خيم على طهران انطلقت باتجاه الغرب عبر ساحة شاهياد حيث اوقفني جندي مسلح ببندقية وطلب مني أوراق سفري:

«غريب... دبلوماسي سوفياتي يتجه غرباً؟»

«أنا ذاهب الى تبريز في رحلة عمل فلماذا الغرابة؟».

في تلك اللحظة توقفت حافلة كبيرة من خلفي واندفع كل الحرس باتجاهها للتفتيش ونادوا على الجندي، فأعاد هذا الي أوراقي وانصرف فانطلقت بسيارتي الـ BMW بأقصى سرعة تاركاً طهران ورائي الى الأبد.

كانت الطريق جيدة ويعود الفضل الى الفرنسيين الذين شيدوها، وبعد ساعة من الوقت مررت بقزوين على بعد حوالي ١٤٠ كلم من طهران، ولكني لم أتوقف إذ كان علي الوصول الى تبريز باكراً حتى أتحاشى الالتقاء صدفة بخبير سوفياتي قد يلمح لوحة تسجيل سيارتي.

فجأة لمحت في المرآة أضواءاً كاشفة لسيارة تتقدم الى جانبي، وتبين أنها سيارة شرطة، فتمهلت حتى لحقوا بي فسرنا جنباً الى جنب وراح الشرطيان يتفحصاني. فنظرت اليهما، وبعد برهة انطلقا بسرعة. ما هو القصد من ذلك؟ هل كان مجرد فضول؟

بوصولي الى مدينة «مينى» شعرت بالتعب، وبدأت عيناي تغمضان فتوقفت قرب دكان صغير أخذت منه بعض الماء، وبعدها حاولت النوم لمدة خمس عشرة دقيقة على الأقل، فلم أستطع، فقررت متابعة الطريق. وبوصولي الى تبريز في الخامسة صباحاً غلبني النعاس فتوقفت جانباً وغططت في النوم مدة أربعين دقيقة. وكان ذلك إضاعة وقت ما كنت قادراً على تعويضه. بعد ذلك انطلقت بأقصى سرعة لأصل الى حاجز بزارغان قبل زحمة السير في التاسعة صباحاً وهو موعد السماح بالعبور. وفي حال عدم عبور الحدود يوم الخميس كان عليّ الانتظار حتى يوم السبت، كون الجمعة نهار عطلة يغلق فيها الحاجز. حاولت تجنب التأخير لأنه قريباً سيُعرف بأمر غيابي في السفارة، وبعدها تنطلق الصفارة.

وصلت بزارغان في الثامنة وخمس وأربعين دقيقة، وكانت الطريق المؤدية الى الحاجز مكتظة بـالشـاحنـات التي اصطفت على مسـافـة كيلـو متر. أوقفت سيارتي وجمعت أوراقي فخبأتها، وحضرت جـواز سفـري الأجنبي ثم انطلقت نحو البوابة المؤدية الى منطقة الحدود.

نظر المسؤول المدني في أوراقي على وجـه السرعـة وسمح لي بـالمرور. قـدت سيارتي الى مـوقف مليء بـالشـاحنـات وغسلت وجهي بما تبقى معي من مـاء ووضعت سترتي وربطة العنق وحملت حقيبة اليد وخطوت باتجاه الحاجـز بعـد أن أقفلت السيارة.

في الطريق اوقفني مجموعة من الحرس الثوري مرّت بالمكان صـدفـة، «من انت؟» سألني أحدهم بالفارسية. أجبته بالانكليـزيـة اني لم أفهم مـا قـالـه، فأعاد السؤال علي بالانكليزية مسلح آخر بدا حسن المظهـر ومحترمـاً أكثـر من كونه حارساً، فأخبرته اني ذاهب الى تركيا. وبـدا لي أن مستمعيّ فتحـوا آذانهم مستغـربين. وفجأة أدركت أن تصرفي غير طبيعي نتيجـة الخوف، فأجبتهم بالفارسية، «آه. . . أنت تتكلم الفارسية» قال أحدهم. «أجل ولكن قليـلاً» أجبت بالانكليزية، فلم يرق لهم ذلك.

«كيف وصلت الى هنا؟».

أخبرته أن صديقاً لي أوصلني وعاد أدراجه.

«هيا بنا نسأل المسؤول على البوابة» قال الأول.

توقف كل شيء في داخلي عن العمل وفضلت عدم التفكير بما سيحدث. فحمل أحدهم جواز سفري بينما حمل الآخـر حقيبتي، وسرنـا في اتجاه البـوابـة حيث كان المسؤول يفتش إحدى الشاحنات.

«هل تتذكر هذا الشخص؟» سأله المسلح. رد المسؤول بالايجاب.

«كيف وصل الى هنا؟». كان المسؤول في حالة خـوف شـديـد إذ شعـر أن الحرس يحاولون إلصاق تهمة ما به. قال:

«بالسيارة».

«كم شخصاً كان في السيارة؟»

في تلك اللحظة ولا أدري كيف حصل ذلك، تنهدت بصوت خافت بالفارسية «اثنان، وقد عادت السيارة».

«اثنان وقد عادت السيارة» رد المسؤول مصادقاً على كلامي. لم أصدق أذناي.

«آه، هذا يعني أنك قلت الحقيقة، نرجو المعذرة على تأخيرك، فهاك جواز السفر والاغراض وسوف نوصلك الى الحاجز، فالطريق طويلة».

ثم نادَوْا على سيارة حيث قام السائق بإيصالي الى مبنى الحاجز. لم أنطق بكلمة واحدة حتى لا تخونني أعصابي.

مفاجأة أخرى كانت تنتظرني على الحاجز، إذ قضى القانون الجديد بالتحقيق مع كل أجنبي يعبر الحدود من قبل مندوب عن جهاز الأمن الايراني.

«من المقلى الى النار».

أُخذت الى غرفة جانبية حيث جلس شاب ذو لحية (بالطبع لم يكن مسؤولاً من السافاك)، وكنت محظوظاً إذ انه لا يتكلم الانكليزية، فتولى الترجمة لنا ضابط من مراقبي الجوازات. جلست وأنا أحدق في وجه الرجل فسألني عما أفعله في ايران.

أجبت: «في رحلة عمل».

«ما هو رأيك بريغان ومارغريت تاتشر؟» قال هذا وهو ينظر جانباً.

«السياسة لا تهمني وأنا لا أنوي مناقشة الأمر مع شخص مثلك». أجبته بلهجة دلت أن سؤاله ليس بمحله.

نظر المترجم الي باستغراب وراح يترجم له ما قلت بلهجة لينة ولطيفة، ولكن الشاب صاحب اللحية لاحظ فرقاً في نبرة صوتي ولهجتي فاغتاظ وسلم جواز سفري بسرعة الى الضابط الذي دقق في الصفحات فوجدها صالحة، فأشار زميله نحو الباب بيده سامحاً لي المغادرة. في أثناء ذلك كان تفكيري مركزاً على الهاتف الأسود على الطاولة أمامه. وما توقفت عن الاعتقاد بأنه سيرن في أية لحظة فيفتضح أمري.

رافقني الضابط الى بوابة الجمارك وكانت ما زالت مقفلة . وبعد خمس دقائق بدت أبديّة حضر الرجل المسؤول وراح يجرب المفاتيح الواحد تلو الآخر. كان كل شيء يسير ببطء شديد كأنك أمام فيلم سينمائي توقفت فيه الحركة الى الحد الأدنى .

أخيراً فُتح الباب ودخلت صالة الجمارك حيث وضعت طاولة مستديرة جهة منها خاصة بالداخلين الى ايران والأخرى بالمغادرين الى تركيا ، فتولى أحد المسلحين الثوريين تفتيش حقيبتي ، وبعدها مشيت بضعة خطوات ودخلت الأراضي التركية .

في الجهة المقابلة فتح الاتراك محالاً للسوق الحرة تُعْرض فيها المشروبات الروحية ، ولعلهم فعلوا ذلك عن تعمد لإثارة الايرانيين .

لم يفتشني أحد عند الحدود التركية ولكنهم أمعنوا النظر في الصورة على جواز السفر، وعند خروجي من الجمارك التركية عدت فنظرت الى الجهة المقابلة فرأيت حراس الثورة الاسلامية في حالة هياج وفوضى . ولكن الآن كل ذلك أصبح من الماضي فإلى اليمين علا جبل أرارات بقمته الجميلة الشامخة والتي ترمز الى روح خلود الشعب الأرمني ، وقد ضُمّ الى تركيا بعد ثورة ١٩١٧ نتيجة للسياسة البولشفية ، فشعرت أني مثل ذلك الجبل ، روحي مع ما اعتبره وطني الأم وجسدي في بلاد أجنبية .

الخاتمة

منذ اللحظة الأولى لوصولي الى الغرب شعرت أن حياتي تغيرت كلياً، ولا أقصد الناحية المادية فذلك الأمر لم يَغْنِ لي الكثير، إذ لم يعد هناك من داع للتظاهر أو القيام بما يتعارض مع ضميري أو التفكير بأمر وقول آخر أو أنْ أعيش حياة سوفياتية مزدوجة، فقد اختبرت روح الحرية للمرة الأولى، والآن باستطاعتي شق طريقي في الحياة، الحياة الصادقة. لقد جمعت العديد من الأصدقاء المخلصين الجدد وهؤلاء ساعدوني وجعلوني أشعر اني في بيتي في هذه الحياة الجديدة، واليهم أوجه شكري.

عن بُعد لاحظت المشاكل السوفياتية بوضوح وما رأيته كان مروّعاً، فقد انهار الاقتصاد السوفياتي بكامله، فالفارق الاقتصادي بين الغرب والاتحاد السوفياتي كان كبيراً وعميقاً لدرجة لا يمكنك مقارنته.

أما الحرية الحقيقية فلن تعرفها إلا بعد الاحتكاك شخصياً بالنظام السياسي في الغرب. فالحرية هي أن تفعل ما تريد دون أية شروط فكرية أو ضغوط عقائدية، فالشروط الفكرية توجد فقط في عالم التجارة حيث يحاول المنتجون بواسطة الاعلان اقناع الزبائن بشراء بضائعهم بدلاً من بضائع منافسيهم.

بالطبع، للبلدان الغربية مشاكلها، ولكنها تبقى دون تلك التي في الاتحاد السوفياتي، فعندما يشاهد اللاجئون من الاتحاد السوفياتي المظاهرات في الغرب التي تقوم بها المنظمات اليسارية يتبادر الى أذهانهم القول: «أيها الجماعات اليسارية، يجب أن تزوروا أياً من الدول الاشتراكية لكي تشفوا من مرضكم اليساري فتفهموا بالتالي معنى الحياة في المجتمع الشيوعي».

فمع الوقت يفهم اللاجئون من الاتحاد السوفياتي معنى الديمقراطية والحرية، فالأفراد مثل المنظمات، لهم كل الحق في التعبير عن آرائهم.

وعندما ترى الحياة في المجتمع الديمقراطي المتحضر تتساءل عن سبب القسوة التي يرزح تحتها الشعب السوفياتي، فما الذي صنعوه ليغضب الخالق عليهم ويعاقبهم بهذا الشكل؟

روجت السلطات السوفياتية أخباراً حول اختفائي من طهران مفادها اني اختطفت على يد إرهابيين أفغان، وذلك تهرباً من إلقاء المسؤولية على عاتق أحد. ولكن ما ان انتشر خبر وجودي في الغرب حتى سارعت الجهات السوفياتية الى ترتيب اجتماع معي، ولكنني رفضت ذلك. ولم يكن السبب خوفي إطلاقاً، بل لأني كنت على حق وصواب، وبالتالي لم يكن هناك من داعٍ للمناقشة.

في سنة ١٩٨٢ توفي ليونيد بريجينيف السكرتير العام للاتحاد السوفياتي وبدأ الصراع من أجل السلطة في الكرملين، وأضحت مسألتي الصغيرة من الماضي.

تسلم السلطة يوري اندروبوف رئيس الـ كي. جي. بي. السابق وأعلن على العالم أجمع أن السلطة في الاتحاد السوفياتي أصبحت في أيدي الـ كي. جي. بي. كان ذلك مجرد وهم، فالسلطة كانت دوماً بيد الحزب وما زالت، فيوري اندروبوف كان مسؤولاً حزبياً انحصر دوره في رئاسة الـ كي. جي. بي.

أما جورج بوش، رئيس الولايات المتحدة الأميركية الحالي، بالرغم من أنه كان رئيساً للـ سي. آي. اي. إلا أن أحداً لم يعلق على مجيئه الى السلطة، غير أن الغرب تابع تضخيم وترويج الخرافات عن قوة الـ كي. جي. بي. فالتلفزيون البريطاني (تايمز) عرض مجموعة حلقات عن جوزيف ستالين تحت عنوان: «أخذ الإذن من الـ كي. جي. بي. لرؤية مخيمات العمل لم يكن أمراً سهلاً». فالقرار هنا ليس للـ كي. جي. بي.، ولكنها الصورة العامة الطاغية، وهكذا يستمر مسلسل الارتياب بالـ كي. جي. بي. الجبار، في الغرب كما في الاتحاد السوفياتي نفسه.

أدرك اندروبوف حتمية القيام ببعض التغيرات الأساسية في الاتحاد السوفياتي. إذ في ذلك الوقت وحتى خلال عهد بريجينيف في بداية الثمانينيّات كان القلائل من الناس الذين عرفوا بأمر تقارير الـ كي. جي. بي. التي شددت دوماً على الأوضاع الراهنة وعلى التدهور الحاصل في الاقتصاد،

وبالتالي أدت الى ازدياد النقمة في صفوف السكان لإزالة الوضع المتفجر هذا. تطلب الأمر تغيرات جذرية من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، ولكن في ذلك الوقت لم يعر أحد اهتمامه لما يحصل.

وجه اندروبوف أولى ضرباته الى مؤسسة الحزب الحاكم أو بالأحرى الى حاشية بريجينيف المحتال الأكبر في التاريخ السوفياتي، ولكن لم يتمكن اندروبوف من تحقيق الكثير بسبب المرض الشديد الذي أدى الى موته.

عادت الأوضاع الى سابق عهدها أيام حكم بريجينيف ـ ستالين، فتسلم شيرينكو مهامّ السكرتير العام وكان صديقاً حميماً لبريجينيف. وهكذا تنفس الحزب الحاكم الصعداء. ولكن شيرينكو لم يدم طويلاً، إذ أصيب بمرض في الرئة قضى عليه بعد عدة أشهر من تسلمه السلطة.

أما قائد الحزب الجديد الذي انتخب سنة ١٩٨٤، ميخائيل غورباتشوف، فكان الأصغر سناً بين القادة السابقين في الاتحاد السوفياتي. في البدء لم أعر خبر تعيينه أي اهتمام. فبالنسبة لي كان واحداً من هؤلاء فلم اتوقع منه أي تغييرات، ولكن تبين لاحقاً انني كنت مخطئاً.

بعد تسلمه السلطة تخلص غورباتشوف من جماعة بريجينيف في اللجنة التنفيذية للحزب، وطالب بالبرويسترويكا أو بإعادة التشكيلات واعتماد سياسة انفتاح تشمل كل مرافق الحياة السوفياتية، وإطلاق حرية التعبير والرأي، فطبق ذلك واقعياً على الأرض، إذ راح الناس يتحدثون علناً عن الحرب في افغانستان، وللمرة الأولى منذ بدئها، واعترفوا عن تكبد الجيش السوفياتي خسائر فادحة فيها.

كذلك ألغيت الرقابة وسمح بانتقاد الجرائم التي ارتكبها ستالين ومناقشتها علناً، وهكذا سمح الحزب بفتح السدّادة على عهد ستالين لتنفيس بخار النقمة العارمة والمتراكمة عند الشعب.

ولكن حرية التعبير أضحت كرة ثلج راحت تتهاوى من أعلى التل بسرعة لتكبر أكثر فأكثر بحيث أصبح من الصعب ايقافها، وأصبحت الحقيقة تعلن رسمياً، فكشف عن الجرائم التي ارتكبها النظام متستراً تحت غطاء المبادىء والعقائد، وبدأت التحقيقات الجدية في بعض المسائل وفضحت تفاصيلها المرعبة.

تبيّن أن الارهاب ضد الناس لم يبدأ في عهد ستالين بل منذ الأيام الأولى للثورة، إذ قضى البولشفيك الحمر على أكثر من ثلاثين مليون شخص في مخيمات التعذيب السوفياتية وسجونها، إضافة الى عشرين مليوناً قضوا خلال الحرب العالمية الثانية. لقد أدرك الشعب السوفياتي اليوم ان نظام ستالين كان على وفاق مع المانيا النازية، وبالتالي شارك في المسؤولية باندلاع الحرب العالمية الثانية، وأدى الاتفاق الى احتلال بلدان البلطيق: اوكرانيا الغربية وبيسارابيا، وهذا أدى الى نشوب الاضطرابات في جمهوريات البلطيق مطالبة بالاستقلال، وبعدها برزت المشاكل في جمهوريات الاتحاد السوفياتي الباقية.

طالت حرية التعبير عهد بريجينيف أيضاً فكتبت الصحف عن وقائع برزت داخل إدارة بريجينيف سنة ١٩٦٤ ـ ١٩٨٢ التي عمها الفساد وأصيب الاقتصاد في الصميم واستفحلت الجريمة المنظمة. لهذا السبب طالب غورباتشوف بالبريسترويكا، لغربلة وضبط الماكينة الحزبية، وهذا ما حصل بالضبط، فأُزيح المختلسون الوقحون عن الحزب، ولكن الأمور بقيت على حالها، فكان إلغاء الامتيازات الحزبية حبراً على ورق.

بالرغم من ذلك كان لإطلاق حرية الرأي دورها إذ أعادت الاعتبار للافراد، وأزاحت الأقنعة عن الوجوه، وألقت مسؤولية الرعب والارهاب التي حصلت بعد الثورة على عاتق أجهزة الأمن وأجهزة الحزب نفسه. فذاك الحزب الذي اعتبره القادة «العقل والشرف والضمير» بدا في الواقع مجرد عصابة مافيا وكان مصاباً بالاهتراء حتى العظم؛ فاستولى على السلطة بالقوة في حين لو فتح المجال أمام انتخابات حرة لما بقي أثر للحزب الشيوعي السوفياتي، وهذا أمر كان يعرفه المسؤولون جيداً، وقد ظهر ذلك واضحاً من خلال المظاهرات في عدة جمهوريات سوفياتية بما فيها روسيا نفسها، إذ بدوا مقتنعين كلياً بالذي حصل في بلدان الكتلة السوفياتية حين أدت الثورات سنة ١٩٨٨ و١٩٨٩ الى جرف الأنظمة الشيوعية.

اضطر مسؤولو الحزب مكرهين الى مجاراة مواقف وقرارات غورباتشوف للأسباب التالية:

أولاً: لا يمكن الاستغناء عن دعم الغرب في تنمية الاقتصاد السوفياتي المنهار والمشترط إحياء الديمقراطية التي بدأها غورباتشوف. فغورباتشوف معروف وموثوق به في الغرب لدرجة لا يمكن تنحيته عن السلطة، والغربيون

يـرون فيـه الشخص التقـدمي الـذي أزال الحرب البـاردة بين الشرق والغـرب وسحب القوات السوفياتيـة من افغـانستـان ، وقـام بمبـادرات عـدة أدت الى تخفيض الأسلحة وعدد أفراد القوات المسلحة ، وأعطى حـريـة تقـريـر المصير للبلدان الاوروبية الشرقية ، وقطع شوطاً في جعل الحقوق الانسانية أكثر عدالة داخل الاتحاد السوفياتي وسهل قوانين الهجرة .

بمعنى آخر فإن تنحية غورباتشوف عن الواجهـة السيـاسيـة سيـؤدي من جديد الى عزل الاتحاد السوفياتي على الصعيد الدولي وما قد ينتج عن ذلك من سلبيات .

لذا اختار مسؤولو الحزب أسلوباً تكتيكياً للمقاومة الخفيـة ، وذلك لضرب مبادرة البريسترويكا من الناحية الاقتصادية ، والسير قدماً على خطى ماركس في إعطاء السلطة لهؤلاء الذين يمسكون بوسائل الانتاج ـ أي الدولة ـ وبمعنى آخر مسـؤولي الحزب . وهـذا يعني أن الشعب بكـاملـه يتكل اقتصـاديـاً على الدولة . أما في حال السماح بالاقتصاد الحر والقطـاع الخاص فعنـدهـا تصبح الأغلبية مستقلة اقتصادياً عن الدولة ، وبالتـالي سينظـر هـؤلاء الى مصـالحهم السياسية الخاصة فتبرز جراء ذلك معارضة سياسية يمكن تمويلهـا ، وهـو مـا سيضع حداً نهائياً لسلطة مسؤولي الحزب .

لهذا السبب تعترض الطبقـة الـوسطى من مسـؤولي الحزب على إنشـاء التعاونيات وتأجير الأراضي للفلاحين ، فـوُضعت الشروط وفـرضت الضرائب عليها ، مما دفع الكثيرين من التجـار المستقلين الى الاستسـلام لعـدم قـدرتهم خرق حائط البيروقراطية .

في ظل هذه الظروف استمر وضع الناس المادي في التدهور ووصل مرحلـة نقص المواد الغذائية في البلاد وتطلب وضع برنامج الحصص عبر البطاقـات ، وهو ما كان سائداً خلال الحرب العالمية الثانية .

تنتشر الشائعـات في البـلاد أن التغيرات التي قـام بها غـوربـاتشـوف هي السبب الرئيسي في المشاكل ، ولا شك على الإطلاق بأن مروجيها هم مسؤولـو الحزب ، وهذا ليس بالأمر الجديد ، فقد عمـد هـؤلاء الى الـوسـائل ذاتها ضـد خروتشوف سنة ١٩٦٤ بغية تحضير الشعب للانتفاضة و إقالته .

هذا الواقع يضع غورباتشوف في موقف صعب للغاية . فهو الان واقع بين

ضغط مسؤولي الحزب المعارضين للتغيير، وبين مطالبة ممثلي المنظمات العديدة المعارضة بتغيرات كبيرة. ولذا ينبغي على غورباتشوف أن يناور دوماً، وهو قد ناور من قبل حين تسلم رئاسة الاتحاد السوفياتي وأمسك بسلطات مطلقة لا يمكن التكهن بمدى استعمالها، وبالرغم من مناوراته فإن النقمة تتفاقم، وقد خيّبت البرويسترويكا آمال الكثيرين الذين لم يعودوا واثقين بجدواها.

فالمبادرات الاقتصادية لم تترجم فعلياً على الأرض، وموجة عدم الارتياح ما زالت سلمية، ومن الممكن أن تتخذ منعطفاً آخر قد لا تحمد عقباه، فالصبر عند الشعب لا يصمد طويلاً خاصة بعض عصور من الانتظار، وقد ترجم ذلك فعلياً في بلدان اوروبا الشرقية حيث تساقطت الديكتاتوريات الواحدة تلو الاخرى، فقتل ديكتاتور في رومانيا بينما أحيل الآخرون الى المحاكمة. هؤلاء الشيوعيون المتمسكون بالسلطة يحاولون التنصل من العقائد التي يكرهها شعبهم، وهم يحاولون ارتداء ثوب آخر لامتصاص النقمة عليهم.

لم يحدث أي تغير حتى الآن في الاتحاد السوفياتي، أضف الى ذلك أن أكثرية المطالب والحركات المتصاعدة قد اخمدت بالقوة المسلحة، وهذا ما حدث في بتيليسي وأذربيجان وارمينيا. ومن الممكن حدوث مثل ذلك في مكان آخر. فهذا النوع من العمليات قد يثبت للمعارضة أن الحزب لا ينوي التخلي عن السلطة.

التناقض الحاصل يدل أن الأكثرية في الغرب تؤمن بالبرويسترويكا، بينما العكس هو الصحيح في الاتحاد السوفياتي، وخلال محادثات بين زوار سوفيات وآخرين من دول غربية تبين أن الغربيين غالباً ما يحاولون اقناع السوفيات بحسنات البريسترويكا، ولكن السوفيات لا يمكنهم قبول ذلك، لأنهم يعرفون شؤونهم بشكل أفضل، فالأكثرية موافقة على أن البريسترويكا مجرد عرض تمثيلي، وأن التغيرات ليست سوى أدوات تجميل، فيما يعارض ذلك الغربيون ويعتبرون كلامهم نوعاً من التطرف المطلبي الجشع والمتعجل. من جهة أخرى اعتبرت الصحافة في الغرب كل مبادرة جديدة من القيادة السوفياتية «انجازاً جيداً»، وفي آذار / مارس ۱۹۹۰ وما إن أعلن مجلس اللجنة المركزية في موسكو تخلي الحزب الشيوعي عن احتكاره للسلطة بضمانة من الدستور السوفياتي حتى تعالت أصوات التأييد في الغرب معتبرة الأمر انتصاراً حققه قادة البريسترويكا.

ولكن بين المبادرة والانجاز تقع عدة سلبيات تسيطر على الوضع السوفياتي، فنتائج المبادرات ما زالت معدومة من الناحية العملية، وهي غير قادرة على اختراق جدار البيروقراطية الذي شيده الجهاز نفسه، وما تلك المبادرات سوى وسائل للبقاء في السلطة مهما كلف الأمر، وبمعنى آخر: اقناع الناس بالانتظار مدة أطول.

ما إن يتصاعد تهديد الاضطرابات في البلاد حتى يعلن عن مبادرة جديدة؛ فبدون شك وفي مكان ما يحتفظ أعضاء اللجنة المركزية بمخزن من المبادرات، وهم حالياً يعيدون تنظيم هيكلية الحزب، حتى إذا ما ازداد الضغط سارعوا الى تغيير اسم الحزب، وربما لاحقاً سيتخلون عن ايديولوجيات الشيوعية. وهكذا دواليك الى ما لا نهاية.

هناك أمر واحد لن يتخلى عنه الحزب وهو السلطة، والمسؤولون يدركون هذا الأمر جيداً، ولذا فإن كل مبادرة جديدة تترافق مع التهديد بانقلاب عسكري وحرب أهلية. «اذا لم تقبل هذه المبادرة فستحل الكارثة». ولكن الكارثة هذه ستأتي من جهاز الحزب نفسه، كون ماكينة الدولة كلها ما زالت على حالها، فمصادر القمع هي بيد الحزب وتحت سيطرته التامة.

هل من مستقبل للـ كي. جي. بي.؟ يُشك في أمر ذلك، إذ من أجل البقاء يقوم النظام بتقديم التنازلات الواحد تلو الآخر الى عناصر المعارضة، وإحداها ستكون حتماً إلغاء الـ كي. جي. بي، ولكن ذلك لن يتم حالياً في أوج القوة الشيوعية، بل بعد أن تزداد النقمة الشعبية ويصبح هؤلاء تحت المطرقة، فعندئذ ترمي هذه «العظمة» الى الشعب لإسكاته.

لنفترض أن الديمقراطية الحقيقية تسلمت السلطة في الاتحاد السوفياتي، فإن أول خطوة تتخذها دون شك هي إلغاء الـ ك. ي جي. بي، وفي حال وصول الجيش الى السلطة من خلال انقلاب عسكري فإنه سيقضي على الـ كي. جي. بي. حتى ولو كان النظام الجديد شيوعياً ارثوذكسياً. والسبب واحد... فالجميع في الجيش دون استثناء يكرهون الـ كي. جي. بي. لمسؤوليته عن أمن القوات المسلحة.

أما الأمل، بوصول الـ كي. جي. بي. الى السلطة في الاتحاد السوفياتي عن طريق انقلاب مدني، فضعيف لأن الجيش لن يرضى بذلك وعلى الأرجح سيلجأ الى القوة لإفشاله.

أثـرت التغيرات الحاصلـة في البـلاد على الــ كي . جي . بي . من نــواحٍ عديدة، فبعد وفاة بريجينيف تغير رئيس الــ كي . جي . بي . ثـلاث مـرات، وكان آخرها في عهد غورباتشوف الذي أقال شيبريكـوف وعيّن مكـانـه رئيس القيادة العامة الأولى للـ كي . جي . بي . (سابقاً) فلاديمير كريوشكوف، وقد علّق الغرب على قرار غورباتشوف بأنه استبدال قائد متحفظ بآخـر تقـدمي، ولكني أنظر الى هذا التغير من زاوية أخرى، إذ أن جميع القادة وعلى مر العهود أحاطوا أنفسهم بجماعاتهم الخاصة المخلصة، وكذلك فعل غورباتشوف .

من جهة أخرى عين ليونيد شيبارشن قائداً للقيادة العليـا الأولى للــ كي . جي . بي . وهو نفسه الذي خدم في المقر في طهران، فيا لها من تـرقيـة سريعـة ومهمة .

طالت سياسـة الانفتـاح الــ كي . جي . بي . فسُمح بـادخـال كـاميرات التلفزيون الى سراديب مقر قيادتها، وظهر جنـرالات الــ كي . جي . بي . على شاشة التلفزيون في مناظرات ومقابـلات . أمـا نـواب الشعب فطـالبـوا بلجم صلاحيات الـ كي . جي . بي . وحفر اسماء جميع ضحاياهم على جدران مقـر قيادتهم .

وهكذا بدا من جديد أن أحدهم يحاول إبعـاد حقـد النـاس عنـه وصبّه في خانة الـ كي . جي . بي . التي تدنت صلاحياتها أكثر من أي وقت مضى .

لم يعد خافياً على أحد ان الــ كي . جي . بي . كـانت تحت سيطـرة الحزب وقادته، وما قامت به كان تنفيذاً لأوامـرهـم . وهكـذا فمن الأجـدى أن تحفـر أسماء عشرات الملايين من الضحايـا على كل إنشٍ من مبنى اللجنـة المركـزيـة للحزب الشوعي في ساحة ستارايا .

هذه الايام قلّما نسمع عن الـ كي . جي . بي . إذ يحكى الكثير والكثير عن الجيش وجنود وزارة الداخلية الذين قمعوا الاضطـرابـات الشعبيـة في شـوارع الاتحاد السوفياتي .

أما الحياة السياسية فازدحمت بمباركـة من السلطـات وأحيـانـاً من دونها؛ فبرزت المنظمات على اختلافها والحركات والأحزاب، وسمح للمنشقين الـذين طردوا من الاتحاد السوفياتي بالعودة للبقاء أو للزيارة، كذلك صدر عفـو عـام عن الجنود الذين ارتكبـوا جـرائم في افغـانستـان والـذين هـربـوا من الخدمـة

العسكرية، ولكن العفو لم يشمل امثالي الـذين لجأوا الى الخارج بسبب قـرفهم واشمئزازهم من فساد الدولة السوفياتية، وليس في الأفق ما يـدل أن قـراراً من هذا النوع سيصدر. بل أين الأمل في ذلك بعد عملية تـدبير اغتيـالي بـواسطـة الحزب الشيوعي البريطاني وفي أيام حكم غورباتشوف؟

على أية حال لا يمكن التكهن بأن نشاط الـ كي. جي. بي. مجمدٌ اليـوم كليا؛ ، فما زال أمام هذا الجهاز الكثير من العمل داخل البـلاد، وهـو بأوامـر من قـادتـه يعمل الآن على جمع المعلـومـات عن مختلف القيـادات والمنظمات والحركات المعارضة للقيام بعملية قمع محتملة. وهؤلاء القادة أنفسهم أصدروا التعليمات الى الـ كي. جي. بي. بوضع القناع الانساني في الـواجهـة الى حين فتح ارشيفهم أمام الشعب. غير أن تلك التعليمات يمكن تغييرها غـداً ليقـوم بعدها اصدقاؤنا التشيكيون بمؤازرة الجيش وعنـاصر وزارة الـداخليـة، بقمع حركة الديمقراطية الجديدة واعتقال قادتها. .

ولكن هل من المعقول حدوث ذلك؟ وهل يعتقد مسؤولو الحزب حقاً أنهم قادرون على الاستئثار بالسلطة الى الأبد؟!

أشك في ذلك.

لقد أزهرت بذور الحرية ونضجت ثمارها؛ فالشعب السوفياتي استفاق من الحلم الشرير والولاء الأعمى للحزب، وانتصب لمواجهة القيود التي كبلتـه بها الأجهزة، ولم يعـد بـالإمكـان إيقـاف المسيرة؛ فـلا الــ كي. جي. بي.، ولا مخابرات وقـوات الجيش، ولا الـذرائع الملفقـة عن الانفتـاح الـوهمي يمكنهـا إرغامه على التخلي عن البرويسترويكا؛ ولن تجدي الاساليب التي يلجأ اليهـا المتمسكون بالسلطة في جعل حركة التاريخ تسير الى الوراء.

عندما كان كارل ماركس حياً كتب في «الكوميونيست مانيفستو»: «الشبح ـ شبح الشيـوعيـة ـ يسكن اوروبـا». ولا شك، ان التطـورات الحاصلـة في مختلف الدول الاشتراكية اليوم هي الدليل الواضح على أن النهايـة قـد حـانت للايديولوجية التي روّعت وعـذبت أجيـالاً كـاملـة. . وأنـه في نهايـة المطـاف ستكون بقايا الشيوعية. . . هي الشبح.

هذا الكتاب

عندما خرج فلاديمير كوزيشكن (٣٥ عاما) من السفارة السوفياتية في طهران في حزيران (يونيو) ١٩٨٢ متجهاً الى الحدود التركية ومن ثم طلب اللجوء السياسي الى الغرب، كان برتبة مايجور في جهاز «اس» (المخابرات غير الشرعية) التابع للقيادة العليا للـ كي. جي. بي. ويحمل في جعبته أسرار الجهاز الغامضة. هذه الجعبة تحتوي على قصص أغرب من الخيال لعالم الجاسوسية. بدأ بالتدريب في مدرسة الـ كي. جي. بي. ١٠١ في ضواحي موسكو مروراً بالتعيين في ايران، الأمر الذي وضع المخابرات السوفياتية في المواجهة مع جهاز «السافاك» السري الموالي للشاه ثم مع الثوريين الأصوليين في الجمهورية الاسلامية تحت قيادة آية الله الخميني.

لقد كتب كوزيشكن الكثير عن تصرفات الـ كي. جي. بي. ووسائلهم الشاذة وانتحالهم الشخصيات. كما انه كشف أسراراً عن محاولة الـ كي. جي. بي. لاغتيال الشاه، وكذلك تخطيط وتنفيذ الاعتداء على القصر الرئاسي في كابول، الأمر الذي حرض السوفيات على اجتياح افغانستان.

الحديث هنا، ليس عما اعتقده الغرب لعدة عقود من ان الـ كي. جي. بي. هو الجهاز الذي لا يقهر والجواسيس الأكثر دهاء والضباط الأشد انضباطاً، وانما هو عن منظمة هدفها مساعدة الحزب الشيوعي والحكومة اللامسؤولة في ملاحقة الفساد الذي عمّ أوساط ممثليهما في طهران كرئيس الوفد التجاري ورئيس المستشفى السوفياتي والسفير.

ويعيد كوزيشكن الى الأذهان، الخوف والأرق النابعين من التجسس في أجواء عدائية، كما انه يعرض الملف الاجرامي خلال آخر سنوات حكم ليونيد بريجينيف الذي شهد فصول الانهيار والتقهقر للامبراطورية السوفياتية.

* * *

Bibliotheca Alexandrina
0961371